
رواية
الإصبع السادسة
خيرى الذهبى
ميريت
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

الإصبع السادس

رواية

خيرى الذهبى

الطبعة الأولى 2012.

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 25797710 (202)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: كريم آدم

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: 2012/5499

الترقيم الدولى: 9-635-351-977-978

خيرى الذهبى

الإصبع السادس

رواية

دار ميريت

القاهرة 2012

نـــديمي غـــير منـــسوب إلى شـــيء مـــن الحيـــف

ســـقاني مثـــل مـــا يـــشرب كفعـــل الـــضيف بالـــضيف

فلمـــــا دارت الكـــــأس دعـــا بـــالنطع والـــسيف

كـــذا مـــن يـــشرب الـــراح مـــع التـــنين في الـــصيف

الحسين بن الحلاج

- 1 -

كانـت ضـحكة مروعـة جعلتـه يتجمـد، أراد تجاهلـها، لكـن الـضحكة تكررت، وعرف أنه لن يستطيع الإمعـان في التجاهـل، ولـن يـستطيع مواجهـة أهالي الميت لو حضروا صباحاً ومعهم الشيخ عصمان لقراءة ربع ياسين كالعادة.

ترددت الضحكات، وكان جلده يقشعر لدى كل ضحكة، تمنـى لـو كانت عواء، أو نباحـاً، ولكنهـا الـضحكة يعرفهـا، وهـذا مـا وعـدهم بالحيلولـة دون وصولها إلى العريس.

قالوا: عريس لم يشبع من عروسه بعد. وتنهد الأب في انجراح.

وقـال أخـو الأب: هـذا المـصري الملعـون لم يـترك البلـد إلا بعـد أن ملأهـا بالأرامل والثكالى، وقلنا الحمدلله لقد نجا ابننا، فأسرعنا بتعريـسه مـا إن أدرك الرجال، ولكن، القدر لم يمهله ونظر الأب إليه في رجاء أن يصمت... وصمت.

قال الأب: ليرتان ذهبيتان. هل تكفيـان؟ طبعـاً لم تكونـا بـالقليلتين، ولم يكن بإمكانه التعفف فقد كانتا ثروة صغيرة، وكل المطلوب هو أن يرتاح العريس في قبره لشهر حتى تسأم الملعونة التي عوّدها المصري لكثرة ضحاياه علـى لحـوم أبنائنا.

انحنى على يده يكاد يقبلـها: ارحـم شيبتي، وارحـم انكـسار أمـه. و... حنين زوجه التي لم تـشبع منـه...و... وافـق علـى النـوم في الكـوخ أول المقـبرة يحرسها من هجماتها.

اختلطت الضحكة بالهرير، وعرف أنها قد بدأت، فانتضى عصاه الغليظة وخنجره الشركسي العائم بين الخنجر وبين السيف، وأشعل فانوسه، وانطلق يصرخ: ولووو... وأنا الشاويش أبو حسان جاييكم يا كلاب البر.

امتلأ المشهد خارج الكوخ بالأشباح والظلال، أشباح الشواهد، وأشباح أغصان الشجر المتدلية، وأشباح ظلال القبور المتداخلة، كان المشهد رعباً حقيقياً، ولو لم يكن هو الشاويش أبو حسان الذي عرف الجميع بسيرته أثناء خدمته الطويلة مع الباشا المصري عبر الأناضول وكريت، فلربما تخلى عن هذه المهمة رغم حاجته الشديدة للمكافأة التي ستستر ماء وجهه لبعض الوقت.

ولكن.. تقدم وهو يشجع نفسه ويصرخ: ولووو. كانت ممطوطة بواو طويلة قاسية. يا كلاب البر، وأنا أبو حسان، ولكن السكون المخيف حلَّ على المكان، سكون امتد وتطاول حتى شكَّ إن كان قد سمع ضحكها قبل قليل، سكون جعله يتوفز ويحسُّ بالعرق ينسلُّ من إبطيه وعجانه. أتراها تعد مفاجأة له.

عاد إلى الكوخ إلى حيث سلاحه الذي قضى النهار يفكر في اللجوء إليه، السلاح الذي لم يخبر أهل الحارة عنه، ولكنه يعرف فعله في الليل الساكن، فلقد خبره في الدوريات الصعبة هناك عند بيلان وقونيه، وبروسه، والوحوش البرية الكثيرة... مع أواخر الغروب كان قد نشر خيوطاً من بارود في ثنايا المقبرة وفي حاراتها الصغيرة بين القبر وبين القبر، أشعل قطعة من خيوط القنَّب من فتحة القنديل، ووضعها عند أول خيط البارود، فامتدت النار تلاحق خيط البارود. استخرج طبله وأخذ يطرق عليه بقوة...

كان النجاح كاملاً، فلقد انتشرت النار في خيوط البارود، وانتشر القرع في حارات المقبرة، ورأى الأشباح تنسحب من المنفذ الوحيد الذي أعدَّه لها بعد أن صدَّتها النيران عن المنافذ الأخرى ورآها تتجه إلى المنفذ الوحيد حيث لا نار،

وسمع صوت الحيوان الأول يسقط في الحفرة التي حفرها منذ غروب الأمس، وانطلق العواء.

ثم... رأى أشباحاً تندفع هاربة، ولكنها لا تسقط في الحفرة فلقد حذَّرتها صرخات وعواءات ونباحات وعويلات الساقط في الحفرة. مضى إليها بعد أن غاب الحيوان الأخير. وألقى نظرة على الحفرة ورآها في ترقطها وأنيابها الصفر تحاول القفز خارجة وتعجز فتهرُّ في غضب بينما انزوى في ركن الحفرة حيوان صغير آخر مذعور موثوق برعبه، فحمل الغطاء الخشبي الذي أعدَّه مسبقاً وألقاه فوق الحفرة وتمتم لنفسه: الصباح رباح.

ألقى نظرة من حوله، ورأى نثيث البارود المتبقي من دفقة الاشتعال الأولى. ورأى جميرات أعشاب يابسة أحرقها البارود في اندفاعته وهي تنزُّ نوراً خافتاً، اشتمّ روائح البارود المختلطة بالأعشاب المحترقة ونشر ذراعيه في فخر، ولكن برد منتصف الليل جعله يضم ذراعيه على صدره بسرعة، وفكر: أعود إلى الكوخ، وأعيد إشعال الحطب من جمرة في انتظار الصباح.

فجأة ضربت قدمه كتلة أعثرته، فاندفع إلى الأمام تمنعه قوة ساقيه عن السقوط منكفئاً، واحتضن في اندفاعة سقوطه القوية القبر المواجه فانسحج خده، وأحس بحرقة السحجة، فلم يكترث كثيراً وقام ينفض ثيابه وهو يلعن خافتاً، ولكن ما الذي أعثره فأوقعه؟ تساءل وهو يتجه إلى القنديل بعد أن انزلق من يده.

كان بعض الزيت قد اندلق من القنديل في سقوطه، فحمله، ورفع فتيله ليرى ما الذي أعثره. كان شيئاً متكوراً صغيراً. قرَّب القنديل منه وانطلق منه صراخ مكتوم في رعب. كان الشيء المكور الصغير رأساً صغيراً لطفل بشري. يا إلهي. ما الذي جاء به إلى هنا. مدَّ أصابعه الحذرة ليرفعه عن الأرض وهو يقرأ

المعوذة الأولى، وأحس ببرودة الرأس العاري الصغير، ولكنه تشدّد وأمسك بـه يرفعه عن الأرض. أعوذ بالله.. وصرخ وإن لم يعلن صراخه: ما الذي جاء بـه إلى هنا. نفضه من يده في رعب، فانزلق يتدحرج على الأرض مثل كرة الصبيان. انحنى عليه ثانية، وحمله في حنان.

قرَّب النور منه، رأس مكلثم صغير بريء، مغمض العينين أما الغريب فكان في أن العينين كانتا مفتوحتين فتحة غير مألوفة لرضيع، أخرج منديله الكبير، المنديل الذي اعتاد حمل الخبز والفاكهة التي يتشهاها إلى البيت فيه. وضع الرأس في المنديل ومضى إلى الكوخ...

وضعه أمامه، هيَّج النار، أضاء قنديلاً ثانياً وأخذ يتأمل الرأس، ولكن الثقب الجرح. ماهذا؟ بلَّ منديلاً مسح به الجرح، وكانت المفاجأة، فلم يكن إلا عيناً خرقت بمسمار محمّى. ارتعش الشاويش. أعاد تفحص الرأس. كانت الرقبة محزوزة، بسكين حادة، حزّاً واحداً فصل الرقبة عن المنكب: حزَّة معلم تمتم لنفسه. لم يكن فيها شرشرة أو تردد. ولكن... هبَّ السؤال:

من أمَّ هذا الطفل؟ ولم نسمع عن حامل على وشك الوضع في الحارة، من الأب الذي ضحى بولده وحزَّ رقبته.

أتراه ولد ميتاً، وتفحص الحزَّ، لا... كانت الدماء مستنزفة. لقد حزت رقبة الطفل حياً، ولكن لماذا؟

نسي جثة العريس التي كان يجب عليه حراستها، نسي حراسة القبر، نسي عواء الحيوان المحبوس في الحفرة، وأخذ يحدق في الوجه الطفلي البريء في مواجهته.

- 2 -

كان يتأملهم، المراهقين، والشبان، والآباء مع أطفالهم الصغار يدخلون إلى الخيمة حيث ربطها بسلسلة حديدية، وكمَّم فمها بالكمامة الحديدية، وطفل يقف أمام الخيمة ينادي: تاع. تاع. تعا تفرج على الضبع اللي أكل الططري، وضيَّع مكاتيب الوالي على طريق دوما.

كان يتأملهم ويتساءل: من كان ذلك القلب القاسي الذي جرؤ على حزِّ رقبة طفل، طفل؟ لعلها طفلة.... ولكن. هل من العدل والحلال حزَّ رقبة رضيع حتى لو كان بثلاثة عيون لم تر خير الدنيا من شرها بعد.

كان قد ألقى نظرة على الضبع والواوي في الحفرة، وعرف من النظرة الأولى أنَّ الضبع قد فتكت بابن آوى منذ الهدأة الأولى، ولربما أزعجها عويله الطويل في محبسه هناك، ولم يبال كثيراً بمقتل الواوي فمن سيدفع للفرجة على واوي في قفص؟ كان يعرف أنَّ جائزته الحقيقية هي الضبع. فالضبع يمكن حبسها وجعلها فرجة، وجعلها مفخرة، فالكل سينظرون إليه في هيبة يعرفون أنَّه استحقها، فلقد حمى قبر العريس من الضبع، ليس هذا فحسب، بل قبض عليها، وجعلها فرجة.

كان أولَّ ما فعلوه مع الصبح هو زيارة القبر للتأكد من أن الضباع لم تنبشه، ولم تجرَّ الجثة بعيداً تقرمشها وتحطم قلب أمه وعروسه، فكان أن رأوا الضبع في الحفرة.

حاولوا رجمها بالحجارة ينتقمون من محاولتها أكل عريسهم الذي لم يمض على دفنه يوم واحد، ولكن الشاويش منعهم، فهو يريدها. إنها باب رزق و... صمت، فلم يقلها حتى لنفسه وهي أيضاً آية فخره، واكتفى بالمسح على شاربيه في تواضع. مدّوا الحبال والأنشوطات كما أشار عليهم، وأخرجوها حية، وكانت الكمامة والسلسلة الحديدية جاهزتين، وهكذا شدّت موثوقة إلى الخيمة يتفرج عليها عباد الله الذين أذعرتهم لليالي بضحكتها الكئيبة وعوائها اللئيم.

كان قبر العريس سليماً، ولكن حفرة أخرى كانت قد نبشت. تفحّص الشاويش الحفرة لم تكن عميقة. لماذا؟ وتساءلوا عن صاحبها، وعن الميت فيها، ولكن أحداً لم يدّع الحفرة، ولم يدَّع الميت، فصرفوا النظر عن الأمر إلا الشاويش فقد عرف أن القبر المنبوش كان قبر الطفل ذي العين المفقوءة،... تنهد. كان يريد معرفة أهل الطفل محزوز الرقبة، وكان يتحرق: وكيف جرؤوا...

كان الولد يصرخ، والمتفرجون يتقاطرون ويلقون بقطعهم النقدية الصغيرة في الصينية أمامه، ولكن أحداً لم يدّع القبر، ولم يدّع الميت الصغير المفقود منه...

سئم طول الانتظار، فطلب من الصبي أن يضيف إلى هتافه:

- هذا هوه الضبع اللي أكل الميت الصغير بالتربة.. هذا هوه الضبع اللي أكل الططري وضيّع المكاتيب على طريق دوما.

وكان يراقب القادمين، والقادمين مع القادمات، والمحجبات حتى الإعتام يبحث عمّن ستطلق صرخة الأم الفاقد عرفت آكل رضيعها، يبحث عمن ستعلن لعناتها على الضبع التي أكلت جثة طفلها الصغير لم يشبع حليب أمه أبداً...

كانوا يكتفون بتأمله، وبعضهم كان قد جاء معه بعصا صغيرة ينخزها بها في تشفٍّ، وكانت تكتفي بالهرير، أو الابتعاد عن العصا الواخزة قليلاً، ولكن أثراً، إشارة، تلميحاً إلى الفاعل لم يتبدّ.

قال: سنرى الليلة. هل من ضبع أخرى بعد فخ الأمس.

كان قد غيَّر المنفذ المؤدي إلى الحفرة الجديدة، فقد كان يعرف أنَّ رائحة بول الضبع، ورائحة خوفها وذعرها ستمنع الحيوانات الأخرى من الاقتراب من الحفرة، فطمرها ونشر البارود الأسود في ثنايا المقبرة وحاراتها وبين قبورها، وكان قد تراهن مع نفسه أنَّه سيقبض في ليلته تلك على ضبع أخرى، فالبرد والصقيع الحارق والجوع، وإغراء رائحة الموتى لابد أن يجذب إليه الضباع الجياع، ولكن ليلته انقضت ولم يسمح ضحكاً. ولا عواء، ولا هريراً، فلم يشعل البارود ولم يقرع الطبل، و... خسر الرهان مع نفسه.

حين كان الصباح وقام بجولته التفقدية على المقبرة اكتشف أنَّها نجت في ليلته تلك من هجمات الضباع، وأحس بفخر صغير، فلقد منع الضباع عن مهاجمة مقبرة الضيعة وها هي المرة الأولى منذ سنين لا يتذكر عددها لا تنبش فيها القبور منذ قدوم المصري الذي خوَّف الجميع، وهيَّج الجميع، ثم رحل، ولم يتبق من آثاره إلا ضباع اعتادت أكل لحم الموتى ونبش القبور، فتكاسلت عن الصيد ومطاردة القطعان، ومهاجمة الحمير السائبة هجرها أصحابها فليس لديهم علف يكفيها وليس فيها من عافية تنفعهم لعامهم القابل.

كان يعدُّ قهوته في هدوء بعد أن صلى صلاة صبحه حين سمع صراخاً وغضباً، فترك ركوة القهوة في الجمر وانتعل بابوجه بسرعة، وطار إلى حيث الضجة خارج المقبرة، وهناك مع ضوء الشمس الصباحية المبكرة اكتشف القبر المنبوش وحوله عدد من الزائرين المرعوبين، ويد طفل مرمية قريباً نسيها الوحش حين حمل غنيمته وفرّ، فلم يكن بحاجة إلى المخاطرة بدخول المقبرة حيث رائحة البارود والطبل والشاويش.

حمل الشاويش اليد الصغيرة يكاد قلبه يتفطر، فلقد زار وزوجه المشايخ، والأولياء، والحكماء علّه يرزق وزوجه بطفل، ولكن الجواب كان: الرجل مرعوب. وهزُّوا رؤوسهم في فهم، فلا شك أنّه ارتعب كثيراً في حربه الطويلة في الروملي حيث أنزلوه في البداية وضد العثمانلي فيما بعد... والمرعوب ينقطع نسله.

وكان يهزُّ رأسه في استسلام منكسر عند سماعه هذا التعليق فقد كان يعرف أنهم على حق فلقد انقطع ولده منذ عاش ذلك الرعب الكبير، وسمع كلَّ تلك البومبات والكلل، وصافح الموت طويلاً، وأفلح في الهرب منه.

لم يتساءل: أي قلب جافٍ فعلها، ولم يتفحص الوجوه والأبدان المغطاة بالملاءات السود، فلقد أدرك أنه لن يكشف سر الفاعلين أبداً، وكان عليه أن يضمَّ امتداد المقبرة في البساتين إلى محرسه، فقاتلوا الأطفال أولئك لا يريدون لسرهم الانكشاف، فاكتفوا بدفن الطفل القتيل إلى جانب المقبرة. وقرّر أن ينشر البارود إلى خارج المقبرة وامتداد البساتين.

راقبهم يدفنون يد الطفل الصغيرة الوديعة بسرعة، وحدَّد مكان دفنها، وعاد إلى إفطاره وأركيلته بانتظار النهار الحقيقي حيث سيحمل إليه أجراء اللحامين بقايا ذبائحهم ليطعمها للضبع، ويجعل الصبي يدعو الناس للفرجة على الضبع الذي قتل الططري على طريق دوما، فحرم الأمهات من رسائل أولادها القادمة من البعيد، من بلاد المسكوف، والبلغار، والروملي.

مضوا، ومضى إلى حيث دفنت اليد الصغيرة، فنبش مدفنها وأخرجها يتأملها، غسلها جيداً ولاحظ الجرح، لم يكن عند المعصم فقط، بل كان الجرح عند الخنصر أيضاً، كان هناك حزٌّ واضح بسكين وكأن أصبعاً قطعت عن الكف، وشكّ في الأمر. فعدّ الأصابع الصغيرة جداً وكانت خمساً. لا إله إلا الله، فلم القطع

إذن، وما المقطوع؟ أعاد الغسل والتفحص ورأى العظم الصغير المقطوع بمقص حاد، أصبع أخرى أزيحت عن اليد. وتنهد في حزن... لماذا؟... لماذا....؟

ترك الضبع للطفل ينادي ويجمع قطع النقد الصغيرة لمتشهي الفرجة على الضبع الذي أحرق أكبادهم بزياراته الليلية، ومضى يضرب في حارات الضيعة يتأمل الأبواب الخشبية غشيمة الصنع ويتساءل: من تراه فعلها، ولماذا؟ ثم من يملك الجرأة على حزّ رأس طفل، بل... من يملك هذه السكين الحادة كسكين لحام لتقطع العنق بهذا الاحتراف دون تردد ودون شرشرة، لعله لحام! ولكن الضيعة ليس فيها إلا لحامان وهو يعرفهما جيداً، فأحدهما كان قد صحبه إلى بلاد الروملي فيمن مضوا ليدافعوا عن أرض الإسلام ضد الإنكليز الملاعين. كانوا عشرين من كفرسوسة وداريا والمزة فقط، ولكن من عاد منهم كانوا اثنين فقط، هو واللحام عيدو، أما عيدو الذي أدمن العرق منذ عودته تلك فلن يفعلها، فهو لا يصحو من سكره منذ رجوعه من كريت فكيف يفعلها... وهو لا يذبح الخروف الذي يبيعه منذ جرح يده ذلك الجرح الفظيع أثناء الذبح، فكان يرجو منافسه وصديقه ومعلمه في الكار الذي لا يكف عن قراءة القرآن والدعاء لعيدو بأن يتوب الله عليه من كاساته كان يرجوه أن يقوم بالذبح، فلم تعد يده التي ذبحت الكثيرين ممن لا يعرفهم، في الحرب التي لا يعرفها في البلاد التي لا يعرفها، لم تعد تتماسك للذبح... لا... ليس هو من حزَّ رأس الطفل، فيد الحازّ كانت واثقة صارمة، لا تتردد... هل هو أبو علي اللحام الكهل. ولكنه... لا... إنه مع لحيته البيضاء الطويلة وقمبازه النظيف المغطى بالوزرة حائلة اللون إلى لون خليط ما بين الأحمر المغسول والبني الوسخ، والذي لا يكفُّ لسانه عن التسبيح لن يفعلها.

راقبه وهو يشق ساق الخروف برأس سكينه المدبب ثم يأخذ في النفخ في الشقِّ لينتفخ جلد الخروف منفصلاً عن لحمه، كان يفعلها في حياد بارد، أتراه شارك في حرب من الحروب، فذبح حتى صار الأمر وكأنه لا علاقة له بالفزع والوجع. أتراه من ذبح الطفل، وقطع أصبعه، ولكن لماذا؟ ما المغري بقتل طفل عاجز حتى عن البكاء... لعله كان ميتاً، لا... فلو ولد ميتاً لعرفت حارات الضيعة كلها بذلك، ولما دفن سراً، وكأنه الفضيحة... الفضيحة؟ أتراه كان ابناً لفضيحة؟ وتوقف في موقعه حتى جعل عيدو يخرج من دكانه ويلح لدخوله وشرب القهوة معه وأطاعه.

كان عيدو يعدُّ القهوة، وكان الشاويش يجلس على كرسيه الخشبي القصير أمام الدكان يراقب المارة ويتساءل: من ذلك الوالغ في إثم قتل طفل، وحزِّ رأسه أو قطع يده أو أصبعه... من؟... كان يراقب خطواتهم الوئيدة يسبِّحون في هدوء، وحين يرونه يكتفون بالسلام عليكم، وكان يرد السلام: لا.. من المستحيل أن يفعلوها لا...

كانت النسوة يعبرن في ملاءاتهن مسرعات وكان يتساءل: من؟ من تلك التي سمح قلبها بحز رأس ابن بطنها... تنهد وهزَّ رأسه في تسليم: إنها الفضيحة ولاشك. ولكن... فضيحة لامرأتين؟ وطفلين؟... أن...

لم يعد يستطيع انتظار القهوة، فانتصب متعجلاً ليمضي، وسارع عيدو وراءه يعلنه أن القهوة أعدَّت ويرجوه الانتظار لصبِّها: إنّ لديه حديثاً يريد مشاركته فيه، ولكنه غارقاً في تساؤلاته الداخلية مضى وهو يشيح بيده معتذراً غير منصت إلى بربرات عيدو المحتجة.

عبر السوق، ولم يتأمل دكاكين الخضريين والإسكافي والسمّانين والمقهى، فقد كان غارقاً تماماً في تساؤله عن هذا البطر. كان وخديجة مستعدين لخسارة

يد أو ساق والحصول على طفل يملأ حياتهما ولو كان برأسين، وثلاثة أذرع ولكن لا... طفل، وأولئك الفساق البطرون يقطعون رأس طفل بكل برود!!

عبر قوساً حجرية تحمل سيباطاً واخترق بصره سبيلاً لسقاية الدواب العطشى ودخل سوقاً مغطاة بالسيباطات، وتجاوز خضرية الأرض الطارئين ينشرون خضارهم على أكياس من خيش متعجلة، وفجأة رآه... أو بالأحرى رأى دكانه، وتجمد في مكانه، فمن وراء الجام رأى قطرميزاته الكثيرة التي يتحرك فيها العلق، ورأى قلفات الأطفال تعوم في سائل حفظها

هاه تمتم لنفسه: عنيز، عنيز الجحش...

- 3 -

كان اسمه الذي دعاه فيه أبوه عنيز، أما الجحش، فكان اسماً اكتسبه من عضوه العملاق الذي كان يراهن عليه أصدقاءه من المراهقين في أنه يستطيع اقتلاع جذر كرنب بربطه إليه، وقد شاع عنه كسبه لهذه الرهانات حتى تحاماه المراهنون الواثقون من خسارتهم فلقد فعلها أكثر من مرة، أما هم فقد سمَّوه فيما بينهم بالجحش، فالجحش هو الحيوان الوحيد الذي وهبه الله بسطة في الخلق لم يهبها لمخلوق آخر، بسطة تجعله أعظم من الجمل والثور والفيل، بل حتى الحصان...

كان هذا انتقامهم الذي انتصروا عليه فيه حين نزعوا عنه صفة الإنسان. فالإنسان العادي لا يستطيع اقتلاع جذر كرنب بيده، فما بالك بعضوه، أما هذا... طبعاً كان اللقب الذي أضفوه عليه انتقامهم المضمر حسداً وعجزاً عن المجاراة غير محدودين.

لافتة كبيرة تعلو الدكان لافتة كتب عليها بخط عريض (حلاق ومطهر وحكيم أسنان) وعنيز دون الجحش، فقد كان اسمه الأصلي وقبل أن يلصقوا به اسم الجحش اسماً شديد الوداعة. كان اسمه عنيز الشحرور، وابتسم الشاويش لنفسه قليلاً، ولكن. من تملك، أو من يملك، القلب القاسي لقطع رأس وليد، أو بتر أصابعه ولماذا؟... الهرب من الفضيحة؟ ستر عار؟ ولكن. هناك طرق أخرى للتخلص من هذا العار أسهل من حزِّ الرأس، أو بترِ الأصابع ودفنه في مقابر

المسلمين، كان من الممكن إلقاؤه في النهر، فيحمله إلى مكان بعيد يضيع أصله، ويخفي عاره، وكان من الممكن دفنه في جانب بستان غير مطروق، فيتحلل قبل أن ينبش عنه، وكان من الممكن رميه في القناة الجوفية الطويلة تحيط بالمدينة وقراها فيجرفه الماء، أو تأكله بنات آوى المختفيات في القناة ويختفي الأمر. لا... ليس الأمر أمر عار، فمن دفنه دفنه وهو يشعر بانتمائه إليه ولا يريد له توهاناً يوم القيامة. إنه يريده في مقابر المسلمين ليبعث يوم القيامة ملاكاً يحوم من حوله ويحجب عنه حرَّ الشمس ووهج النار. لا... ليس ابن الفضيحة والعار، ولكن... من. من.

خرج عنيز من الدكان، وشدَّ الباب من خلفه شديد الانشغال بنفسه. تقدم منه يريد الحديث إليه، ولكنه كان متعجلاً، فلم يستطع اللحاق به، تابعه، فلابد أن يتوقف في مكان ما، ولكنه انحرف عن الطريق فجأة إلى خرابة قريبة، وخجل الشاويش؛ الرجل يريد قضاء حاجته وأنت تطارده.

عاد إلى دكان عنيز، دفع الباب، كانت ستارة الباب مصنوعة من خرز زجاجي ملون، وكانت تضيء الدكان بشكل معقول. تأمل العدة في خزائنها. الكماشة لقلع الأضراس النخرة، والمنكاشة الحديدية، والملقط. تأمل مقص القلفات وسكينه، تأمل عدة الحلاقة، المقصات والمواسي والمسنّ...

غريبة هذه الدنيا — تمتم لنفسه — من كان يصدق أن فتى مثل عنيز ينتهي إلى هذه المهنة متطلبة اللطف والرقة والزلاقة وحسن الاستقبال، عنيز الجحش حلاق ومطهر!!. و... دفع الباب... كان عنيز.

حدَّق فيه مندهشاً، فقد كان الشاويش آخر من ينتظر رؤيته، أو استقباله في دكانه، فالشاويش لم يشكُ يوماً من مرض، وهو طبعاً ليس في حاجة إلى علق يمتص دمه الفاسد، وليس في حاجة إلى حجامة، و... لعلها أسنانه. رحبَّ به

في ودٍّ، وأخذ في الثرثرة على عادة الحلاقين، وكان الشاويش ينتظر نهاية ثرثرته ليسأله إن كان قد عرف، أو سمع عمن يمكن أن يحزَّ رقبة طفل، أو يبتر أصبعاً لطفل وكأن عنيز كان يعرف ما يريد الشاويش منه، فأمعن في الثرثرة والثرثرة يمنعه عن الحديث.

الوجه الكهل تحت اللحية اختلط فيه الرمادي بالأبيض بالأسود فوشى بشيخوخة مبكرة وحسب الشاويش عمر عنيز في ذهنه، لا، الرجل ليس بالكبير في السن، ولكن وانتبه إليه يحدثه معتذراً عن صعوبة تبوله جالساً، فهناك احتباس مؤلم في التبول إن قرفص، وقد استشار الحجي فسمح له بالتبول واقفاً، وأراد الشاويش مقاطعته، ولكنه انهمك في الشرح والتفسير عن صعوبة التبول حتى واقفاً. إنه يقطر قطراً ولزمن طويل، وعليه أن يتبول كل ساعة، أو نصف ساعة. وتنهد: أي عذاب.

وضحك الشاويش في سره: إذن فلقد انقلب الجحش على صاحبه..

أخذ عنيز يسنُّ موس الحلاقة وينظر إليه متسائلاً إن كان يريد حلاقة شعره.

وأحس الشاويش أمام براءة وجه عنيز وثرثرته شبه الطفلية وهو من يعاني من احتباس البول أنَّ سؤالاً كهذا فيه ظلم للرجل أكثر مما يجب، فاستأذن ومضى، وظل السؤال يلح: من. من يجرؤ على حزِّ رأس طفل، ولو كان ذا ثلاث عيون، أو لماذا؟ و... من هي تلك الأم القاسية والأب الكافر والـ...

كان قد وصل إلى الساحة في تجواله الذي لم يعتده حين اكتشف أنه جائع، فمضى إلى البيت ليتغدى.

أخذت تضع الطعام أمامه وهي تمضي إلى المطبخ وتعود في صبر. كانت قد أدمنت الصمت وأهملت الثرثرة والحديث الكثير، فقد فقدت هذه العادة التي قربتها إلى قلبه.

كانت فيما مضى تحفظ كمية كبيرة من الحكايات، وكانت تتقن الغناء، وكثيراً ما قضيا ليلتهما يغنيان حتى الصباح مستمتعين بالغناء حتى لينسيا أنَّ عليهما واجب إنجاب طفل يسكتان به الأهل الذين ما ينفكون يتساءلون: وبعدين. ألم تخبئوا لنا شيئاً؟ أحداً؟ وأخيراً يفجرون السؤال بالتصريح: طفل. ببو. ولد.. شِه!!

وحين مضت سنوات ثلاث لم تحمل خديجة فيها بدأ الشك يتسرب إليها قبل أن يتسرب إليه. إنها هذه المتع الصغيرة، الحكايات والغناء و.. حديثه الطويل عن الحرب الطويلة، والبلاد التي كان فيها، والشعوب التي عاشرها، والغرائب التي لم يرها أحد من أهل ضيعته منذ مئات السنين وعاد...، كان يحدث وهو لا يعرف ما الذي يغريه بالحديث. أهو البرهنة على ما علمته الأيام، أم هو قطع الوقت، أم الخوف من الإخفاق ولقد أخفق لثلاث سنوات.

وأخيراً تخلت عن الخجل، وصارت هي من يتحرش؛ وأحسَّ أنَّ هناك من يدفعها لترك الحياء والإمعان في التحرش، صارت تلبس ليلاً ثياباً لم يشترها لها، وتتزين بأصباغ لم يعرف من أين جاءت بها، وتتعطر بعطور مفاجئة لأنفه الذي لم يعرف العطور منذ ركب السفينة مع عساكر المصري راجعاً من كريت إلى طرابلس.

ولم يسأل. ولِمَ يسأل وهو يعرف أنَّ أمها القارحة لاشك قد طاردت عطارات البلد، وداياتها، وخبيراتها، ولا شك أنَّ هذه التغيرات كانت نتيجة هذه المطاردات. ولكنه رغم التحرشات والاستجابات والإمعان في المحاولات لم يفلح في زرع طفل في الرحم المتشوق والمدفوع للتشوق إلى طفل يثبت نجاعتها وخصبها وقدرتها.

وأخيراً يئست وأيأست الجميع والأم التي همست: لا تهتمي. الآن... جاء دور المشايخ ثم المزارات وأخيراً هناك حكماء الأيام وحمل التمائم والحجب ومطاردة الجنيات في المقابر، والأرواح الطاهرة في مغارة الأربعين، وفي كهف الشهوة، وفي كهف الجوع، ومضت إليهم وإليها جميعاً ولكن رفسة من قدم جنين للبطن الضامر لم ترفس، وحلمة ثدي لم تسوَّد، وشهوة قاسية للإقياء لم تهيجها.

- 4 -

كان الصبي قد بحَّ وتكاسل عن النداء يدعو للفرجة على الضبع الذي أكل الططري على طريق دوما. فحرم الأمهات والزوجات من استلام رسائل الأزواج والأبناء المنسيين هناك في بيلان وكريت، و... في قونيه.

كان المصري قد مضى إلى مصر، وتخلى قبل رحيله عن الشاميين الذين جنَّدهم من حمص وحماة ودمشق ونابلس وغزة، واستبقى من لم يعودوا يحبون دكان السمان، ونول الحرير، والسعي وراء الحمار لبيع ما أنضج البستان. استبقى أولئك الذين التذوا للمرة الأولى منذ أجيال بفتح المدن، واصطفاء التركيات الجميلات. والطرق على باب الموت والنجاة في اللحظة الأخيرة.

كانت الأمهات يشككن، فمن يعرف إن كان الابن قد صحب المصري إلى مصر طائعاً، أو أنه قتل على سهول الثلج هناك في طوروس، فقد انقطعت الأخبار بعد مقتل الططري، وإذن فليس أمامنا إلا الانتظار فلابد أن يعود يوماً، أو تصل رسالة منه، ولكن الضبع الملعونة أكلت الططري على طريق دوما، ومزقت رسائله وعلينا أن ننتظر ربما لسنوات قبل وصول الرسالة التالية على يد ططري آخر.

عدّ الشاويش القروش في الصينية. هـه. لابأس، ولكن الولد بحَّ والضبع أقعت متعبة في ركن الخيمة، فحمل قطعاً من رئة عجل، وقطعة من ضرع بقرة، وعظاماً لخروف، وألقاها أمامها فلم تهشَّ لها. أهي شبعانة؟ سأل الصبي، وهز الصبي رأسه إيجاباً.

- والزبائن؟

- رأوها ووخزوها، وشمتوا فيها و... الضيعة صغيرة والمتفرجون الذين جاؤوا لرؤيتها رأوها وشبعوا من رؤيتها.

وتابع الصبي: هذه أول ضبع أراها في حياتي. أنت تعرف... رغم كثرة غزواتها وضحاياها لم نسمع عمَّن قبض عليها حية. هناك من قوَّصها، وهناك من قال إنه قتلها. ولكن...

كان الصبي يتملق الشاويش، عرف الشاويش ذلك، وفكر: الولد مبحوح، يكفيه نداء.

نظر إلى الأركيلة المطفأة. لا، لن أشعلها الآن، عليَّ أن أتفقد المقبرة لأتأكد من استعدادها لاستقبال الضبع إن قدمت.

خرج إلى غروب حارات المقبرة، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أبداً، لقد غُطِّي البارود المنثور بالتراب، دبس عليه، وبعثر.. و... ظن في البداية أنهم الزوار داسوا على البارود على غير انتباه، ولكن لا أموات جدداً اليوم، فمن...

مضى إلى الحفرة - الفخ، المغطاة بسطح من غصينات رقيقة. كانت قد طمرت حتى ثلثيها. هاه أتضح الأمر... الآن.. هناك من لا يريد له النجاح. هناك من غار من سمعته الجديدة التي جازها بعد خمود صيته منذ عودته من مغامرته مع المصري...

كانت سمعته في السنوات الماضية قد تدنت تماماً، فهو عاقر، بل هو عاجز. كانت هذه السمعة قد تسللت بين النساء والدايات: لا تغتررن بكل هذه القامة المنتصبة والشاربين الأسودين وضربة القدم العسكرية في الأرض... إنه... وكنَّ يتغامزن قد أكلت... ضبعة الحرب... أكلت، ويتغامزن ضاحكات... اسأليني أنا. ألا ترين خديجة وقد جفَّ ماء وجهها، وزالت نضارتها، وأنا

أعجب أنها لم تطلب الطلاق منه حتى الآن، ما المغري فيه ولا ولد، ولا مال، ولا مهنة مربحة، وقروش التعويض و.. يشرن بغمزاتهن مما يفهم الأخريات أنه كان يخفي بعض غنائم الحرب من حلي ونقود فلم يسلمها إلى رجال المصري، ولم يرجعها إلى الوالي العثماني الجديد.

وفي مرة أخرى علّقت واحدة، وكن يغسلن الثياب عند النهر: كان عليه أن يبحث عن عمل ما، أجير ما، طبعاً أجير، فالمعلم يحتاج إلى معرفة بمهنته وشدٍّ من شيخ الصنعة وهو لم يكن قد أتقن مهنة حين جرَّه المصري معه في مغامرته الفظيعة ضد السلطان، أو عليه أن يكون لديه مال كثير يستطيع به استئجار صانع ماهر فقير فيشغله في دكانه، ولكن...

وتعلق أخرى ضاحكة: هه، وبعدين؟ الضبعة بدها تموت، بدها تموت إما من القهر، أو من الجوع، أو من الوخز بالعصي وأطراف المدى... هه. صار رجالنا شجعان، إنهم يتجرأون على الضبع بعد تكميمها وتقييدها، وينفجرن مقهقهات.

ولكن أرملة صبية تتدخل: حرام عليكم. وتبدأ في الدفاع عن الشاويش الذي أنقذ سمعة الضيعة، فالضباع لم تعد تترك لميت فرصة في الراحة في قبره... ولو لم يتدخل ويقبض عليها.. وتمصمص الأولى قائلة: خليه يرينا شطارته ويمسك ضبعاً ثانية.

كان قد وصل إليه بعض ثرثراتهن وتغامزهن عبر السنين التي لم يهب فيها لخديجة طفلاً، وكان هذا ما زاد في كآبته واعتزاله الناس، وزاد من برودهما في لقاءاتهما التي اختصرت علاقتهما التي كانت تؤرق الضيعة في لياليهما التي لم تعرفها الضيعة من قبل. فالشاويش الذي تعلم الضرب على العود يضرب لها على العود وهي تغني أغنيات لم يسمعنها من قبل... هل

وضعت خديجة هذه الأغنيات، وأمها لم تعرفها، والضيعة لم تعرفها من قبل، أم أنه جاء بها من رحلاته الطويلة مع المصري...

وتقسم واحدة أنها سمعته بأذنها التي سيأكلها التراب. سمعته يغني، وتشهق النساء: الشاويش يغني. يضرب عود؟ صدقنا. بس يغني؟ وتقسم أنها سمعته يغني وقد حفظت أغنيته لكثرة ما رددتها بينها وبين نفسها وكادت – تقول وإن لم تعلنها أنَّ هذه الأغنية كادت توصلها إلى الطلاق حين كانت تنظر إلى زوجها المقطب تعباً بعد عودته من الحقل، وتتساءل: لم لا يغنيها كما غنى الشاويش خديجة:

إن بكيتي، الكون من أجلك بكي ... وإن ضحكت، ينهز عرش الملكة

إنْ كل شيء ربٍّ خلق حسن وجمال ... أعطى البشر قيراط، والباقي لكي

وتعضُّ على شفتها حتى لتكاد تدميها، فهي لم تسمع مثل هذا الغزل من زوجها حتى في أوائل زواجهما، لم تسمعه يخاطبها بهذه الرقة والحنان.

وترد خبيثة: طبعاً المقصر بالفعل بيعوض بالحكي، وتطلق ضحكتها الماجنة ولكنَّ التي أقسمت أنها سمعته بأذنها يغني ترد: لو كان مقصر معها لما ردَّت عليه بهذه الأغنية.

سمُّوك ما قصروا. سمُّوك عرق الحور ... طويل بين الشجر، مرفوع فوق الراس

وتمايل بقامتك يا حلو، وامتاز ... شجرة مغطية بيتي ياحلو. من شفتك تنباس

ويشهقن غير مصدقات، ولكن الغيظ والمرارة في عيني المتحدثة تصمتهن.

كان ينثر البارود بين القبور يعيد رسم خارطة نجحت في طرد الضباع إلى الفخ منذ ليال، وعلى هذه الخريطة أن تعيد الطرد إلى الفخ ثانية...

كانت حكايات نساء الضيعة تتسرب إليه نظرات من ساهري القهوة الذين كانوا يخافون خنجره الشركسي يحمله معه منذ رجعته من الحرب، وكانت الحكايات تتسرب مصمصات من شفاه النساء يطلقنها عائدات من الجدول المتجه إلى المقبرة يشقها إلى غربية وشرقية ويسقي شجر الحور والجوز وتوت السياج فيها.

كان يسمع، ويعرف، ويلاحظ، ويتصامم، ويتجاهل، وكان قد أهمل سهرة المقهى، وسماع الحكواتي، وحتى حين زار الكراكوزاتي الضيعة لم يشعر بتلك الشهوة وذلك الجنون الذي كان يشدُّه من أذنه إلى المقهى ليتفرج على الآخرين ولو مقزمين إلى دمى بطول الفتر، فقد كانوا حلوين وهم يتشاتمون، ويتخاونون، ويترافسون، والجمهور وهو في مقدمتهم يضحك، ويضحك حتى يغسل كل صدأ في روحه، ولكن... منذ أن شاع خبر عدم قدرته على زرع طفل في رحم خديجة أخذ يحس بالضياع، وحتى حكاياته الطويلة التي كانت ترجفهم، عن نزوله في ميسولوني وفي أضنه. بل حتى عن مغامراته في الحرب ضد السلطان في الأناضول وكيف فتحوا قونيه ونهبوا نزيب، وكانوا يسألونه السؤال الذي لم يتوقف في كل مرة حدثهم فيها عن فتحهم أضنه، أو قونيه: والنسوان؟ نسوان الترك؟ كيف...؟ حلوين...؟ كان سؤالهم مضمَّخاً بلعاب الشهوة التي كان يحسها ويغصُّ متجاهلاً.

أنهى نثر البارود وتنظيف الحفرة الجديدة وتغطيتها بالأغصان، وعاد إلى الكوخ ينتظر.

أخذ عواء البوقات ونقر الطبول يلحان عليه، ولكنه بهزة رأس طردها، تشبثت، فرمى مبسم الأركيلة، وحمل قنديله وخرج من الكوخ؛ كان يرفض

استعادة أيام المصري، وبلاد اليونان، وكريت، والأناضول، و... النساء التركيات... حلوين؟ حلوين؟.

- 5 -

سمع حركة قريبة، فانتصب، وهجره النوم مرة واحدة، كانت واحدة من العادات التي اكتسبها في مسيرته الطويلة مع المصري.. النوم الغزلاني، النوم بعين واحدة، والخروج من بحر النوم بقفزة واحدة.

كان نور ما بعد الفجر القريب يسبح في المكان، وصدم... هل انقضى الليل؟ ولم تقدم الضباع؟ كيف تخلت عن حصتها في لحوم الموتى تشتمُّ روائحهم عن بعد عشرات الأميال، فتتجه إليهم كمن يراهم، ثم تنبش عنهم ولو كانوا مغطَّين بالصخور. اقشعر بدنه.. ما أبشعها نهاية.

ولكن... تحسس خنجره، وحمل نبوته، وخرج من الكوخ...عوى كذئب: ولووو.. لك أنا أبو حسان...وينكم...؟ ولكن عواء أو ضحكاً، أو نباحاً لم يستجب.

نظر إلى سواقي البارود زرعها بالأمس. ماتزال في مكانها، فاطمأن. ليس من زائر هذه الليلة، ومن خرَّبوا استعداده بالأمس لم يصلوا بعد. اتجه بخط مستقيم إلى حيث الحفرة المموهة، فرأى الأغصان ماتزال في مواقعها.

كان البرد شديداً وبرك الماء الصغيرة المتناثرة هنا وهناك قد تحولت إلى ألواح من زجاج،... كيف تتدبر أمورها في هذا الصقيع... لابد أنها تهاجم القرى المتطرفة وزرائب القطعان البعيدة والحمير التائهة، فقد عرفت أنَّ المقبرة فخ.

تلفت من حوله خارج المقبرة، ورأى حفراً جديداً. إه. ماهذا؟ اتجه إليه بخطوات حذرة، وكان ما خافه. كانت الحفرة صغيرة، غير عميقة وقد نبشت. أكان المدفون رضيعاً جديداً؟.... أعوذ بالله... ما الذي أصاب هذه الضيعة؟ تفحّص المكان من حوله. كانت آثار جرّ الجثة على الأرض واضحة. لاحقها بضعة أذرع، ورأى نتف الكفن – الثياب الطفلية منثورة حول المكان الذي توازعت فيه الضباع جثة الطفل...

كانت الشمس قد بدأت تعلو وتحسّن إضاءة المكان، فاخذ يتفحص المكان جيداً، وكان ما أمله خائفاً، فلقد رأى ذراعاً صغيرة، ذراعاً وكفاً بحجم خوخة أعوذ بالله، حملها برؤوس أصابعه. لم تكن ذراع وكف رضيع، كانت أصغر من ذلك بكثير، ولكنّ الأصابع، الأظافر، الكفّ الصغيرة، حمرة الأظافر الرقيقة حتى الشفافية. أي طفل هذا مَنْ ذراعه بهذا الحجم و... تأمل نهاية الذراع... شيء غريب لم تكن الذراع مما يمكن أن يكون ما نعرفه من ذراع متصلة بالكتف.. كانت شيئاً غريباً منزوياً على نفسه. لحماً محزوزاً عن جسد فقط..

أصبح السؤال أكبر من الاحتمال. لابد من سؤال أحد ما، فاهم ما، عالم ما... ما الذي يغري هؤلاء الأهل بتمزيق أطفالهم، وحزّ رقابهم...ثم... دفنهم في مقابر المسلمين. ما الذي يغريهم بهذا الفعل، وكيف تنسجم الرغبة في الدفن في مقابر المسلمين مع القتل المحرم.

لفّ الذراع الدمية بمنديله الكبير، وأخفاها في عبّه، وعاد إلى الكوخ. لم يستطع صنع قهوة، ولا شربها، لم يستطع أكل الإفطار الذي حملته له زوجه في الصرة، لم يستطع حتى الاستلقاء...

انتصب، أغلق الكوخ... ومضى... كانت الضيعة ساكنة سكون شتاء الفلاحين.. وكانت هناك روائح حطب تحترق، وروائح بيض يقلى، وتشكيات

لأطفال يرفضون اليقظة... تساءل: هل أمضي إلى الجامع، فأسأل الشيخ ولعل لديه الجواب... ولكن... همهم في سخرية: الشيخ عبد الله!!

كان يعرفه منذ أن كان صانع مقشات يربطها ويشدُّها في غرفة في بيت قد فتح جداراً منه على الشارع، يربطها ويشدُّها، ويعلقها وينتظر النساء، أو الأطفال يشترونها، ويمضون، كان يعرفه منذ أن ضاق الحال بالبلد جميعاً بعد احتباس المطر الطويل، وهجمة الجراد، والفقر الذي منع الناس عن شراء المكانس، فلديهم احتياجات أهمُّ لإطعام الأطفال وإنقاذ الرضعاء فحمل مقشاته على ظهره ومضى ينادي عليها في الضيعة مغالباً عزة الصنعة، وحين لم يحظ بالمشترين، مضى إلى المدينة يعرضها.

عرفه منذ ذلك الحين، وعرفه في الجامع المؤذن البديل حين يمرض أو يغيب المؤذن، فيتطوع ويتسلق المئذنة سعيداً، ويبدأ أذانه الطويل الله، أكبر، الله أكبر، لم يكن صوته بالجميل، ولم تكن أذنه بالجيدة الحفظ فيردد الأذان بذلك التنغيم الجميل الذي عرفه الشاويش هناك في أضنه حيث كانوا يؤذنون فيطرب ويعرف وهو ضارب العود أنهم يؤذنون على الحجاز كار، وكانوا في حلب يؤذنون فيطرب ويعرف أنهم يؤذنون على النهاوند... أما الشيخ عبد الله. هه... كان يتمتم لنفسه على قد الضيعة، وكان حظه الطيب الذي حلم به العمر وربما كان يصحو في أنصاف الليل يدعو ويتوسل إلى الله أن يتيح له الفرصة ليصبح الإمام والخطيب فيرتاح من شدّ المكانس وتربيطها، وبلِّها وتعليقها على الجدران في انتظار المشترين. وجاءه الحظ حين سقط الإمام الأصيل عن سطح البيت حين كان يساعد الطيان في دحل السطح حتى لا يكِفَ في الشتاء، ويبدو أنه تراجع أكثر مما يجب، أو أنّ المدحلة كانت أثقل من ذراعيه الكهلتين، فدفعته وسقطت فوقه من أعلى البيت.

صلى الشيخ عبد الله على الإمام السابق صلاة الجنازة، وكان الشاويش يتساءل: أكان سعيداً وهو يصلي صلاة الجنازة كمن يقوم بتسلم العهدة والمنصب الجديد في الجيش، أم كان حزيناً حزن جيران الإمام السابق؟

كتم بسمته المتهكمة الدائمة المرارة والتي حلّت ضيفاً عليه منذ أن شهد عجائب الموت والحياة في رحلته مع المصري، فاختلط أمامه الموت بالحياة، وكان كثيراً ما يتساءل: أهما عالمان متمايزان حقاً، وهل يستطيع أحد في هذا العالم أن يقول: أين يبدأ الموت، وأين تنتهي الحياة؟

لا... الشيخ عبد الله لن يستطيع الجواب... تحسّس الصرة الصغيرة في عبه... هل يريها لخديجة، وما الفائدة من رؤيتها إلا أن تندفع في بكاء يعرف مبرره الحقيقي، بكاء كان في غنى عنه، وإذن، فلم احتفظ بها...، ولم يسأل، أو يخطر له أن يسأل، ولكن لم بتروا الذراع الصغيرة عن الرضيع قبل دفنه... أتراهم كانوا يرجون أن يبعث يوم القيامة سوياً دون ذراع قزمة؟

مضى إلى البيت، وقفزت خديجة من فراشها حالما سمعت صوت الباب يفتح فاستقبلته دون دهشة لعودته، قالت: أفطرت؟ وحين همهم بالرفض سارعت إلى المطبخ تنفخ في الجمر، وتضيف إليه قرم الزيتون، فهي تريد اشتعالاً طويلاً في المطبخ، فليس في البيت طعام للغداء.

استند الشاويش إلى وسادة قشية استنادة أقرب إلى الاستلقاء ينتظر الإفطار، ولكن الباب الخارجي قرع فجأة... فانفتحت عيناه في دهشة، ولم يفكر في القيام، فمن يأتي في هذا الصباح المبكر هه... لابد أنها جارة، أو قريبة لخديجة.

سمع خطواتها تمضي بنصف انتباه، وسمع صوت الباب الخارجي يفتح، ولم يزدد انتباهاً، ولكنه حين سمع خطواتها المتعجلة عائدة تنادي بنصف

همس: أبو حسان. أبو حسان. انتبه من رقدته، وانفتح الباب لتدخل مهتاجة: شيخ الجامع، ومعه آغا شامي يبدو عليه الـ... وأعجزتها الكلمة.

فانتصب، ولبس بابوجه بهدوء، ومضى يتساءل: اذكر الديب وهيء القضيب. هه. أنت من تحرش به حين تذكرته... ولكن وقبل أن يصل إلى الباب تساءل: ولكن من الآغا الشامي في صحبته؟

كان حسن آغا المرعشلي من القلائل الذين أتيح لهم السفر إلى مصر أيام الباشا عباس، فقد مضى ليدرس في الأزهر، وإن متقدماً في العمر قليلاً، إذ لم يتمكن من ذلك أيام محمد علي، وطبعاً لم يتمكن من الحصول على العالمية، ولم يتمكن من الحصول على أية إجازة علمية من الأزهرفقد انشغل بمصاحبة أولئك الذين رجعوا من فرنسا يتحدثون في انبهار عما رأوه هناك، وكان رفاعة الطهطاوي قد نشر كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز فجعل من الكتاب رفيق وسادته، وكم تمنى لو كان له حظ السفر إلى باريز ليرى ذلك الانفجار الذي جعل العوام يثورون على الآغوات والمقاطعجية والخوارنة.

كان قد تعرف على مسيحي سوري افتتح محلاً لبيع الأقمشة والملابس فأحبه وازداد حبه له حين عرف أنه يتقن الفرنسية، فتحطم رغبه من تعلم لغة لم يعرف أنَّ هناك من يعرفها، وطلب إليه أن يعلمها له. وأغرقه بالهدايا، فعلمه الفرنسية قراءة ولم يعلمها له نطقاً ولم يكن هناك من يحادثه بالفرنسية أصلاً، ولكنَّ معرفة افتح يا سمسم كانت أكثر من كافية له.

رأى الفرنجة الذين كانت العادة أن يلعنهم كلما ذكروا أمامه وهم يدربون السودان والنوبيين والصعايدة على الأسلحة الحديثة، ويتساءل: ماذا بعد؟ إلى أين يريدون الوصول بهم، وحين عاد الجند من السودان يجرُّون معهم الأفيال والزراف قال: لم أعد بحاجة إلى العالمية، وصار يتسقط ما يمكن الوصول إليه

من الكتب الفرنسية، وحين سقط بين يديه كتاب العقد الاجتماعي كاد يصاب بالحَوَل: أهناك من يجرؤ على التفكير بهذه الطريقة، وحين قرأ زاديغ قال: هذه الحياة لم تعد جديرة بالعيش إن لم نستطع صنع مثل هذا، فعاد إلى الشام يحمل بدلاً من العالمية كمية من الكتب جعلت أهل الحارة يظنون فيه الظنون حين كان أكثرها كما قال الحجي الذي زاره مرة بعد عودته وأصرَّ على رؤية مكتبته، كتباً بأحرف مثل دبيب النمل، ولابد أنها كتب في السحر، هذه المقولة التي حفظتها نفيسة خانم، وكرَّرتها على مسامع ابنتها الطفلة، وعلى مسامع صديقاتها من جماعة الحجة رضية حتى صار الجميع ينظرون إليه على أنَّ فيه الكثير من الغرابة.

كان الشاويش يعرف ماضي الآغا فقد حدثوه عنه كثيراً، وكان يعرف أيضاً عن إفلاسه، ولكن الآغا يظل آغا... قالها الشاويش وهو يراه يجلس مع شيخ الضيعة في غرفة الضيوف. وقال الآغا: أريدك أن تنقل الضبع إلى باب السريجة، وحين لاحظ الآغا صمت الدهشة على وجه الشاويش تابع: سأدفع لك نصفي فضة عن كل يوم عرض في باب السريجة. و.... كان العرض شديد الإغراء.

كان الشاويش يستمع إلى الآغا بهدوء، وكأنه يتفق معه فيما يقول، ولكنه كان يفكر: سبحان مغيِّر الأحوال، ثم يتساءل: ولكن ما للآغا وللضبع وعرضها على الجمهور. أهو في حاجة إلى القروش التي يمكن جمعها من المتفرجين.

تنفس بعمق ورمق الآغا يثرثر، وكان شيخ الجامع في استنادته إلى الوسادة القشية قد غفا. أعاد النظر إلى الآغا الذي كان يقول، وكأنه يفسر سبب استدعاء الضبع لعرضها في باب السريجة: لديَّ صديق كانت قد هاجمته ضبع فمزقت ساقه وهو يريد أن يراها عن قرب ليعرف كيف أمكن لها وهو العسكري الضخم

أن تؤذيه هذا الأذى... فأنا أفعل كما يقول الشوام حجٌ وتجارة... وقهقه داعياً الشاويش إلى مشاركته القهقهة من سخرية الآغا من نفسه أي من الشوام.

ظلَّ الشاويش ينصت ويدخن من غليونه الطويل جداً، تلك العادة التي اعتادها في تغرّبه مع المصري، وفكر: كيف تنقلب الأحوال، أليس الآغا من كان يقهقه حين يهتف واحد من المجالسين يريد لي أن أسمع، ما عنده حيا. لك العمى واحد انقلع من الجهادية، وأفندينا الوالي قال له مالك حتى مقابلات يعني تعويضات: أنت كنت مع المصري، مو مع مولانا السلطان، وعنده الوكاحة، لك عنده الوكاحة ينزل على السوق، ويمشي بين الناس كأنه ما صار شي. لك هدا لو عنده شوية دم بيروح بينطم وبيموت.

هذه الجملة الجارحة التي سمعها، وأريد له أن يسمعها كان يعرف أنَّ الكثيرين صاروا يقولونها بعد رجوع الأرناؤطي إلى مصر ثم موته وموت أبيه وانقطاع الحلم المصري بالشام وحلم الشام بالخروج. وكان المقصود حقاً من الكثير من مشاويره إلى قصر الوالي أو إلى القلعة ليس السؤال عن المقابلات التي وعد بها السلطان من يتخلون عن الباشا المصري ويعودون إلى بيوتهم وقراهم، بل كانت هذه المشاوير في معظمها ليري أهل الضيعة وأهل القنوات أنه لم ينطمّ ولم يمت.

كان يلبس أفخر لباس لديه، ويضع الكامة والطبنجة على خصره، ثم يمشي مشدود الصدر بارماً شاربيه معلناً أنه لم ينطمّ ولم يمت، وكان في البداية يهتاج ويغضب حين يرفضون دخوله إلى القلعة، أو ينصرفون عنه ساخرين: ما وصلت المصاري بعد. وكانوا يصرون على استخدام كلمة المصاري بديلاً عن البارة والقرش والزهراوي ليشعروه أنَّ عليه أن ينتظر نقوده وتعويضه من المصاري أو من عملة الباشا المصري، وكان كثيراً ما يضطر إلى الدوران في طريق طويلة جداً إلى البرامكة مروراً بالمكان الموحش والمريب المسمى بين النهرين، ثم إلى

كفرسوسة حتى لا يمر في القنوات ويرى الآغا وجماعته يشربون القهوة ويلعبون الطاولة، ويراقبون المارة وكانوا إذا ما لمحوه قادماً من تحت القناطر يتركون طاولتهم وقهوتهم وأركيلتهم، ثم يأخذون في مراقبته في سخرية، فيضطر إلى شدِّ ظهره، وضرب الأرض بقدميه في شدَّة عسكرية حتى إذا ما قاربهم التفت إليهم مواجهة وألقى السلام... فيضطرهم إلى ردِّ السلام الصريح، أو الغمغمة خجلين من وقاحة نظراتهم وتعليقاتهم، تلك التعليقات الجارحة من أصدقاء الآغا الشامتين بهزيمته في هزيمة الباشا المصري وتخليه عن هؤلاء الحمقى الذين صدَّقوا أنَّ الكفار من الفرنسيس الذين ينصرون الباشا المصري سينتصرون على السلطان ويزيلون دولة الإسلام. هه... ها هم يعودون كصبي الحمام يد من خلف ويد من قدام.

كان يمكن لهذه المبارزة الاستمرار لسنوات حتى يقبض الله روح الشاويش أو روح هؤلاء الشامتين لو لم يعين والٍ جديد، وكان أول ما فعله استدعاء أولئك الأومباشية والشاويشية والملازمين ممن كانوا مع الباشا المصري ولم يلتحقوا به.

كان الآغا يثرثر محاولاً إذابة الجليد بينه وبين الشاويش الذي يعرف سببه جيداً، فقد كانت المفاجأة، أنَّ الوالي الجديد لم ينتقم من الذين انضموا إلى الباشا المصري مخالفاً توقعاتهم أن يسركنهم إلى الأناضول، أو ينيشنهم على خيانتهم للسلطان، ولكنه على العكس ضمَّ الملازمين إلى جنده الخاصين، وأعطى الشاويشيه والأومباشية أجر سنة مع وعد بإكمال مقابلاتهم في المستقبل، فعاد الشاويشية والأومباشية إلى التجوال في المدينة مشدودي الصدر، وقال الآغا وقد أحسَّ بملل الشاويش وهو يقوم للمضي: إنهم يدعون إلى صلاة الاستسقاء. ما رأيك. هل سيغفر الله لنا ذنوبنا ويقبل صلاتنا ويغيثنا بالمطر.

وفجأة هتف شيخ الجامع: طبعاً. طبعاً. الله غفور رحيم.

- 6 -

كان اليوم التالي هو يوم الجمعة، وكان الوالي وقد طال احتباس المطر قد وجد أنه من الأفضل الاستجابة للحجي وجماعته، ويدعو إلى صلاة الاستسقاء، وكان الجميع ينتظرون هذه الدعوة، ولما كان عنيز رجل الحجي الأول فقد توجب عليه أن يقوم بالدوران على الدكاكين والبيوت ليذكّر الجميع بأن يوم الجمعة سيكون يوم صلاة الاستسقاء، وهكذا ما إن خرج الآغا وشيخ الجامع من بيت الآغا حتى وصل عنيز. قال: غداً صلاة الاستسقاء. لا تتأخر.

لم يكن بإمكان الشاويش التأخر أو الغياب، فحين يمتنع المطر عن الهطول يأخذ الناس في النبش في أعماقهم باحثين عن الخطيئة التي ارتكبوها حتى عاقب الله البلاد بالجفاف، وحين يبدأون النبش في أعماقهم يبدأون أيضاً النبش في جيرانهم وخطاياهم وذنوبهم، وتغيبهم عن صلاة الجمعة، أو تأخرهم عن صلاة الجماعة، وفي عدم دفع زكاة محاصيلهم، وكانوا إذا ما أشاروا إلى واحد على أنه الخاطئ الذي تسبب في حبس المطر، فكأنهم حكموا عليه بالحصار والحرمان والمقاطعة، وعليه أن يتوب ويكفّر الكثير حتى يغفر الله لهم ويرسل المطر، ولم يكن بإمكان الشاويش التأخر أو الغياب، فلم يكن يحتمل المطاردة والحصار مرة أخرى بتهمة التسبب في حبس المطر.

وكان يوم الجمعة، ورآهم يمضون إلى حوش بلاس حيث الأرض الكبيرة الواسعة القادرة على استقبال كل أولئك التائبين. كانوا قد جوّعوا وعطّشوا

أبقارهم وماعزهم وأغنامهم ليوم وليلة فأخذت تخور وتثغو وتنوح مشاركة البشر في نواحهم ولو كانوا يملكون لجاؤوا معهم بدجاجهم وحمائمهم، وكانوا يمضون وقد لبسوا فرواتهم مقلوبة جاعلين صوف الخرفان وشعر الماعز معكوسة إلى الخارج، فبدوا كحيوانات كبيرة منحنية الظهر، ولما رآهم برناردو ارتعشت أوصاله، فقد كانت المرة الأولى في حياته يرى مشهداً كهذا وسيقول للآغا فيما بعد: كأنه مشهد انتزع من أيام التوراة وقذف به إلى الآن.

وكان برناردو قد جاع، فقد تأخر الآغا في إحضار مؤونته من الطعام فحمل بارودته وقال: أصطاد ما آكله وإن وجدت دكاناً فيها ما أريد اشتريت. لكنه حين رآهم ينسلُّون من القرى يحملون أعلامهم ورايات مشايخهم وخوارنتهم وحاخاماتهم وربانيو السمرة منهم، يحملون مصاحفهم، وأناجيلهم، وتوراتهم، وتناخهم، تساءل ما الذي يجري اليوم.

التقت نظراته بنظرات الشاويش الخائف من أن يتهم بأنه سبب القحط، ولكنَّ أحداً منهما لم يعرف الآخر فقد كان برناردو يلبس ثياب فلاح عادي ويضع كوفية يلف بها رأسه كما علمه الآغا، أما الشيء الغريب فيه فكان أنَّه لم يلبس فروة ويقلبها على ظهره فبدا كفلاح فقير لا يملك حتى فروة أو عباءة.

انضم فجأة إلى ثغاء وخوار الحيوانات الجائعة صرخات الرجال: يا رب. يا رب. المطر.

وفجأة رآهن يتقدمن بعد الرجال كنَّ مجموعات كبيرة من النساء وقد نشرن شعورهن وكشف البعض منهن عن أثداء جافة متهدِّلة وكنَّ يحملن أطفالهن صارخات معولات يا رب. المطر. المطر.

كان مشهداً غريباً سيذكره برناردو طويلاً وسيحدِّث عنه الآغا حين يحدثه الآغا عن النساء اللاتي سماهن بالدونيات وكان برناردو وقد أطلق ضحكته التي

تبدو قهقهة، ولكنها كانت لمن عرف برناردو وحياتـه لـيس إلا الـضحكة الـتي سماها بالضحكة الكلبية.

إنها الضحكة التي لم يعد يفاجئها شيء، فقـد عرفـت الإنـسان في عظمتـه وفي انحطاطه قال: هه تسريع إنـضاج الفـرخ في البيـضة مـوش حينـتج إلا مـوت الفرخ.. وتنهد... التاريخ والزمن بس همه اللي اللي بيُنضجوا وبيْنضَجوا، وكـل ما عداه هو زي القضيب اللي حكيـت لـي عنـه قـضيب مـن خـرق لا بيحبِّـل ولا بيبسط. ده بس تهريج في تهريج.

ولما رأى برناردو صمت الآغا المستاء قـال وكأنـه يـصالحه: ممكـن أشـوف الاحتفال ده؟

وهتف الآغا مـصدوماً: مـاذا تقـول؟ أولاً هـذا احتفـال مـنحط، ثـم... هـو للنساء فقط! وقال برناردو مقاطعاً: أرجوك. ما تـديش حكـم قيمـة. سـيبني أنـا أحكم.

وقال الآغا وكأنه لم يقاطعه: ثانيـاً. الحجـي طـارد النـساء اللـواتي يقمـن بهذا الاحتفال، واتهمهن بالكفر وطاردتهن الحجة رضية وصـديقاتها، وأعتقـد أنه لم يعد لهنّ وجود.

وقال برناردو في أسف: لو تعرف قد إيه أنـا كنـت بـاتمنى أشـوفه. همـه كانوا بيسموه ايه؟

وقال الآغا محاولاً التهرب من الحرج: لا أعرف ماذا كانوا يسمونه. ولكن نساء الحجي كانوا يسمونهن بالدونيات. يعني النساء الواطية، المنحطة. الدون. وقال برناردو: أنت متأكد أنه دي تسمية الراجل اللي بتسميه الحجي؟

وقال الآغا: إذن فمن سيسميهن شاتماً بالدونيات غيره؟

وقال برناردو مفكراً: ما اعتقدش إنه دي تسميته...دونيات!! موش ممكن أصلها يكون الأدونيات يعني عابدات أدون، أو أدونيس زي ما اليونان بيسموه.

صعق الآغا، وأراد الاحتجاج والغضب من طريد القارتين، هذا الذي يريد تفسير كل شيء وكأن التاريخ ساكن كالمستنقع.

أما الشاويش فقد رمق النسوة الحاسرات اللاطمات الكاشفات فلم ير فيهن ما يذكّره بالنساء والشهوات، بل ذكر النساء الهاربات من الحريق في بيلان وكريت اللواتي كان يطردهن الحريق عن بيوتهن ويطاردهن الفلاحون الذين عرفوا العسكرية للمرة الأولى منذ قرون. وكان ينظر إليهم في الفروات المقلوبة والعباءات المنكوسة فيقارنهم دون رغبة بأولئك الذين كانوا في بيلان، النوبي والسوداني والصعيدي والشامي والغزي، فيراهم يهاجمون الهاربات من الحريق اللواتي حلّلتهن الحرب وجعلتهن من نصيب المنتصر.

كنَّ يولولن ويعولن كعويلهن، ويولولن كولاويلهن في طلب المطر، وعاد السؤال ثانية: ما الحقيقي إذن في هؤلاء الفلاحين. أهو ذلك الوحش الذي انطلق ولا يعرفونه فيهم حين فتحوا المدن، أم هذا المستعطف المذعور يلطم ويبكي ويطلب من امرأته الحسر والكشف واللطم، فلعل السماء ترحم، وتهطل المطر.

وكان الشاويش يرفع يديه إلى السماء ويؤمن على دعاء الحجي ولكن الفكرة استمرت تعتلج في قلبه: من الحقيقي في هؤلاء الناس. هؤلاء الذين حين أخرجتهم الحرب من شرانقهم تحولوا إلى دبابير قادرة على فعل كل ما كانوا يحلمون بصنعه في كوابيسهم الليلية حين خرجوا مع المصري فيرون العثماني المرعب يفر أمامهم، ويرون المدن الشامخة المتكبرة تسقط، والمحرمات من نساء وغلمان وأموال تفقد حرمتها أمامهم. و... رآهم مسلمين ومسيحيين ويهوداً

وسامرة يرفعون كتبهم ويصرخون في ضعف مبالغ فيه (وهذا ما أحس به الشاويش حين تساءل: أتراهم صادقين في هذا المواء) يا رب. يا رب.... المطر. الغيث.

وعاد السؤال إلى الإلحاح: من هؤلاء الذين مضوا إلى الحرب مع المصري إذن... وتنهد والحجي يصرخ: اسقنا يا رب الغيم، وساقي الدواب والدويبات في الصحراء.

وكان يفكر: كيف تغير هؤلاء الناس؟ كيف تحولوا إلى المنكسرين يلبسون فرواتهم مقلوبة، وكانوا المطاردين للنساء في المدن المفتوحة، يقتلون جنود السلطان، وكان مجرد مرور رجل يلبس الزي السلطاني كافياً لوضع ذيولهم بين أفخادهم والانسلال إلى أقرب حارة يختفون فيها عن أنظار رجل السلطان.

ما الحقيقي فيهم إذن....ما الحقيقي فيهم؟ دوّى صوت الحجي يصرخ جائراً يا رب اسق الحيوانات. اسق النساء. اسق العجَز والأطفال و...اسقنا ببركتهم، وكان الرجال في الفروات المقلوبة يضرعون بأيديهم صارخين آمين. وكان النساء كاشفات صدورهن حاسرات عن شعورهن المهوشة يصرخن آمين.

- 7 -

رغم أن الوقت كان عصراً إلا أن رائحتها جعلت شعره ينتصب فلقد عرف تلك الرائحة، يا إلهي. ألا تختلف رائحتها في بلبيس عن رائحتها في الشام؟ النتن نفسه، والرعب الذي تثيره الرائحة نفسها. التفت وسمعها تهرُّ ولم يندهش، بل كان ما يحسُّ هو الرعب الكامل، وعرف وهو الصياد المحترف أنه قد وقع في الخطأة التي كان يحذر منها هواة الصيادين. إياك أن ترتعب أمامها، فهي تشمُّ رائحة الرعب عن بعد أميال وهي تختار ضحيتها من المرعوبين الذين تعرف أنهم لا يملكون مقاومة بعد أن انبعثت رائحة الرعب منهم. عرف أنَّه ارتكب الخطيئة، ورآها تكشِّر عن أنيابها الصفر وتساءل بسرعة البرق: ما الذي أخرجها في النهار وهي صديقة الليل، ولا تخرج إلا في جماعات الجوع. كانت بندقيته محشوة بطلقتها الوحيدة، وكان يعرف أنَّه لو أطلق طلقته الوحيدة ولم يصبها لسبب ما فقد استثارها للهجمة التي لن يستطيع الوقوف أمامها. فالمسافة بينهما لا تزيد عن بضعة أمتار.

نظر إلى بطنها ورأى أثداءها الزهرية المتدلية، وعرف أنَّها مرضع، فعرف أنَّها كانت ترضع جراءها حين فاجأها صوت أقدامه. كان يحدق فيها وهي تحدق فيه تنتظر منه حركة الالتفاف للابتعاد لتهاجمه من خلف على عادتها، كانت تنتظر منه ارتخاء الركب، والجلوس المذعور على الأرض لتندفع

إلى جانبه تلطمه وتسقطه ثم ترشُّه ببولها. كان قد عرف طقوسها كلها منذ أن كان في مصر، وكانت رعب المتوحدين الذين يبتعدون عن الناس لقضاء حاجتهم.

وجّه بندقيته إليها يهددها،، ولكنه كان يعرف أنها غير مكترثة بما ترى بقدر ما كانت واثقة بشمِّها، فشمُّها يقول إنَّ من يقف أمامها مذعور لا يعرف كيف يبتعد عن ناظريها. طالت المواجهة، وطال التحديق كل بالآخر، وأخيراً قرَّر أن يقوم بالفعلة المستحيلة، قرفص، وهو يعرف أنها ما إن تراه وقد ضؤل حجمه بالقرفصة حتى تعلو شراستها وهي لاشك جائعة، فجراؤها استنزفت حليبها طيلة النهار، وبهدوء أخرج غليونه المحشو سلفاً غير ناس توجيه بندقيته إليها حذر الغدر. أشعل الغليون يريد أن يريها مسالمته وعدم اكتراثه، وانتشر الدخان. كان يدخن بسرعة لا يريد إلا أن يحيط نفسه والمكان بدخان غليونه فيغطي رائحة رعبه التي اندفعت من جلده ولاشك.

هو لا يشمُّها، ولكن تجربته القديمة في الصيد علمته أنها تقرأ وتفهم بالشمِّ فقط. غلّل نفسه بغيمة كثيفة من دخان، ورآها تطرف بعينيها وكأنها تستعد للنوم.

نفض تبغ الغليون المحترق على العشب اليابس، ورأى العشب يعسُّ وحين تأكد من ذلك، وكان رعبه قد برد فانتصب بهدوء ومشى. ألقى بالأرنبين اللذين كان قد صادهما، وكأنما سقطا بالصدفة منه، ومضى. وكان ما خطَّط له، فلم تلحق به، ولم تتحرش به، ولم تَبُلْ عليه لتنويمه... ومشى بهدوء، بهدوء حتى ابتعد عن التلة، والبستان المجاور لها، وأخيراً تنفس في ارتياح.

سرَّب كفه إلى ما تحت إبطه ودلكه، ثم أخرج كفه يشمها، كانت رائحة حموضة عالية مخلوطة بروائح كثيرة، ربما كان منها رائحة النبيذ الذي شربه

بالأمس. ولكن. أيها رائحة الرعب. وأيها رائحة الاستسلام أمام الوحش... كان أنفه قاصراً عن تمييزها، وتمنى لو يستطيع.

كان البيت مايزال بعيداً، وليس معه إلا بضعة عصافير لا تكفي لعشاء. وتساءل: أتراه أخطأ حين ألقى بالأرنبين، ولكنه ردّ بسرعة: لقد اشتريت نجاتك بها، وليكن عشاؤك اليوم هذه العصافير وقليل من جبن وزيتون مما زودك به الآغا.

كان البيت كأنه مصمم ليكون ملجأ لُطارَد مثله، فهو بيت صغير في بستان بعيد عن بيوت القرى المجاورة، وكان يكفيه في موسم الحرث والحصاد أن يختفي بين التلال يتصيد حتى يعود الفلاحون إلى بيوتهم، وقد دهش لندرتهم، بل كان الكثير من الحراث والحصادين من النساء والمراهقين وسيقول له الآغا فيما بعد. أكلتهم الحروب والهيضة التي سكنت البلاد.

تعشى واستلقى يسترجع تجربة الموت شديد القرب حتى جاء النوم - المهرب من عيني الوحش المحدقتين لا تفارقانه.

مع الصباح الباكر كان استيقاظه، وكان يحس بيديه تحكانه، فأخذ يتأمل الصندوق القريب الذي لم يقربه منذ اختفى في هذا البيت. أفطر فطوره المتقشف، وعيناه لا تفارقان الصندوق.

اغتسل في الجدول القريب، وعيناه لم تنسيا الصندوق، وأخيراً وكأنما يهرب من تردده عاد إلى البيت. وفتح الصندوق، ونشر قماشاً على خشبة الرسم، وأخذ يستحضرها، ولم يكن في حاجة كبيرة إلى ذلك، فقد سكنته منذ الأمس كما سكنه الموت منذ سنيِّ مغامرته المصرية.

بعد أيام ثلاثة وحين يزوره الآغا حاملاً الزوادة فيرى تلك الضبع المرعبة تحدق به عبر الغرفة مستندة إلى الجدار المواجه للباب فيذعر، ولكن برناردو

يهدئه، ويحملها إليه، فيتأمل الظهر الأبيض للوحة ويرى الإطار الخشبي الذي شدت إليه، ويسأل في سذاجة. ولكن. أليس حراماً في دينكم...أن تشاركوا الله في مهنة الخلق...

هذا السؤال الذي بدا ابن لحظته لم يكن إلا ترداداً لسؤال عمره أكثر من ثلاثة عشر قرناً، بدأه المهتدون الجدد إلى الإسلام الخائفون حتى الذعر من تهمة استعادة الوثنية التي وقفوا ضدها حتى الدم، وكان على الشام أن تحذف أصابعها التي صنعت التماثيل والرسوم والصور والريليفيات في تدمر وأفاميا وبصرى ودمشق وحلب تستذكر في تماثيلها الآباء الذين مضوا، والأحباب الذين غابوا.

وكان على برناردو أن يكرر حجج أولئك الأجداد البعداء الذين كانوا حين يرجعون مذعورين إلى كهوفهم ويبدأون في تسجيل آيات ذعرهم على جدران الكهوف، وكانوا أيضاً يسجلون تفاخرهم في قتل ذلك الجاموس المخيف الذي ارتدَّ عليهم مهاجماً، فقتلوه بالحجارة والعصي، ومكثوا يأكلون لحمه ثلاثة أيام... قال لحسن آغا: كان رعب مواجهتها لي أكبر من أي رعب عرفته وقد عرفت من الرعب أكثر مما قد يخطر لك على بال، ولم أستطع التخلص من أسر تلكما العينين إلا بأن أحيلهما إلى ما ترى. وتنهد: الآن فقط ملكتها... انظر. ووضع يده على الأنياب الصفر. لقد قهرتها... لقد صارت لي....

* * *

كانت الريشة تلوِّن حين رآها، كانت تلاحقه كل يوم حتى البيت الأبيض الكبير، بيت الخواجات كما كان الفلاحون يسمونه، وكانت ترجوه أن يسمح لها بقراءة حظه، وكان يسخر منها ويعطيها بعض القطع النقدية، فلم يكن يفكر أبداً في أن يجعل أمّية أقرب إلى السواد أن تقرأ له مستقبله.

هل كان ضعف العجز ما جعله يستسلم لها، فقد أخفق في تشغيل ماكينة الري إخفاقاً تاماً. حاول بكل معارفه، ولكنها أبداً لم تخفُق ولم تستجب، ولم ترفع الماء، وكان لابد من استحضار الميكانيكي الإنكليزي المدلل ليأتي من القاهرة ويصلحها ورأى نظرات السخرية في عيون الفلاحين. هل كانت نظرات السخرية حقاً؟ ربما... ولكن... كانت المرة الأولى يحسُّ بالعجز وبنظرات التسامح، فأنت مثلنا إذن؟ ويمكن أن تعجز عن تشغيل ماكينة الري. وأخيراً رأى أن يرجع إلى البيت ويجلس في الشرفة الشمالية ويشرب بعضاً من النبيذ، وينتظر عودة أصدقائه يستشيرهم قبل استدعاء الميكانيك الإنكليزي.

هه... ربما كان هو الضعف ما جعله يستسلم لها، فأعطاها بعض القروش على أمل أن تختصر اللعبة وتمضي، ولكنها كانت مخلصة لعملها فلم تختصر، ولم تمض بل رمت عدداً من الودع، وأخذت تتأمله في عمق. تتأمل وتتأمل وتئن حتى أحسَّ بالقلق ووجد نفسه يشاركها القلق. أهناك ما تعرفه ولا يعرفه.

وأخيراً رفعت رأسها في حزن، وقالت: الضبع.. لازم تاخد بالك من الضبع.

– ايه؟ سأل.

رددت بصوت أجوف: الضبع.... الضبع. أهه. بص. ده حيفضل يلحقك... وإذا ما خدتش بالك منه كويس ده حيغدر بيك. رفع رأسه عن اللوحة فجأة: أعوذ بالله. إيه اللي فكرني بالمجنونة ديه دلوقت يا خبر – قال لنفسه– يا خبر... يمكن معاها حق. ده ما كانش بين الضبع وبيني إلا نطّه واحده... إيه اللي جابها لهنا، والا إيه خدني لعندها يا إلهي... قال... وارتخت ركبتاه، فجلس جانباً مذعوراً الذعر المتأخر الذي لم يذعره في حينه وها هو يصاب به الآن...

تمنى كأس نبيذ، ولكنه تذكر أنـه لـيس مـن الـسهل أبـداً الحـصول علـى النبيذ في هذا المكان النائي.

لمح الشُبك، فرفعه عـن الطاولـة القريبـة وأعـاد مـلأه، ثـم أشـعله وجلـس يفكر... برناردو. برناردو. ما الذي قذف بك إلى هنا من آخـر الـدنيا وتنهـد... أهناك من حلم يستحق كل هذا العذاب والمطاردة؟

- 8 -

كانت رسالة قلقلت السكون الذي سكن إليه الآغا منذ الهزائم الكثيرة التي حاقت به بعد انسحاب الأرناؤطي حاملاً معه الحلم الجميل الذي زرعه في الشام، ثم جاء موته كارثة الكوارث إذ عرف حسن آغا عندئذ أنَّ على الحلم أن ينتظر ظهور رجل آخر مع الأفكار الجديدة والقدرة على تنفيذها، ولكن مضايقة نفيسة خانم له واتهامها الدائم له بأنه من رمى ولديها – كانت تستخدم تعبير ولديها وليس ولديهما– للموت لأنه جبان لم يجرؤ على الحرب بنفسه، وأي حرب... مع الفاسق المصري...

وكانت في بكائياتها تلحُّ دائماً على أنَّ ما يحرق قلبها هو أن الولدين قتلا قتلاً مجانياً، وليسا شهيدين ستكون الجنة من نصيبهما، فلقد حاربا مع الفاسق المصري ضد خليفة الله في الأرض سلطان الزمان.

كانت الرسالة من صديقه القديم في مصر نعمان، وكان حاملها برناردو المتنكر في ثياب حاج مصري. قرأها وأخذ الشحوب يزحف إلى وجهه.

كانت الرسالة تتحدث عن رجل نقيض له في كل شيء، رجل لم يقبل أن ينتظر مجيء المخلص يدلُّه على طريق الخلاص ويحمله إليه. بل كان رجلاً أراد صنع الخلاص بيده. قال نعمان: لن أستطيع الكتابة أكثر من هذا، فالمرء لا يدري إلى من ستصل هذه الرسالة وهل سيجدك هذا الفحام حياً، أو راغباً بالعون، أو أنَّ الرسالة ربما تضيع على الطريق فتصل إلى من لا نريد لهم أن

يقرأوها فيكون الخراب للجميع. سله يحدثك وإن رأيت أنه يستحق العون فقدم له ما تستطيع وإلا، فدلَّه على من يستطيع أن يقدم له العون.

رفع الآغا وجهه ونظر إلى برناردو، فرأى أنه كمن ينظر إلى وجهه في المرآة، فلم يكن برناردو خواجه، ولم يكن أشقر، ولم يكن طويلاً، وكان يتحدث المصرية. كيف... وسيحدثه برناردو فيما بعد وفي مشاوريهما الطويلة في الريف حيث البيت الذي أسكنه فيه عن السنوات التي قضاها في العزبة القريبة من الإسماعيلية يحاول صنع الحلم في الأرض الغريبة، وعن المقاومة التي أبداها الفلاحون في البدء، ثم عن كيفية اقتناعهم خطوة فخطوة، ولكن هذه القناعة لم تكن دون خسائر إذ سرعان ما تسرب خبر التجربة إلى الجيران من المقاطعجية والنظار، وكانت الكارثة.

قال الآغا: مرحباً بك

وأحس بثقل ينزاح عن صدره عند قولها، وكان لابد له من بيت يأوي إليه حتى يجد له قناعاً يخفيه فيه ليندرج في نسيج المدينة.

في ذلك البيت البعيد عن المدينة وعن القرية القريبة، بيت كان يلجأ إليه فلاحو الآغا حين كان هنالك فلاحون، وقبل أن تقضي الهيضة على الكثيرين ويهجِّر الجفاف أكثر من تبقى. قال وقد حمل معه قطرميزات الزيتون والجبن وجرتي زيت وسمن، وكيساً من دقيق، وكيساً من كعك: لن أستطيع زيارتك كل يوم حتى لا ألفت النظر إليك. تصرف على أنه بيتك، وتصرف على أنَّك محاط بالعيون إلى أن تفرج ونجد حلاً آخر.

لكنه في ذلك اليوم كان قد حمل معه بالإضافة لكل ما سبق كمية من الصفيحة أو اللحم المفروم المشوي فوق العجين فأكلا، ولما رأى برناردو الآغا

ينظر إليه صامتاً مستحثاً حدثه عن تجربته في إيطاليا التي قادته فيما بعد إلى مصر.

في تلك الليلة سيدخل حسن آغا إلى مكتبته التي هجرها منذ سنين وسيتناول دفتراً كان قد جلده وجعله ذاكرته الحية فهو يكتب فيه أهم الأحداث التي مرت به، وسيتناول الريشة القصبية المبرية والتي لم يستعملها منذ سنين، ثم سيخرج الدواة النحاسية المنقوشة فيجرب الريشة فيها وحين يكتشف غلظة السائل سيضيف إليه بعض الماء، ويجرب الريشة حتى يعجبه قوام الحبر ولونه ويبدأ بالكتابة.

كتب في أعلى الصفحة: *(باسم العقد الاجتماعي)*، وكان يعرف عند كتابته هذه الافتتاحية أن ما يقوم به فيه شيء من النزق لا يليق بسنه، ولكنه استمتع كثيراً بكتابتها، كانت الافتتاحية في حد ذاتها كافية لخراب بيته لو وقعت في يد غريب، ولكن شجاعة مفاجئة أحسَّ بها تحرك جسده وعقله العجوزين، وهو من يئس من كل أمل بعد وفاة إبراهيم باشا وأبيه، ثم رؤيته الولاة من الأبناء والأحفاد بلا أحلام، وهجمة الولاة المنتقمين من استانبول على الشام والذين لم يكن لهم من هم إلا استعادة الشام شريف كما كانت قبل قدوم رسل الثورة الفرنسية الملثمين بثياب الفاتحين وهادمي السلطنة.

كانت سيرة برناردو وكما قدمها فاتنة، فقد كان برناردو الابن الذي لم يرزق به، والذي أتيحت له فرص للتعلم لم تتح له، فقد حدثه عن دروس الرسم التي تلقاها في منزلهم في نابولي وكان الجميع يعتقدون أنَّه سيكون الرسام، فقد كانت موهبته واضحة حتى لأساتذته، ولكنه فجأة يقرر استكمال تعليمه في جامعة ميلانو، وكان تخصصه في المرحلتين الهلينية واللاتينية، ولكنه حين وضع أطروحته للدكتوراه اختار الأدب في المرحلتين الهيلينية

والهيليستية، ونفر من المرحلة اللاتينية التي غلب عليها البطش الروماني والعسكرية بأشد حالاتها خشونة.

قال وكتب الآغا: كنت مفتوناً برقة النحت والأدب اللذين نتجا عن اختلاط الحضارات المشرقية والإغريقية. كنت مفتوناً بأريستوفان ولوكوليوس وسوفوكليس.

وفي يوم آخر وأثناء التمشي بين الأشجار الجرداء بعد فصل الشتاء الطويل بلا مطر حدثه عن افتتانه الكبير بواحد من عندكم، من سوريا كان اسمه لوسيان: ماقريتلوش؟ واضطر الآغا إلى الاعتراف بأنه لم يسمع به: وكمان الشاعر الكبير ميلياغروس اللي من غادارا اللي بيقول:

أقسم بخصلات شعر حبيبتي الجميلة،
وبعطر الصديقة الذي يطرد النعاس،
وبالمداعبات الشهوانية التي تبتكرها تلك الفتاة اللعوب،
وبالمصباح المشتعل الشاهد على أغاني السهر
بأنك لم تترك لي يا رب الحب إلا نفساً ضعيفاً
يتردد بالكاد على شفتي،
ولكني أقسم لك أيضاً بأنك لو طلبت
مني هذا لأرسلت بالتأكيد زفرتي الأخيرة
التي بقيت لي من أجلك أنت فقط.

أحس الآغا بالخزي، فهذا الغريب يعرف عن تاريخه وبلده أكثر مما يعرف، ولكنه لم يعترف الهزيمة، فقال: ولكني أعرف عن الجاحظ والأصفهاني والمعري، ولم يعلق برناردو المتعلق بالكلاسيكيات قال: كان ممكن للأستاذ الجامعي اللي هوه أنا يكمل حياته محاضرات ومؤلفات وإعجاب

بيستحقه لولا رجلي اللي اتكسرت فقعدت في البيت ولما ملّيت رجعت للرسم تاني.

وكتب الآغا في ليلته تلك: غريب كيف تتشكل مصائر الإنسان، فلو لم يستشهد ولداي في حملة الباشا على قونيه، فهل كنت لأتخلى عن كل شيء وأسافر إلى مصر بحثاً عن العلم هناك، تنهَّد وشرد قليلاً، ثم أضاف: وربما كان كسرساق هذا الفحام الجميل هو ما غيَّر مصيره ومستقبله تماماً.

وتابع برناردو: وزارنا غاريبالدي اللي كان صديق قديم للعائلة، ولما شاف الرسوم بتاعتي أصر أنه يعرضها في غاليري قدام الناس. حاولت أحتج، أرفض، ما ردش علي، والغريب أنه المعرض عجب الناس، عجبهم قوي ونص الرسمات اتباعت.

وسأله الآغا: وماذا كان في تلك الرسوم.

ورد الآغا: موش فاكر بالضبط، بس فيه لوحتين فاكرهم قوي. واحدة عن الثورة ضد البابا، وواحدة عن استقبال الناس لنابليون لما دخل سافوي. وقال الآغا: وبعدين.

وردَّ برناردو: ولا حاجة. كانت رجلي بدت تخف، وغاريبالدي قال لي أنت موش رسام. أنت مثقف. اكتب لي شوية مقالات. إيطاليا حرام تبقى كده. إشي محتليته النمسا، وإشي محتليته فرنسا، وإيشي الدوقات والكونتات، إحنا لازم نعمل الجمهورية يا برناردو. لازم. وده عاوز مننا نتعاون كلنا.

وقال الآغا: وكتبت؟

– كتبت.

– وقُرئت؟

– طبعاً. لاكن الراجل الأخطر بين كل اللي قروا لي كان فيتوريو.

- ومن هو فيتوريو؟

- ملك بيمونت وصقلية، وده راجل كان صاحب أطماع كبيرة، بس كان ذكي. ذكي؟ موش عارف إذا كان ده ذكاء. يمكن خبيث لأنه قدر يخدعني ويخدع غاريبالدي صاحبي وأخويا الكبير وكمان حتى ماتزيني العظيم قدر يخدعه، وخلانا كلنا نشتغل لحسابه. إحنا نشتغل علشان العدالة، وعشان... حرية، إخاء، مساواة...، وهوه كان بيشتغل عشان يعمل مملكة كبيرة في إيطاليا كلها تحت حكم أسرته.

وسيكتب الآغا في دفتره تلك الليلة: ترى هل كان محمد علي يفكر بطريقة فيتوريو هذا؟ أعني أنَّا نحن كنا نسعى وراء المجتمع العادل، وهو كان يسعى وراء صنع مملكة خاصة به!!

وفي مرة أخرى وبعد غداء خفيف قال برناردو وهو يرى الآغا يخرج غليونين طويلين وكيس تبغ: إيه ده.

ولما حدثه الآغا أنَّ هذا ما يسمى بالشُبُك وهو غليون شرقي، فتناول برناردو واحداً من الغليونين ولما سحب النفس الأول في عمق ورأى الآغا المتعة على وجهه، وكاد يقول شيئاً لولا أنَّ برناردو أشار بيده يرجوه الصمت، فصمت... وطال الصمت حتى كاد الآغا يضيق بالصمت إلى أن وضع برناردو الشُبُك من يده، فقال الآغا:

- هه ما رأيك؟

- ده تبغ لذيذ... ثم صرف النظر عن الموضوع وقال في حلمية: وفجأة جه باكونين.

- ومن باكونين هذا؟ قال الآغا في دهشة.

– راجل نادر تلاقي زيه كل يوم. راجل كان ممكن يعيش كونت، بس لأه ما رضيش يستسلم للسهولة وقرر أنه ينشر الثورة في العالم ضد الطغاة والخوارنة. راجل بصّ لي بعد ما طردنا النمسا من الشمال والبندقية، وسلمناها لفيتوريو، قال لي انتو بتعملوا إيه. قلت له دولة الوحدة. قام قال لي كلمة خوِّفني لما قالها، قال: انت لما عاوز تأسس دولة ولو مؤقتة. أنت عارف أنك بتحط الأساس للاستبداد موش للحرية؟

– نعم...؟ صرخ الآغا مستنكراً.

– زي ما بقول لك – تنهد في انكسار – والأيام أثبتت أنه كلامه كان صح.

وقبل أن يدلي الآغا بأي تعليق أكمل:

– وأول مقال كتبته باطالب فيه بتوزيع الملكيات الكبيرة على الفلاحين وبتشكيل النقابات قلب لي فيتوريو وشه، ولقيت الشرطة السرية على بابي وبدت التحقيقات والمضايقات.

– وباكونين؟

– عرف ايه اللي حيحصل قام سافر على سويسره.

– وأنت؟

– بعد المقال الثالث بس واللي تكلمت فيه عن خيبة أملنا بفيتوريو، وعن ضياع شعارنا القديم: حرية، إخاء. مساواة وكنت راكب الحنتور رايح البيت جت رصاصه صابت العربجي اللي بيسوق الحنتور وفهمت الرسالة. أنا اللي كنت مقصود بالقتل. سألت غاريبالدي قال لي الأفضل أنك تترك البلد، وتهرب.

– وهربت؟

– هربت على فرنسا. فاكر أنه فيتوريو موش حيكون له يد عليَّ هناك ونفث ضحكة خفيفة: قمت اكتشفت. صحيح اكتشاف متأخر شويه بس

اكتشفته. الطغاة في العالم كلهم بيعرفوا بعض، وبيتعاونوا... على المشاغبين اللي زيي.

– وكيف عرفت إذن نعمان الصيدناوي.

– عرفته لما جيت مصر.

كان الآغا يعرف أن برناردو كان في مصر ولزمن طويل، فهذه العربية المصرية التي يتحدث بها، وهذه الرسالة التوصية المرسلة من نعمان لن ترسل إلا لو وثق نعمان ببرناردو وعرفه جيداً.

ولما كان المساء قد بدأ يغطي المكان فقد رأى الآغا أنَّ من الأفضل انصرافه، فركب عربته الصغيرة ومضى تاركاً برناردو لوحدته في البيت النائي المتقشف الذي صار المحطة الأخيرة للرجل الذي أزعج النمسا وإيطاليا وفرنسا حتى ضاقت به أوروبا فقذفت به إلى مصر.

- 9 -

كان الولد قد بُحّ وفقد حماسته، ولكنه حين رأى أمام الخيمة ضبعاً مكشرة ذعر حتى ليذكر أنه قفز إلى الوراء. فقد كانت المرة الأولى يرى فيها ضبعاً مرقطة مقعية إقعاءة ما قبل قفزة الموت، ذعر حتى لقد أطلق صرخة كتمها بسرعة، فالصراخ لا يليق بالرجل، ولكنها حين لم تتحرك، ولم تقفز، ولم تهاجم جلس، بل أقعى ينتظر حركتها التالية، ولكنها لم تتحرك. فكر: ضبع، ولكنها لا تشبه الضبع المسكينة الغارقة في سوائل إسهالها ورعبها والذباب المحيط بها، كانت ضبعاً تشبه الضباع التي طالما حدَّثته عنها جدَّته في ليالي الشتاء، ضبعاً من تلك الضباع التي تتحرش بالساهرين المتأخرين في بساتينهم يوزعون حصتهم من الماء على بساتينهم العطشى، أو بالمسافرين المتجرئين المتقاوين بطبنجاتهم وشواربهم الكبيرة، فهي تكمن حتى يعبروا ثم تندفع فتضربهم مجانبة، وتختفي في الظلمة تاركتهم يتوهون في مفاجأتهم وذعرهم وصراخهم وتحديهم للريح، وما إن يهدأوا حتى تفاجئهم بضربة مسقطة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى حتى إذا ما اشتمَّت رائحة رعب الاستسلام فيهم هجمت عليهم فأغرقتهم ببولها ليصبحوا عبيداً لها متوهمين أنها أمهم فيتبعونها منادين أمهم حتى كهفها أو مغارتها حيث ستكون نهايتهم.

هبَّت نسمة خفيفة، فهزَّت الضبع لاوية من جسدها، وعندئذ تسلل إليه شك ما. لعلها ليست ضبعاً حقيقية وإلا فكيف تقف في الفراغ، غير جاثمة أو

مقعية على الأرض كما يفترض بكل الوحوش أن تكون. لِمَ لم تضحك، لِم لم تعو، لِمَ لم تجأر...؟

فيما بعد وحين سيخرجه الشاويش من انضباعه وذهوله، حين يربت على ظهره، فيصرخ منقلباً على ظهره من إقعاءته المتقلقلة ومن خلال غبشة العيون وضياعها سيرى الشاويش ويرى إلى جانبه الرجل القصير الذي سيعرف فيما بعد أن اسمه كان حسن آغا، وحين يتذكر مغالباً سخريته من نفسه أنَّ ضبعته المرعبة لم تكن إلا رسمة. كان يعتذر عن نفسه: ولكنها المرة الأولى أرى فيها ضبعاً محبوسة في رسمة... فيما بعد وحين يجلس مخجولاً أمام الرجلين يتحدثان متجاهلين ذعره ربما حتى لا يمعنا في خجله سيتساءل: ترى كم مكث مضبوعاً لا يجرؤ على الحركة أمامها؟ ثواني، دقائق. ساعات...؟

فجأة قرر أن يظهر جرأته ويقضي على حيرته... فاقترب منها... كانت المرة الأولى يواجه ضبعاً غير مسلسلة أو مكممة. قرَّب أصبعه يتلمسها في حذر. كانت الصورة باردة. لا. ليس فيها حرارة الضبع التي عرفها حين كان يلمس ضبعه المكمَّمة. لا، وليس فيها خشونة شعرها المتوتر دائماً، ولكن... ابتعد قليلاً. صحيح أن ليس فيها الحرارة، وليس فيها الخشونة ولكن... أعوذ بالله إنها أكثر ضبعية من الضبع الضعيفة المنكسرة، المواءة في الداخل...

فجأة قرر أن يتأكد من ملاحظته، فاخترق الخيمة إلى حيث الضبع المسلسلة في الداخل كانت غارقة في برازها السائل. نظرت إليه في حزن ورجاء... وعرف أنها جائعة، فرمى إليها بعظمة، وقطعة رئة مما تبقى من لحم الأمس، فانقضّت عليها، وما لبثت أن عافتها، فضحك: صارت تتدلل الآن.

سمع خطوات الشاويش والرجل القصير يبتعدان وحين تحرك لاستطلاع اتجاههما رأى أوائل المستطلعين يقدمون، فحمل طبلته الصغيرة، وتنهد: يجب

أن نبدأ يومنا رغم البحَّة، ولكنه ما إن غادر الخيمة حتى رآهم متحلقين حول الصورة... إذن فلم تذعرهم كما أذعرته. لماذا؟ تساءل، ورفع عصاه ليضرب الطبلة ولكن الصورة كانت قد جذبت المزيد من المستطلعين، فلم يجد ضرورة للقرع على الطبلة ولماذا؟ لقد قدموا دون طبلة.

تكاثر المشاهدون ودار بينهم حاملاً صحناً فخارياً يجمع فيه المتاليك والنقود النحاسية الصغيرة، وبذلوها في كرم، ثم تجرأ أحدهم ورفع جانباً من الخيمة. فانتشر الضوء فيها وظهرت الضبع الضعيفة المستلقية في سوائلها في الركن البعيد من الغرفة الخيمة.

أشفق البعض فجاءوا يحملون الخبز، بل بعض الطبيخ، وأعطوا ما أتوا به للصبي فوضعها أمامها وتركها تنقض على الطعام الجديد. وعرف أنَّها قد سئمت العظام الفاسدة الرائحة والرئة التي ازرقّت لِقِدَمِها.

كانوا يدخلون ويسرعون إلى الخروج، وكانوا يقفون بعيداً يقارنون بين الصورة وبين الأصل... لا. كانت الصورة أشد إدهاشاً كما صرخ أحدهم من هذا الكلب، لا. الواوي... بل القط الذي صارت إليه الضبع البائسة وكأن الضبع عرفت أنهم سئموها. فالتفّت حول نفسها دافنة وجهها بين ذيلها وبطنها.

* * *

- 10 -

كانت قد سئمت النقوش التي تنسجها على البسط، وكان هذا كلّ ما تعلمته من أمها، مربعات، ومثلثات ودوائر ومثمنات ومسدسات كانت تغيِّر وتبدِّل، وتضيف هذا النقش مرة، وتحذف ذاك النقش مرة ولكنها كانت تتنهد وهي ترى ما أنجزت في سأم، وماذا بعد... وماذا بعد... كانت ترى إعجاب الجارات، وإعجاب أمها بما تنتج والذي وصل إلى ما يقرب من الكمال، فقد كانت المزاوجة والمبادلة والموازنة ما بين الدائرة والمثلث والمثمن باباً يعتقدون أنه لا يغلق، ففيه إمكانية لخلق لا ينتهي، ولكنها وقد كانت ترى ما ستصنع بعين خيالها قبل عين رؤيتها كانت تعرف أنها لا تفعل إلا التكرار والتكرار...

كانت حين تمسك بالريشة المغموسة بالحبر، وتضع خيالاتها على الورق تعرف أنها تصنع شيئاً من الصعب نسجه على البساط، فقد كانت ألوان ريش الحسون مغرية حتى الجنون، ولكن، من يجرؤ على نسجها على بساط، ومن يسمح لنفسه برؤية مثل هذا الكفر... كانت تخطُّ وتلوِّن على الورق، ثم تحرق ما لونت، ولا تمزقه، فقد كانت تعرف أن المزق ربما وقعت بيد أمها وستعرف أنها تسير على طريق أبيها، أي على طريق الكفر. طبعاً لم يكن الحسون حسوناً يشبه الحسون الذي يطير على الأغصان، ولا يشبه الحسون في القفص، بل كان حسونها هي، حسوناً يختلف حجم رأسه عن جسده بحيث يشبه الديك أو الطاووس، ولكنه أبداً لا يشبه الحسون، ولكنها كانت تسميه الحسون، وتحب

فيه الحسون، وتتمنى لو تستطيع تثبيته على بساط فيعرف الناس أنه الحسون. ولكنها كانت وبعد إنجازه المتعب تنظر من حولها في ذعر تخاف أن ترى أمها ما فعلت يداها وهي الأشد تمسكاً بكل تعليمة تحفظها عن الحاجة رضية التي تقيم دروس الدين للنسوان في بيتها الكبير حيث يشربن العرق سوس، وينشدن البردة، وتقوم أم عصام بالإنشاد...

لم تصحب أمها يوماً إلى دروس الحجة رغم إلحاحها، ونقل إلحاح الحاجة إليها، وكانت تشعر بنفور غريب من مجرد ذكر اسمها أمامها، كان هنالك في شرايينها كمية من الدماء الهائجة أكثر مما يحق لامرأة واحدة أن يكون لها من دماء... كانت الوحيدة، وكان أبوها يخاف إن تزوجت أن يخلو البيت لزوجه التي تغيَّرت منذ أن دلوها على بيت الحاجة رضية.

وكان يقول لها حين يخلو بها إنه يعرف أنَّ أمَّها تحمِّله إثم مقتل ولديها اللذين حملهما إبراهيم باشا معه إلى الأناضول وكان يضيف: كانت تقول: كان بإمكانهما أن يهربا من الجيش كما فعل الكثيرون، ولكنك أفسدتهما بأفكارك الكافرة، فرفضا الهرب وصمما على حرب السلطان... أنا مستعدة للموت لأعرف. ما الذي تعلمته هناك في مصر التي نقل الفرنجة والأرناؤط إليها الكفر.

وكان يصمت، وكانت أروى ترى أنَّ هذا شيء غير مألوف في المدينة، أن يعلو صوت امرأة على صوت الزوج، وربما كان هذا ما عظَّم من خوفها منها، أكثر من خوفها منه، وكان يفكر: ولكن من كان يعرف أنهما سيموتان، كنت أحلم بأنهما... آه... وحين تصرخ الأم بعد نوبة من نوبات هياجها: ما يحرق قلبي هو موتهما عاصيين. ليتهما ماتا شهيدين، ليتهما قُتلا وهما يدافعان عن الإسلام وخليفة الإسلام، ولكنهما، وتخنقها الفكرة ماتا عاصيين يقاتلان مع العاصي المصري ضد سلطان المسلمين، وكان يصمت. وحين كانت تراجع نفسها

بعد خمود نوبة هياج أمها، فتذكر ثورتها وصمته كانت تتساءل: أتراه يتفق معها في حسِّه بالذنب، أم أنه - وكانت الوحيدة تعرف أنَّه قد تعلم الفرنسية في مصر - ربما قد غيرته مصر وكتبها الفرنسية، وكانت قد رأت بين كتبه التي قرأت معظمها كتباً بأحرف منمنمة لا تشبه العربية ولم تعرف أنها لغة الفرنجة حتى قالها لها، فقد ظنَّت كما قالت أمها حين رأتها تحدق في صورها مفتونة: أبعديها عنك. أبعديها. لا تؤذيك. ولما سألتها. ولم تؤذيها؟ قالت: إنها مما جاء به معه من مصر. كتب مغاربة ولاشك، كتب... أستغفر الله العظيم. كتب سحر، وفتحت أحد الكتب أمامها في وجل، وأرتها صوراً صغيرة لرجال... ونساء. وصوراً لبيوت ضخمة جداً. قالت: أترين إنه يقرأ التعويذات التي تعلّمها هناك... وتشير إلى بعيد وكأنها تخاف حتى أن تسميها فيحضر الجان إليه وحين تحضر... أعوذ بالله قالتها وهي تتلفت من حولها في ذعر.

كانت قد سئمت البسط، ونسج البسط، ونمنمة البسط، وكان مّما علمته لها أمها أن تصغِّر المثلثات والمثمنات حتى الحد الأدنى. بضع عقد فقط، فإذا ما نظرت إليها ككل معلَّقة اعتقدت أنك ترى حقل شقائق نعمان وبابونج وأقحوان بري منثورة في حقل لا يحده إلا البساط التالي، وكان مما يصعب عليها أن تضع بساطين متجاورين، فتجاورهما يفسد لا نهائيتهما، ولم يكن بإمكانها مهما حاولت أن تعيد النقش نفسه، كانت تترك ليديها اختيار الألوان، وليديها اختيار الأشكال، وكانت لكثرة دربتها ليست بحاجة إلى إعادة تأمل لما صنعت، فقد صارت يداها تعرفان ما تصنعان.

ومع ذلك فقد سئمت ذلك كله، سئمته لمحدوديته، وكانت الوحيدة تعرف محدوديته ولا تصغي إلى آيات الإعجاب تبديها صديقات أمها، وكانت قد حملت واحداً من البسط، فضمته منسوجاً إلى آخر دون أن تستشيرها،

وحملته إلى الحجة رضية هدية بمناسبة عيد الفطر، فأعجبت به الحجة حتى لقد نشرته على الليوان ففتن نساء الحلقة وكانت الأم قد تركت النسج والتلوين والتشكيل منذ أن قتل ولداها فلجأت إلى الصلاة، ولما لم تبرد الصلاة نار قلبها المفجوع بولديها أخذت ترمي حممها على زوجها، وحين أحست أنه لم يثر تحولت إلى النار الهائجة التي كادت تدمر البيت لولا أن عاد والي السلطان، فكان أول ما فعله رجال السلطان حتى يمحو آثار المصري هو أن نشروا الدعاة والداعيات في كل مكان، في الجوامع والزوايا والتكايا، فكان هؤلاء الدعاة والداعيات خير مطفئ لنيران الأمهات محترقات القلوب على أبناء أفهمهم الدعاة والداعيات أنهم لم يكونوا شهداء، فقد ماتوا عصاة وما جزاء العاصي إلا جهنم وبئس المصير.

كانت أروى رضيعة حين فقدت أخويها، ولكنها كبرت في بيت يغلفه حزنان، حزن الفقد، وحزن الموت في العصيان، فأدارت ظهرها للحزنين وانشغلت في نسج بسطها، وكان يمكن لها أن تظل تنسج حتى الموت لو لم تره... نعم رأته فهي لم تكن تفعل إلا التلصص على ما يجري في الحارة، فرأت تلك الرسمة المخيفة للوحش الذي لم تكن تعرف أنه الضبع، وحينما سلَّ حسن آغا الرسمة إلى بيت جدتها المهجور تساءلت: ولماذا...

و... تسللت على عادتها إلى غرفة الكنز كما كانت تسميها، الغرفة الممنوعة عليها، فأمها لم تمقت شيئاً مقتها لسماح الآغا لأروى بالدخول إلى مكتبته، خاصة بعد أن رأتها تقلِّب في كتب الخربشات التي جاء بها معه من مصر، وتقف عند صور الوحوش والنساء والبيوت الكبيرة تتأملها في انسحار... وكانت في السهرات التي لم تكن تصلي فيها تقول لأروى: أنت ما كل ما تبقى لي من خيبة الزواج من الخائر، هذا الذي عاد من مصر ليس بالعالمية، وليس

بحفظ كتاب الله، وليس بوضع كتاب ينفع فيه المسلمين، بل بهذه الكتب الملوءة بحكايات فاسقة عن مغنيات عاهرات لم يكن يشبعن من نكاح... الخليفة والوزير والقضاة، والعشاق السريين، وكانت تتمتم لنفسها فما الفرق بين هاته النسوة وقطط الشوارع السائبة اللواتي يتركن ظهورهن منحنية لكل قط يقفز عليهن. أعوذ بالله...

كانت الأم حسب التقليد العائلي تقرأ القرآن، وتقرأ دلائل الخيرات وتحفظ البردة، وكانت تعرف أنَّ في هذا أكثر من كاف للمرأة المحصنة، وقد حرصت ولو وصل الأمر إلى فضيحة الطلاق ألا تسمح للآغا بتعليم أروى الكتابة، فالكتابة باب أعوذ بالله لو فتح، فالله وحده يعلم إلى أين سيؤدي. وقد حاولت الكثير لحصر قراءاتها فيما علّمتها الحاجة رضية ما على المرأة أن تقرأ، ولكن، أروى ... وكانت تتنهد متسائلة: أعوذ بالله، فماهذا الضعف في قلبي إذن، ما هذه الرخاوة التي جعلتني أترك لأروى الحبل لتقرأ الفسق والفجور في مكتبة الآغا... وتعيد التنهد: أهو ضعف الأم فقدت أولادها ولم يتبق لها إلا هذه... استغفر الله... وفجأة سمعت أمها تقول: البنت راسها بده ستارة، وشيئها بده نطاره... ولكن...

وضحكت أروى وهي تنسل إلى غرفة الكنز وليس على رأسها ستارة، ولا على شيئها ناطور.. اتجهت مباشرة إلى حيث الكتاب ذي الحروف المنمنمة والصور الصغيرة، فقلبت فيه قليلاً حتى وصلت إلى حيث الصور، كان هناك بضع صفحات للوحوش. قلّبت بين الصفحات مفتونة وكأنها تقلبها للمرة الأولى، و... توقفت فجأة عند صورة تشبه الصورة التي رأت الآغا يسللها إلى بيت جدتها المهجور... تأملتها وتمنت لو تعرف قراءة ما كتب تحتها بالأحرف المنمنمة. كان بإمكانها سؤال أبيها، وهي تعرف أنه لن يغضب

لتسللها، ولن يغضب لتقليب كتابه، ولكنه سيتظاهر بالغضب خوف غضب أمها، ولتلصصها عليه يسلل الرسمة إلى بيت الجدة...

وضعت الكتاب تحت ثوبها الطويل وقبضت عليه بيدها حتى لا ينزلق إلى الأرض، ومضت إلى الغرفة العلوية حيث مخزنها للبسط وحيث تعتزل كلما أرادت التفكير فيما يفاجئها في هذا العالم.

فتحت الكتاب عند صورة الوحش الذي لا تعرف له اسماً، والذي شهدت أباها يسلل صورته إلى البيت المهجور. لماذا؟ ابتسمت في حزن: إنه يخاف من أمها، ولو أتى بالصورة إلى البيت فسيكون شجار لن يتوقف إلا عند إحراق الصورة حتى لا يعاقبهم الله على الاحتفاظ بها، وتخيلتها تصرخ: أتريد عبادة الوحوش؟ أهذا ما انتهى إليه أمر تلميذ الفرنجة والأرناؤوط في مصر. ألا تعرف وأنت من كان – وتميل برأسها يميناً وشمالاً معايرة في سخرية – طالباً في الأزهر، وكان في سبيله إلى أن يحمل العالمية ويأتي إلى الأموي... وتخيلتها على عادتها تنقبض في حزن: لا.هذا ليس حظك. ليس حظك، بل حظك أن يتخلى زوجك الآغا عن ولديه ليموتا في العصيان، ثم يأتي إلى بيته بكتب السحر ورسل الشيطان...

ثم تغمض عينيها متنهدة دون صوت: لماذا كان قدري في هذا. لماذا؟

- 11 -

كان الصبي يقرع طبلته وينادي داعياً إلى الفرجة على الضبع التي أكلت حامل البريد عبر الولايات على طريق دوما، وكان الشاويش يراقب الزبائن القلة والذين تحمسوا في البدء وخاصة حين رأوا تلك الصورة المريعة للضبع أمام باب الغرفة – المعرض – ولكنهم كانوا حين يرون الضبع الحقيقية التي أضألها الجوع والإسهال والرعب من هؤلاء القادمين يتفرجون عليها، ويرون تشجعهم الجديد عليها بعد سلسلتها فيدفعون زهراوياً كاملاً لا لشيء إلا ليستطيعوا وخزها بعصا مدببة بعيدة، ولكنها كانت لا تستثار بالوخز المتردد، أما إذا غافل المتفرج الصبي وكانت وخزته موجعة وأكثر إيلاماً مما تحتمل، فكانت تشخر فجأة وتعض العصا فيرتعب الواخز ويتخلى عن العصا هارباً وهو يضحك ضحكة الرعب.

كان الشاويش قد استلم أجر أسبوع مقدماً مع شرط واضح أنَّ الضبع إذا ما ماتت في هذا الأسبوع، فلن يعيد ما قبضه مقدماً، وكان الآغا كريماً فقبل، وأخذ الشاويش النقود وهو يضحك في سره من بله هذا الآغا، فما الذي يجعله على هذا الحمق، أهناك من يدفع أربعة عشر نصف فضة وهو يعرف أنَّه لن يستعيدها فلم تدرَّ الضبع نصف فضة حتى في أيام أسرها الأولى، وتشوق الشبان والصغار للفرجة عليها وهزَّ كتفه في لامبالاة.

في الليلة الأولى وبعد أن انصرف المتفرجون والمشاهدون، ورأى الآغا يحمل إليها بقايا طعام البيت، وكانت كافية لإشباع عائلة كعائلته هزَّ كتفه ثانية يتظاهر باللامبالاة، وهو يفكر: رزق البله على المجانين.

استأذن الشاويش لينصرف إلى القرية حيث بيته وزوجه، ولكنَّ الآغا رفض تماماً، فمن سيحرس الضبع؟ ولكنها مسلسلة! وماذا إن كسرت قيدها، وهاجمت البيت وأهل البيت؟ وشرح الشاويش للآغا عقده مع أهل العريس المدفون في المقبرة لا يريد أهله للضبع أن تأكل جثته وهو الشاب لم يشبع من عروسه، وشرح له كيف حمى القبر والمقبرة وأمعن في الشرح، فحدثه أنه لو تخلى عن حراسته لليلة واحدة فسيهاجم الضبع المقبرة وستفسد سمعته، وكتمها ولم يقلها، تلك السمعة التي لم يستعدها إلا بعد القبض على الضبع وحماية القبر والعريس، ولكن الآغا تمسك بطلبه وعرض عليه غرفة وفِراشاً وطعاما، وأصرَّ الشاويش على الرحيل، بل عرض إعادة المال وفسخ العقد وعلا صوت إلحاحهما، وكانت هذه هي المناسبة التي سيدخل فيها الحجي حياة الشاويش العمود الآخر من عمد الحي، وكان لابد لهما بعد تدخله لتهدئتهما من سماع اقتراحه، وسمعاه.

هذان الإصراران، وعلو الصوتين كان لهما أكثر من نتيجة. فالأولى منها كانت أنَّ برناردو قد خرج من عزلته في البيت الذي وضعه فيه الآغا بعد رؤية برناردو لدورية كانت تحوم في المكان وإبلاغه الآغا بذلك. فنقله إلى بيت أمه المهجور.... ثم من هذا البيت... تلصص من كوة فيه تطل على الغرفة القفص حيث الضبع المسلسلة ورآها، ثم رجا الآغا السماح له برسمها رسمات سماها سكيتشات وكان الآغا ينتظر منه هذا، ولكن ليس الليلة، بل ربما بعد بضع ليال، وكان واحداً من أهم أسباب حمل الضبع إلى البيت هو جعله يرسمها كما

أعلن الآغا ليقارن بين ضبع الخيال التي رآها برناردو في واحدة من مغامراته في الصيد كما ادعى وبين ضبع الحقيقة كما رآها الآغا وأهالي القرية في تلك الخيمة البائسة التي حبست فيها الضبع التي جعل الشاويش منها للمرة الأولى باباً للرزق. أما النتيجة الثانية فكانت أنَّ الحجي رأى الرسمة عن قرب للمرة الأولى وطار صوابه، فكيف لعبد من عبيد الله أن يجسد حيواناً كالضبع. ألا يعرف أنَّ هذا حرام فالخلق للرب فقط، والرب سيطلب منه متحدياً يوم القيامة أن يبعث الروح في الرسمة إن استطاع فيعجز، فالخلق وبعث الروح هو من عمل الله فقط، وكان على الآغا أن يعيد الرسمة إلى البيت تمهيداً لحرقها كما وعد الحجي، أما النتيجة الثالثة والتي لم يتوقعها أحد فهو أن تعرف بذلك ابنة الآغا والتي كانت أصابعها تحكها بحثاً عما يشبع شهوتها في التعبير عما في داخلها، فقد سئمت البسط وتلوينها زخرفتها.

وهكذا التقت الأقدار معاً في هذه الليلة العجيبة، رحَّالتان، واحد لم يخرج من ضيعته إلا للقتل والقتال حين حمله المصري معه في رحلته العجيبة تلك لغزو العالم، فعاد وقد فقد القدرة على الفلاحة وفقد قدرته على فتح المدن والفرجة على النسوة الحاسرات أنصاف العاريات يولولن طالبات نجدة لن ينلنها وواحد طرد من جنته التي بناها مع صديق عمره غاريبالدي، خيالاً فخيالاً، وحلماً فحلماً، جنة لا كنيسة فيها ولا ملك، وكان يمكن لهذا الحلم الفوضوي أن يستمر لولا أن كانت الكارثة، وكان عليه إما أن يسلم رقبته للجلاد، أو رسغيه للسجان، أو أن يهرب إلى بلاد ليس لفيتوريو يد عليها، فكان أن طاف مواني البحر المتوسط يطارده رعب أن يلحق به رجال فيتوريو، وما لبث أن أمعن مبتعداً في المواني حتى التقى القدر الإيطالي بالقدر الألباني ولكن خارج إيطاليا وألبانيا.

قال الحجي: يمضي الشاويش، وينفذ وعده بتحضير الفخ الذي تحدث عنه، ثم يرجع لحراسة الضبع وصرخ الآغا في ذعر: لا، ولكن الحجي ألحَّ في وقار: كان وعده لأهل العريس الميت قبل وعده لك، ولذا فمن حقه أن يفي بوعده الأول، ورد الآغا في احتجاج مفحم كما اعتقد: ولكن ماذا لو فرَّت الضبع؟ ستكون الكارثة. أنت تعرف. في هذا الحي يمكن للضبع أن تصطدم برجل أو طفل في كل خطوة، ليس هذا فحسب، بل لو عرف أهل الحارة أنَّ الضبع متروكة دون حراسة، فسيصابون بالرعب، ويشتكون أمرنا للوالي و..

وقاطعه الحجي: لن يغيب أكثر من ساعتين، والتفت إلى الشاويش يسأله الموافقة، وصرخ الآغا: ومن سيحرسها خلال هاتين الساعتين؟

واضطر الحجي إلى التطوع: أنا سأحرسها، ما المشكل؟

وحملق الآغا والشاويش، ومن وراء الكوة برناردو غير مصدِّقين، ولكن تحديق الحجي في عيني الآغا في إصرار جعل الجميع يتراجعون.

حين اقترب الشاويش من كوخه في المقبرة أحسَّ بأن هناك من يراقبه ويرصده... في المقبرة، فصرخ ما بين المهدد والمرعوب المرعب: ولووو... ولك أنا أبو حسان، وحين حلَّ الصمت المألوف ظلت الفكرة تلح! إنس أم جن؟ ثم تراجع: أم تراها الضباع.

كانت العتمة لم تسبغ رداءها كاملاً بعد، فهناك بعض نور الغسق يضيء المكان، فأشعل مشعلاً، وحمل كيس بارود، وأخذ ينشره حول المقبرة في الممرات التي أحرقها البارود من قبل ويتساءل: أتراها تأتي اليوم، أم أنَّ الذعر وروائح بول الضبع الأسير ليلة أسرها قد جعلها تلتزم الحذر. تفحص عدداً من القبور الجديدة، لا. لم تنبش، وحمدالله، فقد كان أكثر ما يذعره نبش قبر العريس وفضيحته أمام أهل الضيعة.

لم يفكر في المضي إلى البيت، فقد تحول البيت منذ أن عجز عن إعطائها طفلاً إلى فخ يرعبه مجرد الدخول إليه، كانت ترعبه بنظراتها اللائمة رغم تظاهرها باللامبالاة، ترعبه بالنظرات المتبادلة بينها وبين أمها حال رؤيتهما له وكأنهما تتبادلان رسالة عتب وسخرية، وكان حين يخلو بنفسه يتساءل: هو لم يقرب امرأة حراماً أبداً، وهو لم يصب بالمرض الأفرنجي أبداً، فما هذا الإخفاق في إحبالها والذي تطور ليصبح عجزاً حتى عن مباشرتها، فقد صارت مباشرتها امتحاناً، وكان كثيراً ما يخفق في الامتحان، وحين كثرت تغامزات النسوة، بل سمع إحداهن، ولم يكن لنساء الضيعة عادة بذلك، ولكنها الحرب التي غيَّرت كل شيء، سمعها تقول: من بره جمل ومن جوه الله بيعلم شو حمل، وانطلقت القهقهات التي كانت تسحره قبل الحرب بتنغيمها وصهيلها الناعم، وأصبحت عذابه حين صار ملطمة لهن.

استلقى على طراحته المرتجلة يتسمع، ولكنه وقد غمرته نصف العتمة في الكوخ أخذ يسترجع أيام بيلان وقونيه وكريت، أخذ يسترجع الأحلام المبتلة التي كان يرى خديجة بها، فلم صارت الحقيقة والواقع على هذا البؤس، وتنهد في ألم.

حاول أن يشغل نفسه بالتنصت. كان يتمنى سماع عوائها بعد أن تسقط في الحفرة المعدَّة لها، ولكن عواء لم يسمع، وضحكاً بعيداً من ضحكاتها السامة لم يسمع، وفجأة تذكر. عليه أن يعود، فلا يجوز ترك الحجي يحرس الضبع وحيداً، ولكن ماذا لو سقطت واحدة منهن في البئر، وهز كتفيه: سيرجع مع الضوء الأول وسيتفحص البئر – الفخ ومن يدري.

كانت غرفة زريبة الضبع منارة جيداً، وكان الحجي قد انـصرف عنهـا إلى الخارج يدخن شُبُكه ويهرب من رائحتها الفظيعة: يجب أن ينظفوا الزريبـة... رائحة نتنها لا تحتمل.

كان يراقب أول الحارة ويتساءل: متى يرجع. عليَّ أن أنام، فصلاة الـصبح ودرس الصبح لا يمكن إهمالهما... وسمع دبيب خطوات، فانتـصب قائمـاً. إنهـا منتصف الليل وليس من يمشي إلا صاحب غـرض ولـيس مـن صـاحب غـرض إلا الشاويش ولم يكذب الشاويش خبراً، فقد وصل وألقى السلام.

- 12 -

وكتب حسن آغا مبهوراً بحديث برناردو في حديثه إليه في ليلتـه الأولى في البيت الجديد، بيت أم الآغا المهجـور، فكتـب: برنـاردو الـذي هجـر الرسـم، وهجر الجامعة أو هجراه منذ أن احترف الثورة، وصحب ذلـك المجنـون الـذي سمـاه بغاريبالـدي مـن صـقلية إلى نـابولي إلى البندقيـة يكنـسون الباشـوات والآغوات، ويطاردون المقاطعجية ويرعبون الخوارنة والرهبان، هذا الحدث كما يقول برناردو الذي لم تشهده إيطاليا منذ زمن طويل، برنـاردو الـذي سيطارده الخوارنة والرهبان، بل مجلس البابوية حـال أن وضـعت الثـورة سـلاحها، ولم يوقف برناردو كتاباته التي كان يغذيها المجنـون غاريبالـدي، والأكثـر جنونـاً الروسي المسمى باكونين.

توقف الآغا قليلاً يفكر: أعوذ بالله. كـم كـانوا محظـوظين... لِـمَ لم نـشهد شـيئاً كهـذا في بلادنـا. نعـم لقـد التحـق الكـثيرون بالباشـا المـصري وبـضباطه الفرنسيين الذين أسلموا، ولكنهم لم يكونوا مدفوعين بأفكارهم الجلية الواضحة التي صنعوها من واقعهم، وتنهد الآغا: كان الباشـا المـصري قـد اسـتورد وصـفة أوربية ناجحة، وأراد تجربتها وإنجاحها في الشام، ولكنها كانت كدوالي عنب البوردو التي استوردها الباشا إبـراهيم فزرعهـا في كـل مكـان، ولكـن... هـه... ضحك... كل ما لا يزرع في تربته التي أنضجته فـسيكون الهجـين... ولم يـنجح

البوردو الذي جئت بجرة منه لبرناردو فتذوقه وأحبه، ولكنه قال: نبيذ جيد، ولكن... لا... ليس بوردو..

وعاد إلى كتابته: وضع الملك الذي سماه لي بفيتوريو جائزة لمن يأتي ببرناردو حياً، وجائزتين لمن يأتي به ميتاً ويريح الملك منه... وهجر برناردو إيطاليا إلى فرنسا ومنها إلى البلد الجديد الذي سمع أنهم يستقبلون فيه أيتام الثورات الأوربية، وكان اسم هذا البلد مصر التي سمع أنَّ أرناؤطياً من الجيران قد صار الحاكم فيها، وأنَّ حلم أبنائه وأحفاده الذين حرموا من أوروبا أن يشدوا مصر من أفريقيا ليلصقوها بأوروبا، ومن أجل هذا الحلم سمح الباشا للأوربيين، كل الأوربيين بالهجرة والعمل والتملك فيها، فكانت الجنة الجديدة حيث لا قانون يحكم القادمين من أوروبا إلا ما يتكرم به قنصلهم على الوطنيين، وهذا ما ندر وقوعه.

شرد الآغا يفكر: أليس هذا ما حصل للشام شريف حين سمح الباشا المصري للقناصل بالدخول إليها، وتوقف يفكر: ولكن لماذا... أهو شرط دخول الحضارة إدخال الذئاب أيضاً؟ ألا يمكن اختيار الصالحين فقط... ولما أعجزه الجواب حنى رأسه في عجز وأكمل:

سوء الحظ طارد برناردو، فبعد أن ابتسم له كثيراً حين أصبح وكيل نادر باشا على الأرض التي وهبها له الوالي شرط استصلاحها، وكان نادر باشا ضابطاً فرنسياً صغيراً حين هزم نابليون، وانطفأ بهزيمته شعار: حرية. مساواة. إخاء، فهرب إلى مصر مع من استجاب لنداء الوالي الأول وأسلم وصار من رجال الوالي المخلصين، وكان يعرف الكثير عن سيرة برناردو، فالصحف الأوربية كانت تلاحق أخباره دائماً، وكان يعرف أنَّ رأسه مطلوب في أوروبا لو وضع قدمه فيها، أما في إيطاليا فسيفقد رأسه ببساطة، ولكن نادر باشا وهو من عاش

شبابه المبكر مع الحلم البونابرتي، والشعارات التي هدمت البنى الملكية والكنيسة الإقطاعية كان يعطف على أولئك الحالمين الساقطين، المطاردين بعد سقوط الحلم، فاستعان به، وقال له مرة يسارُّه: ها هي آلاف الفدادين بين يديك، وها هم آلاف الفلاحين بين يديك، وها هو النيل في ترعته الجديدة المارة قريباً من الإبعادية بين يديك. اصنع الحلم هنا في أفريقيا. اصنعه، وستجدني إلى جانبك... ولكنه وهو يقدم الهدية المسمومة نسي أن ينبهه إلى عدم إزعاج ظل الله على أرضه الوالي، ونسي أن ينبهه إلى عدم إزعاج رجال الوالي وجباة الوالي، ونسي أن ينبهه إلى أن الوالي في الشرق قد يغفر لك لأنك أوربي كل ذنب إلا أن تشرك به، أو تدعو إلى الشرك به ومنازعته السلطة، لأنك عندئذ تكون قد أهدرت دمك بيدك.

وكتب الآغا: وقال برناردو وهو يشرب كأساً من نبيذ ديمتريوس الأشهر والألذ في مصر، وكان يصنعه يوناني قدم مع محمد علي مباشرة إلى مصر، فاستحيا السهول الرملية الواسعة القريبة من شاطئ الإسكندرية، وبدأ بصناعة نبيذه سراً، ثم احتمى بقنصليته فتحولت الصناعة اليدوية البسيطة إلى صناعة فاخرة كبيرة.

قال برناردو لنادر باشا متوجساً: والكنيسة؟

فقال نادر باشا: الكنيسة هناك في أوروبا. ها هنا لا يستطيع البابا ولا الخوارنة فعل شيء.

استقدم برناردو كل من عرف، أو استطاع الاتصال به من أيتام الثورة في باليرمو ونابولي وميلانو... استقدمهم مع رسائل تصف الجنة التي تنتظرهم في مصر، و... تقاطروا... وقد احتاج الأمر إلى ما يقارب السنة حتى اجتمع لديه من رفاق الثورة الإيطالية، ومن عجائز الثورة في أوروبا ما مكنه من إطلاق

مشروعه: سنقيم مجتمع الحلم. سنستخدم المضخات البخارية لرفع الماء من الترعة وسقاية الأراضي العطشى، وسنحفر الترع الصغيرة ونقيم السدود الصغيرة لحجز ماء المطر إن هطل، وسنستفيد من المعارف الفلاحية الجديدة، وسنعمل بأيدينا مع الفلاحين لنعلمهم كيف يمكن للجنة أن تكون على الأرض.

وسيقول برناردو للآغا متنهداً:

هذا الحلم والرغبة والتي تكررت كثيراً من حالمين مدينيين يريدون صناعة الجنة الورقية على الأرض، ولكنهم ما إن يباشروها ويكتشفوا مشقة العمل اليدوي ومتابعته وانتظار نتائجه حتى تبدأ العادات القديمة بالظهور، شهوة راحة المساء، شهوة شرب كأس نبيذ مسائي، شهوة سماع الموسيقى، شهوة القراءة والتواصل مع عالم الثقافة، ولكن واأسفاه هذه الشهوات كلها لا تنسجم مع العمل اليومي الشاق وخاصة تحت شمس أفريقيا الحارة، فيبدأون في تسليم العمل الأسود إلى المواطنين المحليين كما حصل للمعمرين في الجزائر من أيتام ثورة **1848** كما سيضيف برناردو متأوهاً ومنتقداً تجربته في مصر.

ولكن الفلاحين المصريين الذين حصلوا للمرة الأولى في حياتهم على الحماية من السخرة، هذه الحماية التي رعاها وحماها نادر باشا، وحصلوا على الأجر المعقول فتنعموا، طبعاً التنعم النسبي، الأمر الذي نبَّه جيران الإبعادية من مقاطعجية وفلاحين غيورين من النعيم الذي عاش به فلاحو نادر باشا، فلم يكن دور برناردو قد صار معروفاً، ولكن حين عرف أحد النظار وكان إيطالياً بدور برناردو وأصدقائه. وعرف من هو برناردو في إيطاليا عرف أن الأمر خطير فحمله إلى القنصل الذي حمله إلى الوالي، و... صار برناردو عدو الوالي، وهكذا اضطر إلى الهرب إلى الشام محملاً برسالة توصية من نعمان الصيدناوي... وكتب حسن آغا: وأخيراً طرق بابي طريد القارتين.

- 13 -

كانت تعرف طريقها الخاص إلى بيت الجدة المهجور، وكانت إذا ماسئمت شجار أبويها، أو أرادت الخلوة انسلّت عبر الخرق في الجدار الخفيف العازل بين البيتين والذي غطّته بأغصان الدالية الكثيفة، حملت الكتاب المستلّ من غرفة الكنز وصور وحوشه الغريبة، وكانت قد وضعت أصبعها بين الصفحتين حيث صورة الوحش الذي يشبه الصورة التي رأت أنَّ أباها يسلّها إلى البيت بعيداً عن عيني أمها. قالت: أريد التأكد من أنها صورة واحدة لوحش واحد، ولماذا أخفاها في بيت الجدة.

انسلّت على رؤوس أصابعها على المشرقة التي لم تُدحل أو يعاد تطيينها منذ سنوات، فصار طينها مطبلاً يخاف المار فوقه من انهياره أو من تفتت التراب غير المتماسك على الأثاث العتيق. تسللت على رؤوس أصابعها إلى الدرج الخشبي فنزلت، وكان صوت الولد من الخارج يعلو: تعا تفرج تاع. هدا هوه الضبع اللي أكل الططري على طريق دوما. تاع. تعا تفرج. تاع.

لم تكن قد رأته بعد، ولم تكن مهتمة كثيراً برؤيته، فما لها، وللضباع، وللططري، ومن أكله، فالضباع كانت قد توقفت عن مهاجمة مقابر الشام منذ سوّروها جيداً وهي تذكر تشكّي أبيها من الضريبة المرتفعة التي اضطره رجال إبراهيم باشا لدفعها، وكان يهتف: من شان سور التربة ندفع كل هذه

القروش؟ ولكنه أخيراً دفع، فلم يكن بإمكانه ألا يدفع، فقد كانت الأوامر أوامر إبراهيم باشا التي لا يمكن مخالفتها.

كانت تريد مقارنة الصورة بالصورة، أما مقارنة الصورة بالأصل، فقد كان ترفاً أكثر من طموحها. وصلت إلى الباحة، وفوجئت بأنها مكنوسة رغم أن ورق الشجر لم يحمل من الباحة بعد، بل رصف جانباً وأثقل بالمكنسة حتى لا يطير ثانية وتساءلت: من كنسها إذن، لا... لا يمكن للآغا فعلها... وتساءلت لهنيهة: ترى أين وضع الصورة؟ فتحت الباب الأول، ولكن الغرفة كانت مزحومة بأثاث مغطى بقماش كان أبيض لم تستعمل منذ زمن طويل، ومضت إلى الغرفة التالية وأخيراً رأتها. كانت معلقة إلى الجدار. اقتربت منها، ولكنها لاحظت فجأة عدداً من الصور الأخرى. وكان عليها ما يشبه الوحش في الصورة الأولى، ولكنها وحوش هزيلة وقد انجرد بعض شعرها، وانتشرت بعض السوائل الصفر والحمر حول آخر. كما دسَّ أحدها رأسه تحت إبطه في استسلام، وتساءلت فما هذه إذن؟ ولماذا كانت الصورة المرصوفة على الجدار ملونة وعلى هذا الكمال، وكانت هذه الصور على هذا الانحطاط.

فتحت الكتاب حيث أصبعها العلامة الفارقة، ونظرت إلى صورة الوحش، وقارنتها بالصور المرصوفة على الأرض مستندة على الجدار، وكأنها أطفال أجهضت قبل تمامها، وقارنتها بالصورة المعلقة على الجدار، فرأت الكمال فيها يفوق تلك المثبتة على الكتاب.

اقتعدت طراحة عالية قريبة مثقلة بالحيرة. ما الذي يجري ها هنا، وماعلاقة الآغا بكل هذا... أهو كما تقول أمها يحاول السحر؟

هل أرعبه هذا الوحش يوماً، فهو يحاول نزع هذا الخوف بإذلاله وحطِّه من عليائه، ونزع أظافره كما في هذه الصور، ولكن...

كانت الحيرة أكبر من وعيها الشاب الذي لم يعرف من وسيلة للقول إلا رصف المثلثات إلى جوار المثمنات والدوائر... وفجأة سمعت حركة قريبة فانتصب شعر جسدها... من في البيت؟ أتراهم استدعوا الوحش بهذه الصور، وقفزت من مجلسها لتختفي خلف ستارة مغبرة، ومن شق الستارة حيث كانت تتوقع دخول الوحش المستدعى رأته وكان برناردو، وكان في ثياب ملطخة بالأصباغ يمشي حافياً على البلاط وقد تهوش شعر رأسه ولحيته فعل من اعتاد الوحدة والعزلة وعدم الاختلاط بالناس.

لم تكن قد رأته من قبل، ولم تكن مهيأة أصلاً لرؤيته في البيت المهجور، وأصابها الرعب بما يشبه الشلل: من هذا؟ ما الذي جاء به إلى هنا؟ واستيقظ رعب المرأة الشامية تاريخياً من الغريب تجد نفسها معه في مكان واحد حاسرة. ما الذي سيفعله لو عرف بوجودي... ما الذي ستفعله الأم لو عرفت بوجودهما في غرفة واحدة حاسرة الرأس مع رجل حافي القدمين في بيت ليس فيه غيرهما. وتبادرت الفكرة إلى ذهنها. جني؟... ولكن ما للجني وهذه الصور. وتداعت حكايات الجدة وحكايات ألف ليلة وليلة، ورأته يتنهد وهو يحمل واحدة من صور الوحش المجهض فيعلقها على خشبة قريبة، ويبدأ في تلطيخها بريشة يغمسها بالألوان... هاه إذن فهذا هو الذي تخاف منه الأم، وتحذر الأب منه، التشبه بالله في الخلق؟ وكادت تصرخ من الفكرة الصادمة.

كان حر الحبسة وراء الستارة والخوف من انكشاف أمرها في مربطها، والخوف من بحث أمها عنها والتحديق في الظهر المنحني على ما بين يديه لا ترى منه إلا ريشة تنغمس في أصباغ على خشبة بين يديه ثم يعود الظهر إلى ملء المشهد كاملاً.

* * *

خوفها الطفلي وتحديقها في ظهر الرجل أمامها، وخوفها من إصدار صوت ينبهه إليها ربما كان هذا كله ما جعلها تنام. تنام؟ هي ليست متأكدة إن نامت، ولكن لابد أنها نامت، وإلا فما الذي جعلها تنزلق إلى الأمام جارة الستارة معها فتصدر ما كانت تخافه حتى الذعر... الصوت الذي ينبهه إليها.

التفت مذعوراً، والتقت العيون، وصرخ مذعوراً، فما الذي جاء بهذه الصبية لتنبثق أمامه كأنها... وقفز السؤال الذي يعرف أنهم جميعاً يسألونه في الشرق: جن أم إنس؟ ولكن السؤال لم يخرج من حلقه، بل تجمَّد في مكانه يحدق فيها مرعوباً، وتحدق فيه مختلطة النوم بالخوف، بالدهشة، بالصراخ المكتوم كانت المرأة الأولى، المرأة... ولكن أهي امرأة، فعلاً...؟ فإن كانت امرأة فما الذي جاء بها إلى البيت المهجور حاسرة الشعر حافية القدمين، وفجأة وكقطة كانت محصورة في ركن رأت غفلة من محاصرها، فاندفعت من الغرفة يحملها طيش الفتوة وعبث المراهقة وخوف الحصار، فاندفعت على الدرج الخشبي شبه المتهاوي، ووصلت إلى السطح، فالخرق المختفي تحت أغصان الدالية، فبيتها تلهث... استندت إلى الدرابزين الخشبي يكاد اللهاث يرعشها، وتحاول التماسك قبل لقاء أمها.

انسلَّت إلى غرفتها، أخرجت الكتاب من تحت ثوبها، وفتحته عند صفحة صور الوحوش... لا... لا وحش في هذا الكتاب يشبه الوحوش التي يصنعها ذلك الكهل المنحني لم تر منه إلا ظهراً منحنياً ولحية مشوشة وشعراً مهوشاً

* * *

لم يرها في الباحة، ولا على الدرج، ولا على المشرقة التي لم يعتد الصعود إليها ولكنه صعد، وعاد بسرعة إلى الباحة، ففتش الغرف غرفة، غرفة، كانت قد تبخرت، وفجأة أحس بقشعريرة رعب. أتراها...؟

فيما بعد وحين يسترجع هذه الفكرة التي أرَّقته يومه كله، بل جعلته يترك البيت كله مضاء بالقناديل والشموع ويفرش فراشه في الباحة تحت الأنوار مباشرة.. واستيقظت فجأة ألف ليلة وليلة في ترجمتها الفرنسية التي قرأها في ميلانو. استيقظت الجنيات ساكنات البيوت المهجورة. شبح...؟ لا.. لا يمكن لهذا الجمال وهذه النظرة أن تكون لشبح. لا... إنها لجنية خالدة الجمال... إنها. وأخذت أفكار الفوضوي تستيقظ فيه. أترى هذا الشرق الذي لم يتلوث بالعقل البارد والعلمية والعلية والسببية. هذا الشرق الذي قدَّم أجمل الحكايات عن الجنيات محققات الأحلام. أتراه.. وبهدوء تذكر ذلك السوري الذي أغرقه فيما مضى في حكاياته عن التحولات التي يمكن للبشر أن يتقمصوا فيها، أتراها ما تزال حية لدى هؤلاء الناس، واستقام من رقدته يفكر: أيمكن للفكرة المجردة إذا طغت على الإنسان بقوة أن تتجسد أمامه... أتراه كان يفكر فيها، في هذه الجنية – الجمال، ولكن... إنه لم يكن يفكر فيها، بل كان يفكر في تلك الضبع المسلسلة في الغرفة خارجاً وكيف تحولت إلى واوي، أو إلى قط. أووف وأطلق تنهدة الحيرة معيداً الاستلقاء. ربما لم يكن يفكر فيها في واعيته، بل كان... وتساءل محزوناً: منذ متى لم ير امرأة أو يقرب امرأة...؟. أف. منذ تلك الفرنسية اللعينة في الإسكندرية والتي حين لم تجد معه مالاً سرقت خاتمه الذهبي. وأطلق ضحكة ممرورة. كان يجب أن تحصل على مكافأتها، وهل يمكن أن تمضي امرأة معه ليلة دون مكافأة، وأحس بالانقباض الفظيع. لماذا؟ لماذا يكون على هذا القبح وهذا التنفير حتى لا تقربه امرأة إلا في مقابل مكافأة. كان

يعرف أنه ليس الجميل، وليس الأنيق، وليس برجل الصالونات وليس بالمحدث اللبق. فسنوات صقلية وميلانو وكالابريا ونساء الجيوش قد أنسته لباقة الحديث وتقديم الورود ورقة اللمسات.

جلس على الطراحة، وأحسَّ بشهوة حارقة لكأس نبيذ، ولكن كيف يحصل عليها وهو حبيس هذا البيت؟

كانت قماشة جديدة لم يرسم عليها وحوشه المقرفة المحاطة بقيئها وإسهالها، وحوشه المسلسلة المهانة المطعونة بعصي الصبيان والعتالين ومطيِّري الحمام، المنتقمين لرعب الليالي وحكايات الجدات تتحدث عن قسوة الوحش ينوِّم ضحاياه ببوله ويستجرهم وراءه إلى مغارته أو واديه.

أمسك بريشته وأخذ يخطُّ لا يعرف ما يخطُّ، ولم يقرر ما يريد من قماشته وألوانه، كانت الألوان والأشكال تنساب، وكأن يداً أخرى هي ما يرسم .

انقضى النهار وأعتمت الباحة حيث كان يرسم، وحين وضع الريشة من يده للمرة الأولى. أحسَّ كم هو جائع، فانسحب إلى المطبخ يعدُّ لنفسه بعض الطعام، ويوقد ناراً وقناديل يستضيء بها، وحين أنهى طعامه، وعاد إلى اللوحة ينيرها بقنديل رفعه عالياً فوق اللوحة ينيرها ليفاجأ بما رأى، فلقد رآها... من أيقظها بعد هذه السنين؟ من أيقظها بعد ليالي الرعب والقرابينات، وصراخ الأعداء، وجئير البيمونتيين رجال فيتوريو. من أيقظها بعد فيتوريو وعسسه ومطارداته قالوا: نبي الفوضوية والإرعاب، محرق الكنائس ومطارد الرهبان، وكان لابد من الهرب، وتركها وحيدة هناك في نابولي... ما الذي أيقظها الآن؟ كانت كاملة في صباها وشذاها وشعرها الطائش. ما الذي أيقظها وهل كان قلبه الكهل الذي غطاه لسنوات بنبيذ الإسكندرية ومواخيرها ونسائها حامضات العرق اللواتي كان عليك أن تخلي جيوبك من كل حلية أو مال إلا ما رصدته

أجراً لهن حتى لا يسرقن ما تحمل، ولقد فعلن ذلك لمرات كثيرات ولم يبقين له إلا ضحكات شامتة من أصدقائه.

ما الذي أيقظها. استلقى على طراحة قريبة يتأملها ترتعش تحت ضوء القنديل المتراقص. كانت تبهت حتى يتساءل: أهي حقاً ريناتا، أم أنها مجرد شطحة من شحطات خيال الكهل المتوحد المطارد من قارتين، فأوروبا بعد فيتوريو وعسسه لم تعد مكاناً آمناً للفوضوي عدو الإقطاع والكنيسة، أما أفريقيا فقد صارت فخاً يديره إسماعيل ورجاله، ولم يعد له من ملجأ إلا هذا المكان الذي أقنعوه أنه كان بعيداً عن أوربا وورثة ميترنيخ وفيتوريو ورجال الكنيسة العائدين بكل عزة وانتقامية البوربون حتى بعد زوالهم الثاني.

كان قد سمع عن نابوليون الجديد ولكنه لم يتفاءل أبداً، فهو يعرف أن النار لا تترك وراءها إلا الرماد، وحين عرف بصداقته الصارخة مع إسماعيل عرف أنَّ أفريقيا قد صارت قطعة من أوروبا العسس والقناصل والقراصنة البريين الذين يسمون أنفسهم محضِّرين ومستثمرين.

انقلب على جنبه مبعداً نظره عن الرسمة التي أسماها ريناتا، ولم يكن واثقاً أبداً أنها ريناتا أو حتى من مقاربتها فلقد مضى أكثر من عشرين سنة منذ آخر نزهة خلوية لهما معاً.

انقلب على جنبه يغمض عينيه ويستعيدها، ولكنه لم يستطع أبداً استعادتها، بل كان كل ما استعاد هي صورة الضبع المسلسلة الغارقة في سوائلها. صاح ديك قريب وعرف أنَّ النوم لن يستضيفه الليلة، فانتفض. قال: أنا في غنى عن تقلبات الأرق، ولما لم يكن لديه ما يقرأه فلقد انتزع واحدة من رسمات الضبع المسلسلة وقلبها على قفاها، وأعاد شدَّها إلى الحامل وأخذ يستعيد برناردو القديم... كانت يده تضع الألوان ويفكر: ما الذي أيقظ الرسام فيه وقد تخلى

عنه منذ أكثر من ربع قرن، تخلى عنه منذ التحق بحلم صنع فرنسا في إيطاليا، منذ قرر مع غاريبالدي إحياء ما أخفق الفرنسيون في الحفاظ عليه، دولة لا إقطاع ولا كنيسة فيها، ولكن... أعوذ بالله كيف استطاع ذلك الفيتوريو خداعهم، كيف استطاع جعلهم يسخِّرون دماءهم وشبابهم ومواهبهم ليقدموها له فيحيلها إلى عسس، وكنيسة، وإقطاعيين جدد. كيف؟ كانت يده ترسم، وكان واحد آخر فيه يفكر. ما الذي أيقظ كل ذلك الماضي فيه... ألم يقسم بأن ينساه ويتحول إلى صانع لأرض الأحلام في مصر؟ ألم تحرقه شمس أفريقيا وهو يدفع المحراث بيده مقسما على صنع أرض الأحلام التي أخفق في صنعها في أوروبا؟

كانت الأضواء تتغير من حوله،ولم يكن يشعر بتغيرها، فلقد غرق في ذلك العالم الذي ظنَّ أنه نسيه. كان قد جلب كل الخبز الذي جاء به الآغا، أحضر الجبن وجرة النبيذ التي رجاه أن يأتيه بها، وحين عرف بأنَّ الآغا قد خاطر بسمعته ليأتيه بجرة النبيذ أحسَّ بالندم ولكنَّ أول كأس دافئ شربه أنساه الندم.

كان النهار يطلع ولا يعرف بطلوعه، والليل يحط ولا يعرف بحطِّه. كان يأكل ما لا يعرف أنه يأكله، ويشرب ما لا يعرف أنه يشربه ويريق الألوان على القماش.

كم مضى عليه في خروجه من هذا العالم، هو لا يعرف... فلم يكن لديه أحد ليسأله، ولم يكن العالم الخارجي يهمه في شيء ولكنَّ المضحك هو أنه استخدم أقفية رسمات الضباع كلها. لِمَ لَمْ يرسم فوقها، وله في ذلك عادة حين كان هناك في نابولي. لم استخدم أقفيتها؟ أتراه لم يكن يسخو بضياعها. أتراه كان يريد قول شيء في هذه الرسمات التي ما إن وضع ريشة الإنهاك من يده

حتى سقط على الطراحة القريبة نائماً نومة أشبه بالإغماء، أو ربما كانت الإغماء.

- 14 -

ماتت الضبع ولم يشعر الشاويش بالحزن، فلقد تحولت إلى عبء التزم به، فقد كانت حراسة المقبرة أهم لديه من حراسة الضبع، ولكنه التزم أمام الآغا وقبض أجره مقدماً، وكان يفاجأ كلما مضى بعد الغروب إلى المقبرة ليحرسها من غزوات الضباع. كان يفاجأ بأن بارود الأمس قد بعثر. لماذا؟ كان يسأل في غيظ: من يبعثره ولماذا؟ ومن يطمر حفرة الفخ ويكشف عيبها؟

ترك الصبي يقوم بجمع نقود الفرجة ومضى متلطياً إلى المقبرة يريد أن يعرف من يطمر الحفرة ومن يبعثر البارود، ولكنه أبداً لم يستطع القبض على الفاعل، وكان عليه في كل عصر أن يعيد نشر البارود وتنظيف الحفرة وتمويهها بالأغصان والتراب، ثم العودة إلى حيث الصبي يجمع منه نقود الفرجة ليعطيها للآغا حسب الاتفاق. كان يخرج أركيلته ويجلس أمام غرفة الفرجة يدخن ويراقب ويحرس ما لا يحتاج إلى حراسة من بعد، فلقد أدرك أن الضبع ميتة قريباً لكثرة ما سال منها، ولضعفها، وعدم عضها حتى لعصا الواخز.

كانت بداية صداقة غريبة قد تشكلت بينه وبين الحجي، وهو لا يعرف لها سبباً فلقد أدمن الحجي على حمل قهوته في كل ليلة ليساهر الشاويش التائب بعد رحلته العجيبة مع الأرناؤوطي، وكان يصرُّ على تسميته بالأرناؤوطي بديلاً عن المصري كما كان الجميع يفعلون تعبيراً عن رفضه له. وكان يطلب إليه الحديث ولم يكن الشاويش بالمحدِّث المكثر، ولكن ما لديه من

حديث متقطع كان أكثر من كاف، وكان يتركه يتحدث ويتحدث، وكان يسأل أحياناً عن تفاصيل تلك الواقعة أو هذه، وكان ثمن هذا الحديث الطويل القهوة الطيبة التي كان يحضرها معه من البيت، بل كان يحضر أيضاً بعضاً من المعمول والسنبوسك والحلويات الجافة يتسليان بقضمها والشاويش يتحدث عن كريت ونزيب وقونيه، وفي إحدى المرات وبعد لعثمة طويلة سأله الحجي: وماذا عن النساء؟ ورغم العتمة المحيطة المخففة ببعض نور القنديل المعلق فوق رأسيهما إلا أنه لاحظ شحوب وجه الشاويش وارتعاده، ثم انتصابه والاستئذان منه يمضي لقضاء حاجة لم يرجع منها إلا قرب الفجر، وحين رجع ورأى الحجي يدخن أركيلته ربما الثالثة منذ مضيِّه وضع أمامه منديله الكبير، وكان الحجي يراقب أصابع الشاويش المرتعشة تحل رباط المنديل، ثم ينتصب ويأتي بالقنديل المعلق، ويضعه إلى جانب المنديل، وكاد الحجي يصرخ مذعوراً فقد كان ما لُفَّ بالمنديل جذع رضيع حُزَّ رأسه وبقي له ثلاثة أذرع ضئيلة بعثت الدمع في عيني الحجي.

* * *

سلم الحجي ملتفتاً إلى اليمين كما يجب، وسمع المصلين من خلفه يرددون: السلام عليكم ورحمة الله، ثم ملتفتاً إلى الشمال: السلام عليكم ورحمة الله، ولكنه كان يفكر ويفكر بسرعة. الشاويش زيدان قارب كشف الأمر. يجب ألا يكشف الأمر. يجب ألا يكشف الأمر، فمن يدري كيف تكون ردَّة فعل الناس. لقد أرادها مبادرة من الناس وكانت مبادرة متحمسة من الناس. صحيح أنَّه حرَّض عليها عبر أصدقائه ومحبيه، ولكن لا يجب أن يعرف الناس بذلك.

التفت قاعداً ليواجه المصلين، فاقترب منه أحدهم ووشوشه: شيخي لم نتحدث عن الحج حتى الآن. والوالي كما يبدو مشغول بقضايا أخرى، والموسم

قارب. انتبه الحجي إلى الرجل. صحيح الوالي لم يفاتح أحداً في موكب الحج حتى الآن. وهذا لا يجوز يجب الاستعداد قبل مفاجأة المدينة بمواكب الحجاج القادمة من الهند ومن أفغانستان وإيران، والأناضول... وتنهد، وكانت العيون ترمقه كعيون الصقور ينتظرون ما يقول: صحيح أنها كانت سنة من أقسى السنوات في قحطها، فها هو شباط يقارب النهاية، ولم تبتلّ الأرض بما يكفي لتخضيرها بعيدان القمح والشعير والحمص والفول... وموسم الحج...؟ ولكن ماذا سيحمل الحجاج معهم إذن، والبلد على هذا القحط؟ صحيح أنّ بيت مونته مليء ولن يزعجه الموسم السيء، ولكن. ماذا عن الآخرين، والفقر كافر.. وصلاة الاستسقاء لم تستجب. هزَّ رأسه: الذنوب كانت كثيرة والله يعاقب المحسن بالمسيء.. ولكن...

تنحنح السائل والذي كان يجلس في مواجهته مباشرة، تصفّح وجوه الجالسين في الصف الأول، وقرأ السؤال نفسه في عيونهم. هاه... إذن فلم يكن السؤال فردياً.. فكّر...: الوالي.. يجب أن أحدث الوالي، فلعله يسمح بفتح مخازنه ومخازن التجار فيخفف الضائقة عن الناس.

تحامل على نفسه ليقوم، ولكنّ السائل تنحنح ثانية، فالتفت إليه وقال:

- أنا ماض إلى الوالي وأرجو أن نستطيع إيجاد الحل.

وعلى الطريق لاحظ أنّه لم يكن وحيداً، فكثيرون كانوا يلاحقونه ولو من بعيد. كان القلق ينهكهم، فهذا هو الموسم الذي تعتاش عليه المدينة، ولا يبدو أنَّ القائمين على المدينة مهتمون.. اقترب من القلعة، وأخذ القلق ينتابه: ماذا لو رفض الوالي استقباله؟ كانت المرة الأخيرة للقائهما غير موفقة، فالوالي عسكري ولا يعرف العربية، ولا يبدو متديناً، فهو لم يقدم له وللشيخ سليم، وللمشايخ الآخرين الاحترام الكافي، وأخذت خطواته تتقاصر: ماذا لوا تواقح

عليه... أعوذ بالله. راح الشباب والغضب لله الذي كان يجعله يتحدى ويصرخ مستعيناً بالشرع الشريف فيخرس الوالي، ولكن السنّ تتقدم، والغضب يهدأ.. نظر إلى الوراء ورآهم ما يزالون يلاحقونه، وضحك في سخرية؛ كان يتمنى لو لم يكونوا في إثره. إذن فلربما عاد إلى بيته وليندب كلٌّ موتاه بطريقته، ولكن..

وصل إلى باب القلعة، وكانت المفاجأة، فقد استقبله الحاجب بترحاب مبالغ فيه، وكأنما كان ينتظره، قال: الوالي كان يريد لقاءك، وكان كرماً منك أن بادرت.

غرق الحجي في الدهشة، فلقد مضى على الوالي ما يقارب الستة شهور، ولم يكلف نفسه عناء الاجتماع مع مشايخ البلد، مع روحها، وهاهو يريد لقائي.

- أنا فقط؟

- نعم. أنت فقط.

أحسَّ الحجي بزهو خفيف.. ترى ما الذي يريده الوالي؟

وكان الخبر الصاعقة: السلطان أشفق على الشام شريف والتي عانت أكثر من كل المدن التي دخلها المصري، وخسرت من أبنائها الكثيرين في حروب المصري الفاسقة. وإذن؟.. قرر السلطان مساعدة المدينة، فالحج هذه السنة سيكون هدية من السلطان لأهالي الشام شريف من النساء اللواتي دفعن أكثر من غيرهن، فهنَّ من ثكل، وهنّ من ترمل، وهنّ من فقد الأب والمعيل. وفحّ الحجي مذهولاً من الهبة: والمحارم؟ نساء بلا محارم؟

- سيكون لهن الحق في اختيار المحرم الذي يشأن. إن كان الزوج فمرحباً به، وإن كان الابن فلا بأس..الأب.. ابن الأخ...

وتنفس الحجي مفكراً في ارتياح: خير مكافأة لك بعد هذا الجهاد الطويل لتطهير المدينة من آثار المصري.

وتابع الوالي: نفقات الحج. جِمال الحج كلها من خزانة السلطان والوالي مسؤول عن تأمينها. ومنذ الغد سنبدأ في استدعاء قوافل التموين والحبوب مع الحجاج.

- والناس. أهل المدينة؟ سأل الحجي.

- الحاجّات فقط. إرادة السلطان.

- ومخازن التجار.

- سنأمر بفتح مخازن الوالي والتجار وتوزيعها على النّاس... وتلكأ قليلاً.. بالأسعار الرائجة إن شاء الله.

- 15 -

ماتت الضبع، ولم يعرف برناردو بموتها، وكيف كان له أن يعرف بذلك وهو النائم نوم الإغماء، ولكن أروى عرفت بموتها، فلقد رأت انشغال الآغا ووشوشته مع الشاويش، ثم حين أطلت من الشُرَيْفة الخشبية المثقبة رأت الشاويش والصبي يتعاونان في حمل كيس من الخيش يضعانه على الطنبر ورأت الآغا يودعهما آسفاً، ثم رأت رجلين من الزبالين يدخلان إلى ما كان حظيرة الضبع ومعهما قرب الماء ومكانس الشوارع وعرفت أنهما في سبيلهما إلى إزالة آثار وروائح الضبع من الحظيرة.

فجأة تذكرته وتساءلت: الآن ماتت الضبع، وبعد قليل ترمى في مكان بعيد، فهم لن يدفنوها في المقابر، وكل ما تبقى منها هو هذه الروائح والبقايا التي يغسلها الزبالان و... الرسمة التي رسمها ذلك المصري الذي يخفيه الآغا في بيت أمه.

لم تستطع سؤاله مباشرة وأمام أمها، فقد كانت تعرف أنَّ ذلك السؤال سوف يسبب الكثير من المشاكل للآغا ولها، بل ربما سبّب حالات من العويل واللطم والإصرار على طرد ذلك الغريب من البيت، فرأت أن تسأل الآغا مواربة لتسمع منه الجواب الموارب.

ماتت الضبع التي لم ترها، ولكن الرسمات.. تساءلت.. الرسمات. أهي كل ما تبقى منها؟.. وبطيشها المغامر قررت أن تنزل لرؤيتها ومقارنتها بالرسمات التي صنعتها للضبع كما اعتقدت.

كانت قد قضت الأيام الفائتة تناطح الأوراق مناطحة لم تعرفها من قبل. رأته قد فعلها، فلم لا تفعلها.. لم تكن تريد الألوان، ولم تكن تطمع إلى صورة الضبع كاملة الألوان والظلال، فقد عرفت منذ تذكرها الأول أنها لن تستطيعها. فرأت الاكتفاء بالاسكتشات التي لم تكن قد لونت بعد.

مضت إلى المشرقة، فالخرق في الجدار، فأغصان الدالية، فسقف المشرقة المطبل، وكانت تمشي بهدوء مقررة ألا تفزعه كما في المرة الماضية، قالت: سأراقب من بعيد، فإن كان خارج البيت نزلت، وتأملت رسماته بهدوء.

وصلت إلى الدرابزين، وأطلّت في حذر وكان الصمت المطبق ورأت الباحة وقد تبعثر فيها لوحات ليست لضباع، ولا لوحوش كان هنالك جداول وأشجار وورود، ونساء أنصاف عاريات لم يكنَّ واضحات تماماً، ولكنها كانت تثق تماماً بعيونها. وهي واثقة بأنَّ ما ترى كان صوراً لنساء مستلقيات في استرخاء وقد اندفعت أثداؤهن أمامهن. أحدّت النظر تريد التأكد إن كنَّ في ماء الجدول المغطي لأجسامهن السفلى، أم أنهن كن مستلقيات على العشب، ولكن النور المنكسر لم يمكنها من التأكد، أما الأشجار والورود والثمار والجداول فقد كانت واثقة مما ترى، وتساءلت فما هذه الرسمات إذن....وفجأة صدمها جواب لم تكن حتى لتفكر فيه... إنَّها الجنة.

تقدمت من الدرج تريد النزول والتأكد، وما كادت تنسل على الدرجات الأولى حتى سمعت شخيراً قوياً، فارتعدت مذعورة وتجمدت، وأجالت نظرها في الباحة تبحث عن الشاخر، ورأته، كان مستلقياً على طراحة في الظل تحت

شجرة النـارنج. تجمـدت تتأملـه مـن مستديرة الـدرج. كـان مستلقياً في ثيابـه الملطخة بالأصباغ، ولحيته الهوشاء وجبينـه نـصف الأصـلع، وكرشـه الـصغيرة التي اندفعت من تحت قميصه.

أهذا هو الرجل إذن.. ولكن.. لم تفكـر في الرجـل قبـل الآن، فأبوهـا كـان الرجل الوحيد الذي تعرفه، وأمها حين تتحدث عن الرجـل كانـت تحـدث عـن رجل أحمق لا يعرف مصلحته ولا يخشى ربه، ولا يهمـه إلا إرضـاء شـهوته لا يختلف في ذلك عن كلاب الحارة التي تراهـا في الخريـف تطـارد أنثاهـا في ذلـة وعدوانية.

أهذا هو الرجـل إذن، فمـا الـذي أغـرى زوجـة شـهريار بخيانـة زوجهـا إذن...؟ ولم كان ذلك مع عبد زنخ الرائحة ولا شك.. وبعـد قليـل فكـرت. وهـل كان الرجل مرتبطاً دائماً بالزنخ؟ ولمَ لمْ يكن الآغا زنخ الرائحة؟

وبهدوء أزاحت الأسئلة كلها جانباً، وأزاحت المصري معهـا وانـسلّت إلى حيث الجنة كما أسمتها أول مرة.

هذه التسمية التي لاتعرف كيف أطلقتها، انطلقت معتمـدة علـى سـحرها الخاص لتصبح الاسم الذي ألفته لهذا النوع من الرسمات.

مشت على أقدامها حافيـة، ولكـنَّ حركـة مفاجئـة منـه أفزعتهـا فقفـزت كغزال صغير مختفية وراء شجيرة مرجان قريبة. رفعت رأسها متسللة تخـاف أن يفاجئها، ولكنه كان غارقاً في نومه العميق الشاخر. رفعت تينـة يابـسة ممـا تساقط عن شجرة التين الذكر، وقذفته بها، وراقبت انعكاسه. كان نائمـاً تمامـاً لم تفزعـه الحركـة ولا الـضربة ولا صـدى تقلـب التينـة الجافـة علـى الأرض، فاطمأنت. انتظرت قلـيلاً تنتظـر مفاجـأة منـه ولكنـه أبـداً لم يخـرج عـن نومـه وشخيره الخفيف.

فيما بعد وحين تفكر في مغامرتها هذه كانت تتساءل: كيف ارتكبت حماقة كهذه، وماذا لو استيقظ. وماذا لو هاجمها، وماذا لو ادَّعى فيما بعد أنها من تسلل إليه وأغراه، كانت حكايات ألف ليلة وليلة ما تزال نضرة في ذاكرتها، العلاقة الشائكة بين الرجل الأسود الزنخ والمرأة الضعيفة، بين الرجل الضعيف والمرأة المحتالة المغرية القوية، بين...وكانت تجيب: كنت طفلة لا تعرف الخوف وكيف تعرفه ولم تعرف الرجل في حماقاته وخياناته وضعفه وتجبره بعد...؟ وكان.. لم يكن الرجل، بل كان كتلة زنخة مندلقة الكرش أشبه بشحاذي الحارة، لا لم يكن فيه من الرجل الكثير..

مضت إلى الرسمات وأخذت تتأملها في اندهاش. كانت لا تشبه رسمة الضبع المكتملة والتي لم تكن موجودة في الباحة، فقد كانت الرسمات كلها لجداول شديدة الزرقة حتى النيلي، ولشجيرات شديدة الخضرة حتى لا تشبهها خضرة في أشجار الباحة المغبرة، وكانت الورود في حمرتها وصفرتها صارخة التكوين... لماذا كانت النساء... ومدت كفها إلى صدرها الممسوح لا.. لم يكن كأثداء هاته النسوة، أثداء ممتلئة بالحليب مغرية بالرضاعة... وأحسَّت بالحسرة ...إنها ليست كهاته النساء إذن.

نظرت إلى نصفهن الأسفل وكان بإمكانها الآن أن تراه، وفوجئت فقد كان نصفهن الأسفل جذوعاً ضئيلة لأشجار.. لماذا.. أين سيقانهن. أين أردافهن. أين أنوثتهن، ولكن المشهد كان صادماً فعلاً. الأنوثة الصارخة في الوجه والشفتين والعينين اللعوبين والثديين الضخمين القويين و... النصف الأسفل. كان الجذع المتقشر البني الأشبه ما يكون بجذع دالية، ولكن ما معنى هذا.. ما معنى هذا.

جمعت الصور بهدوء محاذر مقربة لها تريد صنع لوحة موحدة منها، ولكن الأطر كانت تفصل وتفشل الوحدة.

كانت قد اطمأنت إلى نومه العميق، فأخذت تقلّب في اللوحات، تبدِّل موضع هذه بتلك، ثم هذه بتلك تريد أن تخلق وحدة جامعة بينها، لكنها لم تستطع. نظرت إلى حيث زجاجات الأصباغ والفراشي. وفجأة فكرت: إذن فالأمر أمر ألوان لا تملكها وفراشي لم تجربها... إنها.. لهذا لم تستطع أن تجعل في غرفتها الحسون حسوناً ولا الشجرة شجرة، وفجأة قررت أن تسرق، فحملت عدداً من الزجاجات وعدداً من الفراشي وانسلّت بها عبر الخرق في الجدار الرقيق إلى بيتها.

نصبت قماشة أمامها كما رأت رسماته المعلقة، وقرَّرت أن تقلِّده، ولكن ما الذي سترسمه؟ فكرت بالحسون، وفكرت بشجرة النارنج أمامها في تمايز أوراقها الخضر عن ثمارها الصفر، وفكرت بالبحرة تدفق الماء المتحول إلى زبد أبيض وهو يندفع من الفوهة النافورة ولكنها لم ترض عن واحدة منها. وهجمت الفكرة: الجنة... ولكن كيف لها أن تعرف الجنة؟ وجاءها الجواب: وكيف عرف المصري الجنة إذن؟ ولكن....

انتصبت ثانية. تسللت إلى حيث الخرق في الجدار. تسللت على الطين المطبَّل في حذر حتى إذا ما وصلت إلى الدرابزين أطلّت تتأكد من نومه وجاءها الشخير مؤكداً نومه، فانسلّت إلى الدرج تسترق الخطوات، كان ما يزال على استلقاءته، ولولا تنفسه الثقيل وشخيره المتقطع لقالت إنه مات، فلم يكن في كرشه المندلق خارج شرواله، ولا في لحيته الطويلة المستلقية على الأرض أمامه ما يذكر بأنه رجل حي، وفجأة انتبهت: الجنة للنساء فقط. تذكرت أنَّ الرسمات كلها لم يكن فيها رسمة لرجل. لماذا؟ هل الجنة للنساء فقط، ولكن كيف تكون للنساء والرجل من رسمها. وقفزت الفكرة؛ إنها جنته هو. جنة من أشجار وأثمار ونساء....

تنهدت. ولم لا... انسلّت إلى الباحة، مشت على البلاط حافية، تأملت اللوحات، واختارت أذخرهن بالأشكال. كان فيها جدول وشجيرات وورود، وامرأتان ملتصقتان بالشجر. قالت: هذه تصلح.

حملتها ومضت إلى الدرج تمشي متقهقرة إلى الخلف، تخاف أن يلحظها السارقة، ولكنه كان غارقاً في نومة الإغماء...

رصفت اللوحة أمامها على الجدار، وقالت: ليس المصري بأمهر مني وليست أصابعه بأدقّ من أصابعي. سأرسم وألون كما رسم ولوّن.

انغمست في هوايتها الجديدة، ولم تكن تكترث بالاستعدادات الهائلة التي كانت أمها تصنعها للقيام بالحج، فلقد كانت نفيسة خانم من أوائل من استجاب لدعوة الوالي للنساء للحج، فلقد بدأت الاستعدادات ولم لا تستعد، وسيقوم الباشا وجنده بحراستهم حتى الحرم، ورأت الحجة رضية فرصتها تحين، فدعت مريداتها إلى الحج،وهكذا تشكل وفد من الحاجّات ربما لن يتكرر قبل عقود حين يقوم السلطان ببناء الخط الحديدي الذي سيخفف عن الحجاج والحاجات المشاقّ والنفقات وخوف التشليح والموت.

كانت تصنع جنتها المزقة على المنضة والكتان والخام وكل ما يتوفر لديها من قماش أبيض، ولكن جنتها لم تتخذ شكل الجنة بعد، فمازال الأخضر يمتزج بالوردي والأصفر، لم تستطع تنظيف ألوانها بعد، ومازالت النساء الخارجات من الماء والجذوع يبدين مضطربات الأحجام والقياسات، فكان عليها أن تتدرب على التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، وحين انتهى ما لديها من قماش أبيض كان يتخذ مناديل تلف الرأس والجذع، وحين انتهى القماش الذي كانت تفصّل منه الشلحات والستائر كانت الحيرة، فمن أين لها بقماش أبيض جديد لا تلفت في طلبه انتباه أمها إلى فسوقها الجديد.

كانت تلوب في البيت كالمجنونة. أصابعها تحكها وهي ترى أمها تراكم جرار القاورما، وأكياس الطحين، والبرغل، وظروف الزيت فقد كانت الرحلة طويلة ولابد لهن من طعام على الطريق. كانت ترى نظرات أمها اللائمة التي لم تغفر لأروى رفضها السفر معها للحج: فرصة لن تتكرر. صدقيني. ربما تموتين عدة ميتات قبل أن تحصلي على فرصة مماثلة. ولكنها منغمسة في فسوقها الجديد الذي لم يطلع عليه أحد حتى الآن كانت تعتذر وترفض، وأنها ما تزال صغيرة على حمل لقب الحاجَّة مما سيلزمها بفروض وعبادات ليست قادرة على القيام بها الآن، ولما رأت الأم وقوف الآغا معها شعرت أنها لن تستطيع الصراخ والعويل لترضخهما على عادتها، وكانت الحجة رضية قد أقنعتهن بالتسامح وطلب المغفرة، فلن تدري الواحدة إن كانت ترجع من تلك الأراضي البعيدة سالمة، أو أن يختار الله لهن السعادة فيستشهدن هناك، وكانت تشير بيدها في غموض إلى البعيد كمن يشير إلى الجنة.

كسبت أروى الجولة، ولكن ذلك كان قبل أن ينفد كل قماش أبيض لديها، وفجأة تحولت الحاجة إلى قماش أبيض إلى سعار، ولم يكن مسموحاً لها الخروج إلى الأسواق وحيدة، وحتى الآغا لم يكن يسمح لفتاة وحيدة أن تخرج إلى الأسواق وحيدة، ولماذا؟

كانت تعرف أنها لا تستطيع الاستعانة بعمتها للخروج إلى السوق، ولكن من يجرئ عمتها على القدوم لزيارتهم وأمها قد قطعت رجل كل امرأة أو قريبة عن البيت منذ أن انضمَّت إلى الحجة رضية، ومن يجرئها على الخروج إلى السوق ونساء الحجة ربما أفرغن السوق من كل قماش أبيض، فلقد احتاطت أمها ورفيقاتها لكل الطوارئ، فاشترين وأكثرن، وهكذا وجدت أروى نفسها مجبرة على السرقة للمرة الثانية، فتسللت إلى غرفة الضيوف التي تحولت إلى مخزن

لمؤنة السفر وثيابه، وحين رأت اللفات الكاملة للقماش الأبيض شعرت أنّ من حقها أن تأخذ منها حاجتها. أفلم تكن الأم تستعد لاصطحابها إلى الحج، أفلم تكن تستعد بشراء كل هذه الأثواب البيض لهما معاً؟ وإذن، فهي تستطيع أن تأخذ حصتها، و.... أخذتها، وعمدت خوفاً من مطاردة أمها للضائع والمفقود إلى إخفائها في سقيفة الحطب مستبقية بعض قطع تضع عليها جنتها.

* * *

- 16 -

حين أفاق برناردو تحت دفعات ولطمات الآغا الخفيفة لم يكن يدري أنه قد مضى عليه في نومته تلك ما يزيد على اليومين. نظر إلى جرة النبيذ فرآها مائلة على جنبها، وأدرك أنه قد قضى عليها، ولكن متى.

قال له الآغا: ظننتك متّ حين لم تستجب لقرعي على الباب.

فقال وهو يمسح اللعاب من جانب فمه: عمر الشقي بقي.

قال الآغا: قم فنظف نفسك، وحدثني عن هذه الكفريات التي تصنعها. وأشار إلى لوحات الشجر، والنساء المزروعات في الأرض.

نظر برناردو إلى ما أشار إليه الآغا، ولم يفهم. فما هذه القماشات التي رسم عليها أشجار ونساء وأطيار. قال: إيه اللي جاب الحاجات دي هنا؟ ونظر إليه الآغا مشدوهاً لسؤاله، ولكنه أدرك أن النوم ما يزال يذهله فدفعه ليغتسل ويعود.

مدّ على الأرض منديلاً كبيراً نشر عليه الخبز والزيتون والجبن وبيضاً مسلوقاً ما يزال ساخناً، كان يحاول التشاغل بالطعام، ولكن الخشبات تحمل أقمشة عليها أشجار ونساء مكشوفات الأثداء شدَّته، فقام إليها، وأخذ يتفحصها، وهزَّ رأسه: جميل. قالها رغم أنه يعرف أنه بقولته هذه يرتكب خطيئة لن تغفرها له زوجته لو سمعته فهي ستقيم الدنيا ولن تقعدها خاصة

وأنها لم تغفر له عدم مصاحبتها في رحلة الحج وعدم إجباره ابنتها على المضي معها في رحلة لن تعرف إن كانت ستختم بالسلامة أو بالشهادة.

كان يتأمل زرقة الماء الفاتنة وخضرة الشجر والشجيرات تلتمع بالنضارة، فتمتم: هل قرأ برناردو رسالة الغفران إذن؟

هذا السؤال الذي سأله الآغا لنفسه شارداً وكرَّره فيما بعد أمام برناردو الذي كان قد اغتسل، وغيّر بعضاً من ثيابه التي لوثها بالأصباغ صاحياً وبالقيء نائماً، ثم انقضَّ على الخبز والجبن والبيض انقضاض جائع لم يأكل منذ أيام، وكان الآغا يتأمله ويتساءل: أيمكن لزقّ الخمر هذا والنهم نهم الشحاذين. أيمكن أن يكون هو من ظنَّ في نفسه القدرة على هدم إمارات الأمراء والآغوات، وطرد الخوارنة من كنائسهم؟

وتجشأ برناردو جشأة قوية جعلت الآغا الظريف الرقيق حسن التربية الذي لم يعرف عنه تجشؤ أو حركة بذيئة، أو حتى أكل بالأصابع فعل البداة والفلاحين في ضياعه، وفعل الآغوات حين يستضافون في ضياعهم لدى المخاتير فيتخلون عن أناقتهم وظرفهم ويغمسون أكفَّهم وأصابعهم في المناسف، بل سمع عن واحد منهم أنه كان يدعو بالبصل مع الطعام، فيضرب البصلة بأسفل كفه أمام الفلاحين فيمزقها فعل عتاة الفلاحين لم يزوروا استانبول وحلب أو مصر، ولم يتخلقوا بالأخلاق الاستانبولية، وكان يقول حين يحدثونه عنهم: إنهم يبحثون عن الحب بين فلاحيهم ليقولوا إن الآغا مثلهم.

كان ينظر إليه وهو يجمع اللقمة تكفي لخمس لقم فيدسها في فمه، ويقضم فيرى بعض الطعام يخرج من شفتيه وهو يأكل. التفت إلى الآغا وقال: لو عرفت أنك جاي كنت قلت لك تجب لنا جرة من النبيذ ده. ده كان لذيذ.

وعبس الآغا قليلاً، فلقد كانت تجربة حمل الجرة من السوق إلى البيت تجربة غير كريمة، ولم يكن بالإمكان تكليف خادم أو عتال بحملها فيفتضح، وقد يصل الخبر إلى الحجي أو الآغاية فتصرخ كالمجنونة: خمر؟ في بيتي؟ بيتي أنا؟ يحملها زوجي؟ أعوذ بالله.

ولكنه لم يعلق على طلب برناردو، بل قام ثانية إلى الرسمات يتأملها: أنت تحيرني. أنت نقاش، أو رجل كان يريد هدم أوروبا، فهزمته، وكان يريد صنع جنة في مصر، فهزمته مصر.. من أنت؟

ولكن برناردو الجائع لم يرِّد، وحين رفع عينيه إلى الآغا، ورأى السؤال ما يزال على وجهه حاول أن يقول، ولكنه لم يقل إلا صوتاً مضطرباً باللقمة تملأ فمه والنثرات تنتثر منه.

اقترب الآغا من الرسمة ورأى المرأة الجميلة ونصفها الأسفل من خشب لم يستطع تمييزه، ولكن الجو العام، الخضرة الفاقعة، والصفرة الزاهية، والحمرة الصارخة نقلته دون رغبة منه إلى القول: أهذه هي الجنة إذن؟ ولكنه حين أحدّ النظر اكتشف أنها ليست مشمولة بالإيمان والتقى والتسليم بل كان فيها في الآن نفسه شيء من سحر خفيف، من أين جاء هذا الإحساس. لا يدري، ولكنه أحسه. ترى هل جاءه من معرفته بإلحاد برناردو. وتذكر، فاقترب منه وجثا على ركبتيه ينتظر ابتلاعه اللقمة، وحين رأى كفه تمتد لحمل لقمة أخرى أمسك بها بقوة يمنعه، فالتفت برناردو متسائلاً وعندئذ سمعه يقول شبه صارخ: أقرأت رسالة الغفران؟

كان السؤال جريئاً في حد ذاته، ولولا أنّ الآغا يعرف أن مخاطبه أفرنجي غريب وأنه من تلك البلاد البعيدة التي سمَّاها له مرة بنابولي لما تجرأ على السؤال، فهذا الكتاب لم يكن متاحاً للعامة في الشام نفسها، وكان شيخه قد

حدثه حين كان صبياً أنَّ ملاحدة الإسلام ثلاثة وعدّ منهم هذا المعري الذي وضع هذا الكتاب..، فكيف يمكن لأي كان أن يقرأها.

حدَّق برناردو بالآغا، وحدَّق الآغا ببرناردو ينتظر الجواب، ولكن برناردو أهمل الرد، وعاد إلى لقمه الكبيرة يدسها في فمه، ثم تحركت شهوته، فانثنى على الأرض لا يريد القيام، وشدّ الجرة إليه معدلاً لها حتى لا ينسكب ما فيها من نبيذ، ثم رفعها عالياً وأمالها فوق فمه المفتوح، ولكنها لم تعطه إلا بضع قطرات كانت قد ترسبت في قاعها منذ شربها.

لم يستسلم الآغا، بل قام إلى اللوحة ذات المرأتين الجميلتين حتى الفتنة، وقد غطس أسفلهما في البني الخشبي، ثم حملها إلى برناردو: انظر. لا أعتقد أنك عرفت مثل هاتين الحوريتين.. فهزَّ برناردو رأسه نافياً وهو يتلمظ قطرات النبيذ في فمه لم يبتلعها، فإذن.. هل قرأت رسالة الغفران؟ ونظر إليه برناردو محدقاً. مندهشاً من تكرار سؤاله له: يعني إيه رسالة الغفران؟

وتحولت الجلسة للمرة الأولى إلى محاضرة من طرف واحد، فبعد المحاضرات الطويلة يحدث فيها برناردو عن باكونين والديمقراطية القصوى بإسقاط الملكية، والكونتات، والدوقات، والكاردينالات والأساقفة، وبعد المحاضرات الطويلة يحدث فيها برناردو الآغا عن العقد الاجتماعي، وعن روسو، وفولتير، والماغناكارتا حتى ليرتبك عالم الآغا تماماً، فليس لديه ما يرد به على هذه المحاولات لإخراج البذرة من البطيخة وتحرير الفرد من الجماعة. بعد كل هذه المحاضرات التي جعلت الآغا يغامر بسلامه الخاص وسلامه في المدينة، وسلامه مع الجيران، ويقبل بإخفاء هذا الكافر وحمايته، وبهذا الذي تطارده قارتان فلا يجد ملجأ إلا لدى هذا الآغا الذي استنقذ درر الكتب من مزادات المسكية وسوق الوراقين، يستنقذها ويبيع قطعة أرض إثر قطعة أرض

ويضخم مكتبة لا يعرف ما الذي سيفيد منها في مدينة طردت إبراهيم باشا، واسترجعت السلطان، وقررت أنها قد حصلت أخيراً على سعادتها التي استسلمت لها منذ قرون.

بعد هذه المحاضرات التي زلزلت سلام الآغا الذي توصل إليه بعد قراءاته الطويلة حين صنع معادلة مريحة بين الماضي والحاضر هاهو يجد نفسه أمام موقف لم يعدّ نفسه له، فهو من كان يسمي نفسه واحداً من المتنورين الذين قرأوا ما ترك الفرنسيون ونابليون وراءهم في مصر، وهو من قرأ ما كتب الطهطاوي عن رحلته إلى باريز وما كتب علي باشا مبارك عن فرنسا وأسباب نهوضها، بل وحاول قراءة الكتاب المطول الذي وضعه العلماء الفرنسيون أثناء احتلالهم مصر وسمّوه وصف مصر، فسمى نفسه واحداً من رجال الثورة، وكان قد رأى رجالات الدولة العثمانية وأصدقاءهم في الشام بعد طرد إبراهيم باشا وعودة الوالي إلى الشام، فأحس بانتصارهم عليه وهزيمته وكأن الهزيمة كانت شخصية، وقد كانت بشكل ما شخصية، فانقلاب نفيسة خانم عليه بعد وفاة ولديه في معركة قونيه وتحميله وزر مقتلهما ثم اكتشافها أنه قد أضاع ثروته على هذه الكفريات من ورق، والتي ملأ بها غرفة الصبيين، وغرفة الضيوف، وصار يستقبل إن استقبل الضيوف في الغرفة التي سماها المكتبة لتكون شاهداً على فضيحتها فيه. وكانت تصرخ، فقد تعلمت الصراخ بعد انكساره أمامها لسداد دين لم يستطع سداده، كانت تصرخ: لولا الكفر الذي رجعت به من مصر، ولولا كتب السحر هذه، وتشير إلى الكتب المملوءة بخربشات لا تعرفها، هذه الكتب المليئة بالتعزيمات، ثم تهدئ نفسها قليلاً: ما الذي أفدته منها. هه. هل استخرجت كنزاً واحداً حتى الآن؟ هل استجاب الجن لطلب واحد من

طلباتك؟ ثم تنفجر صارخة: ما الذي أفدته؟ ثم تكاد يغمى عليها حين تضيف منكسرة: إلا أن أضعت الصبيين، وتختنق بالبكاء: وعاصيين!

وكان يمكن لها أن تضع على الجرح ملحاً كما يقولون، وتتشارك مع الآغا في حزنها لو أنه تاب، وأناب، وانضم إلى الحلقات التي نشرها رجال السلطان في الشام ليتوب الفاسقون عن فسقهم، ويعودوا إلى الجنة التي أخرجهم منها ذلك الأرناؤوطي صديق الإفرنج، ولكنه على العكس من ذلك كان يسخر من هؤلاء المتخشبين المتحنطين كما كان يسميهم، والذين ظنُّوا أن الزمن قد انقلب، وأنَّ سنوات دخول إبراهيم باشا ورجاله ومستشاريه وقوانينه وزراعاته الجديدة كلها قد آن الأوان لمحوها، وكأن لم تكن، ولكنه كان يتمتم لنفسه مصراً: كانت ووجدت، وكانت وسترجع.

لكن الأيام تمضي وأصدقاؤه المتنورون يتراجعون ويتوبون، والأيام تمر حتى ليكاد يصبح وحيداً، وفجأة يأتيه هذا الإفرنجي الموصَّى به من صديقه الصيدناوي يرجوه إيواءه وحمايته، ولكن... أن يرسم؟ طيب — قلنا — حين رسم الضبع نزوة، ولن يعرف بها أحد، أما أن يتحالف مع رسالة الغفران ويرسم الجنة، ويرسم الحور العين اللواتي لم يجرؤ مخلوق على رسمهن!!

يعني ايه رسالة الغفران؟

كان الآغا يعرف أن برناردو يعرف العامية المصرية، وتساءل بسرعة: وهل تكفي العامية المصرية لمعرفة ما رسالة الغفران، وبهدوء وجدها الفرصة يستعيد فيها موقع المتنور المثقف أمام برناردو الذي أذلَّه لزمن طويل وهو يحدثه عن مغامرات أوروبا لتحطيم نير السلطان الذي يسمونه الإمبراطور والملك، وطرد الخوارنة والبابا من تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، وكان وهو يسمعه يذوب من الخجل والحسد، فكيف استطاعوا ذلك، ولم

نستطعه، وحتى حين حاول إبراهيم باشا فعل ذلك مع أصدقائه الفرنسيين الذين هربوا من أوروبا بعد عودة السلطان الفرنسي ورجاله، فهربوا إلى مصر وجاؤوا مع إبراهيم باشا إلى الشام، وحتى حين جاءنا الحظ يسعى على قدمين كنَّا من الحماقة أن نرفضه ونقوم بحربه وكأنه العدو.

ثم يتنهد ويتذكر أنهم في أوروبا فعلوا الشيء نفسه، أفلم يطاردوا إبراهيم الكورسيكي الذي كان يسمى نابليون. أفلم يقاتلوه ويهزموه، ثم ينفوه إلى جزيرة يموت فيها. وكان حين وصل إلى هذه النتيجة بعد سماعه محاضرات برناردو قد اعتبر نفسه أخا برناردو والمهزوم هزيمته، ولكنه المحظوظ في أنه لم يهاجر ولم يهرب، ولم يطارد بعد، وحين كان يصل إلى هذا التفسير كان يحس ببعض الخزي فهو لم يطارد لأنه لم يحارب، ليس هذا فقط بل لأنه التزم بالتقية وهاهو يصلي الجمعة مع أهل الحارة، فيركع مع الراكعين ويسجد مع الساجدين وحين يدعو الخطيب للسلطان بالنصر يقول آمين مع بقية المصلين، وكم أحسَّ بالخجل حين وجد نفسه والجموع تسوقه في اندفاعها ليجد نفسه أمام الخطيب الوافد من استانبول والذي يتدافع الجميع لتقبيل يده، فيضطرَّ إلى تقبيل يده.. ولم يحدث برناردو عن هذا، بل احتفظ به سره الشخصي الذي لا يجوز أن يطلع عليه المتنورون الذين ذابوا، وبرناردو شقيقه الأوروبي ساكن بيت أمه.

كان يعرف أنَّ برناردو الذي يتظاهر بالأكل كان في انتظار جوابه عن سؤال ماذا يعني برسالة الغفران.

وبهدوء أخذ يحدثه عن الكتاب الذي وضعه شاعر أعمى يحدث عن رحلة إلى السماء حيث الحساب والعقاب، وهناك يلتقي بالشعراء العرب منذ الجاهلية فيأخذ في مجادلتهم وتخطئتهم وتصويبهم، وكيف دخلوا الجنة وبأيِّ

شعر، ولم دخل البعض الجحيم وبأيِّ شعر؟ كان الآغا مستغرقاً في حديث كأنه المحفوظات يرددها، وحين كان يتحدث لم يلحظ في البدء أنّ برناردو قد توقف عن الأكل وأنه كان ينصت في اهتمام.

وفجأة وكأنه فقد اهتمامه في الحديث، فقد قشر بيضة مسلوقة وأخذ يمضغها في انشغال، وبردت همة الآغا لانصراف برناردو عنه، ثم... صمت وبرناردو يلتقط حبتي زيتون يزيل بهما طعم البيضة المسلوقة، ولاحظ برناردو صمت الآغا، فالتفت إليه ورأى على وجهه الجرح. لقد جرحه بانصرافه عنه، وفجأة قالها: آغا. أنت متأكد أنت بيتكلم عن واحد شامي اسمه المعري.

وتحمس الآغا: طبعاً. طبعاً، والكتاب لديّ في المكتبة.

وقال برناردو: غريب.

وقال الآغا مندهشاً: لماذا؟

وقال برناردو: أنا كنت بافكر أنه حكايات لوسيان ما وصلتش للعرب.. لاكن أنت بيقول أنها وصلت للعرب وللمسلمين.

وضيّق الآغا عينيه مستفهماً: لوسيان.. ومن هو لوسيان؟

وكان على برناردو أن يحدث الآغا عن تلك الفترة الذهبية التي عاشتها البشرية – وكان هذا ما يؤمن به برناردو إيماناً كاملاً – وأكمل: اختلاط الأعراق، اختلاط الثقافات، السخرية الجايه من معرفة أنه الإنسان العادي وقبل المفكر مؤمن بأنه الحقيقة نسبية. وليست مطلقة..

لاحظ برناردو عدم ارتياح الآغا لهذا الحديث وانصرافه بعينيه عنه، ولم يرد الإمعان في مضايقته فأكمل: على كل.. الإسلام كان منطقي لما عمل شرط الإيمان بالإسلام، الإيمان بكتب الله، وبُرسل الله... يعني الإسلام بالحالة دي آمن بأن الحقيقة نسبية وموجودة عند الجميع.. كل واحد عنده حتة.

كانت لهجة برناردو مصالحة، ولم يكن الآغا راغباً في الشجار حقاً، فتناول حبة تمر مما كان على المنديل المفروش، ولكن برناردو لم يترك الأمر يمرُّ فأكمل: يعني ما سألتنيش عن لوسيان؟

- فعلاً. من هو لوسيان هذا؟
- أولاً ده كاتب ساب لنا يمكن ثمانين كتاب وأزود.
- عجيب.
- لا. والغريب أنه ازاي الراجل بتاعكم اللي اسمه المعري وصل للكتاب بتاعه
- أي كتاب؟ ثم... أنت لم تقل لي من هو لوسيان هذا؟
- أنا سبق وقلت لك أنه الناس بيعيشوا أدوار.
- ماذا تعني بأدوار.
- يعني دور وحشي ودور إنساني وبعدين الإنساني يودي لوحشي.
- وماذا عن الآن.
- الدور ده كان سريع انتقل مباشرة من الإنساني للوحشي، والا بتسمي إيه ميترنيخ يجي بعد الثورة العظيمة، وفيتوريو ييجي بعد ما ضحينا بشبابنا وحياتنا، وأراد أن يقول ريناتا، ولكنه كتمها وانتقل يكمل: وبعد إبراهيم باشا جالكم السلطان تاني والوالي بتاعه. وتنهد – يعني – قالها وكأنه لا يريد أن يكمل.

ولكن الآغا لم يتركه ينسحب: لم تحدثني عن لوسيان.

فقال برناردو في نزق: يوناني كان من بلد عندكم اسمها سميساط. والا أقول لك. لأ.ده ما كانش يوناني.

وقال الآغا: فما كان إذن؟ روماني؟

وقال برناردو يستجمع أفكاره: لا. لا.. أنا باحاول أفتكر صح.. لا. ده كان سوري.

فرد الآغا ساخراً: سوري... ما الذي تقوله؟

وقال برناردو مؤكداً: لا. ده كان سوري. لأنه عمل كتاب ما حدش عمل زيه. أصلاً ماكانش ممكن لغيره يكتبه. الكتاب ده كان اسمه الربة السورية... وتنهد ثانية مفكراً: ده الكتاب الوحيد بالعالم اللي بيتكلم عن الأرباب السورية قبل الأديان التوحيدية.

ورفع الآغا كتفيه: لا. هذا ليس بدليل، فمؤلفو كتاب وصف مصر لم يكونوا مصريين.

ورفع برناردو حاجبيه في إعجاب: برافو. استدلال صح. بس لو الناس اللي ألفوا كتاب وصف مصر كانوا بيقولوا وبيعيدوا في كل كتاب إحنا يا مصريين، وإحنا ما نعرفش إنهم فرنسيين يبقى لازم نسدق أنهم مصريين.

وقال الآغا: وهو. أكان يقول هذا؟

وقال برناردو: طبعاً وكان في كل كتاب يكتبه يصر على إنه يقول إحنا يا سوريين.

وصمت الآغا فقد كانت هذه المعلومة شديدة الجدّة، ليس هذا فحسب، بل كانت مناقضة لكل ما تعلمه من تاريخ. إذ كان كل تاريخ قرأه يقف عند قدوم خالد والمسلمين إلى الشام وكأن سورية لم يكن لها وجود قبل هذا... كانت الأفكار تهاجمه، وهو يتساءل صامتاً: أعوذ بالله، أيمكن لهذا أن يكون صحيحاً.

وكان برناردو يكمل والآغا نصف منتبه فحدثه عن صعود لوسيان إلى السماء ومقابلته للشعراء والحكماء والفلاسفة الماضين وعن محاورته لهم، وعن اتفاقه مع البعض واختلافه مع البعض.

كان الآغا يسمع وفيه شيء ينتفض بالرفض، فلا يمكن لهذا الإفرنجي الهارب مهزوماً أن يهشم له معارفه ويجعل من المعري ناقلاً لتخرصات وأفكار الآخرين. ولكن برناردو اعترض بقسوة: لا. الراجل بتاعكم ما كانش ناقل أبداً. ده كان مجرد وارث، تماماً زي ابن بلدنا دانتي اللي ورث لوسيان كمان.

وصرخ الآغا محتجاً: كيف يرث المعري العربي رجلاً كتب باليونانية وقبل ربما سبع مئة سنة.

وقال برناردو: أنت نسيت أن الراجل بتاعكم سوري، وأنه البلد بتاعته كان اسمها إيه؟

- المعرة.
- ودي تبعد كام عن أنطاكية؟
- ربما أقل من مئة كيلو متر.
- طيب. في الزمن دوكها الزمن ما كانش بيجري جري الأيام دي، ومية كيلو متر ما كانتش المسافة اللي بتبعد ثقافتين عن بعض.

كان الآغا قد كره كل هذا الحديث، كرهه ورفضه، ولكنه لم يكن لديه ما يهزم به هذا الإفرنجي المتعجرف، فقام إلى الرسمة، وأشار إلى النساء صارخات الجمال وقد تحول نصفهن الأسفل إلى ما يشبه جذع الشجرة فقال: وهذا. وهذا... هل ستقول لي إن هذه الرسمة التي وضعتها وأنت سكران قد استعرتها أيضاً من هذا الذي تسميه – وأشار بيده في سخرية – لوسيان.

فقال برناردو: صح.

ولكن الآغا أضاف في حدّة وهو يشير إلى الرسمة: بل هذا من ألف ليلة وليلة!

وقال برناردو رافعاً حاجبيه: من ألف ليلة؟ ده كلام مثير للاهتمام كمان.

وأضاف الآغا في انتصار وكأنه يقرأ محفوظات: طبعاً. حين وصلوا إلى بلاد واق الواق وجدوا هناك أشجاراً تحمل ثماراً من نساء، وفي جزر أخرى أشجاراً تحمل ثماراً من رجال. ثم أكمل انتصاره: وحتى لا تدعي أنّ جماعة ألف ليلة ورثوها – وقالها في تأكيد – من هذا اللوسيان.

وقال برناردو في اهتمام يستحثه على الإكمال: طيب.

فأكمل الآغا مستدعياً شتات ذاكرته: وحين وصلوا إلى الجزيرة وجدوا هذه الأشجار تصيح كل صباح: واق واق. سبحان الملك الخلاق – يعني كانوا مسلمين. كان يقول جمله الأخيرة في خطابية غاضبة، الأمر الذي استدعى من برناردو الالتفاف حول الأمر، فهو ليس في مجال الشجار والنصر على مضيفه، فهز رأسه: أنا موش فاهم أنت زعلان ليه. أنا كل اللي باحاوله إني أرجع الفضل بتاعكم ليكم.

وقال الآغا في ضعف: بجعل كل ما قاله جماعتنا مستعاراً من ذلك اليوناني.

فقال برناردو في حدة: ده ما كانش يوناني. ما كانش يوناني. سوري. سوري. من جدودكم.

وصمت الآغا حائراً لا يعرف التمييز بين هذا الجد الجديد لوسيان والجد الأحدث المعري أو الجد مؤلف ألف ليلة.

ولكن برناردو لم يكتف بكل هذه الحيرات التي أربكت الآغا إذ تابع: برضه حكاية واق الواق اللي حكيتها من شوية كمان من حكايات لوسيان، وده حيخلينا نعرف أنه الشرق بتاعكو ده ما نسيش. صدقني إنه ما نسيش.

وانتفض الآغا يريد الهرب من هذا الحوار، ولكن برناردو ضحك مصالحاً وشدَّه ليعيده إلى الجلوس: موش لازم نهرب من نفسنا يا آغا. موش لازم...خلينا نبص في المراية كويس.

- 17 -

لم تتحرك عضلة واحدة في وجه الحجي، أما الرعب والانزعاج اللذان كانا على وجه الشاويش فلم يؤثرا في الحجي. كان الشاويش ينتظر من الحجي كل الأسئلة، فالإنسان لا يجد كل يوم أمامه جثة رضيع بثلاثة أذرع، كان ينتظر سؤال: أين وجدته؟ كيف وجدته؟ من مزّقه على هذه الصورة؟ من أهله؟ أأنت من مزقه؟ ولكن الحجي خذله في عدم طرح أي من هذه الأسئلة، بل اكتفى بسؤال: لماذا جئت به إلى هنا؟

الهدوء المنزعج على وجه الحجي انتقل إلى وجه الشاويش الذي كان انزعاجه الفظيع ليس فقط لدفن هذا الرضيع ذي الأذرع الثلاثة على حافة المقبرة، وتغطيته كما اكتشف بقشرة رقيقة من تراب وكأن الغطاء دعوة للضباع، كان عثوره على الطفل نصف المكشوف لم يؤكل ولم يعضّ، ولم ينبش من تحت التراب إجابة على أسئلة كثيرة. فقد كانت الضباع تزور عادة المقبرة، ولكن بشكل متقطع في الشتاء القارص حيث لا طعام يؤكل إلا هذه الموائد المجانية المغطاة ببعض تراب، أما وكما اكتشف منذ كلفوه بحراسة قبر العريس لم تفرح به عروسه، فقد صارت الضباع زبوناً مداوماً لا ينقطع، وكان السؤال يلاحقه طيلة طريق العودة: لماذا؟ كيف..؟ من يقتل ويمزق الرضعاء؟ و...أخيراً برز إلى السطح السؤال المتخفي وراء كل هذه الأسئلة وهو: لماذا كثر هؤلاء الرضعاء العجبة. ومن يأتي بهم إلى مقبرة كفرسوسة، فمن الواضح من ازدياد عددهم

الكبير، ومن توالي دفنهم أنهم يجلبون من كل أنحاء المدينة، بل ومن القرى المحيطة بها إلى هذه المقبرة التي دربت الضباع على القدوم إليها، فالوجبة جاهزة. وإذن؟.. ربما كان أهل العريس على حق حين استعانوا به مع الأجر العالي لحماية جثة عريسهم، فلقد كان الجميع يعرفون أن هذه المقبرة قد صارت مقصداً للضباع.

كان الشاويش يحدِّق في الجثة الضئيلة محزوزة الرأس والذراع الضئيلة الناتئة من إبط الذراع اليمنى تزاحمها. كان يحدِّق مسحوراً، فهو حين تعثر بها أثناء طوافه في المقبرة ونثره البارود لم يفاجأ كثيراً فقد تعثر بهذه اللقى العجيبة أكثر من مرة. ولم يجرؤ على حملها إلى خديجة يتشكى لها من هذا القدر الظالم. نحن على استعداد لفقد ذراع والحصول على طفل يسلي وحدتنا ويعيد إلينا احترام جيران ينظرون إلى الزوجين العقيمين نظرتهم إلى المحرومين من البركة.

ثم...هؤلاء الأهل الفاسقون، المجرمون، القتلة يبطرون ويقتلون ويرمون فلذات أكبادهم للضباع.

لم يجرؤ على حمل أي من هذه البقايا لخديجة فقد كان يعرف انفجارات البكاء الذي لن تستطيع له إيقافاً والذي ستنغمس فيه. كان يعرف الخدَّين اللذين سيصبحان كتلة دموية بتأثير اللطم والبكاء المكتوم. فقد كانت شديدة الحرص على ألا تشمت بها أحداً من الجيران الذين كانوا ينتظرون انهيارها أخيراً، ولكنها كانت تردِّد بينها وبين نفسها: عائلتنا لم تعرف الطلاق أبداً، ونسواننا اعتدن على كبس الملح على الجرح والصبر على الزوج الخائن، والزوج المزواج، والزوج اللئيم، والزوج الضارب، فلابد له أخيراً من أن يكسر الزمان حدته ولؤمه وشهوته للنساء الأخريات وأن يعود إلى حضني، وكنّ على حق،

وهذا ما جعل الرجال يقبلون بكل شروط الأهل لدى الزواج، فالزوجة من هذه العائلة لا تخون، ولا تعصي، ولا تتمرد. بل هي حين قبلت بالزواج من هذا الرجل، فقد قبلت بقدرها وحظها أيضاً إلى الأبد.

لم يجرؤ على حمل أي من هذه البقايا إلى خديجة فقد علّمته سنوات الوحدة واللحاق بإبراهيم باشا من بلد إلى بلد وحتى بيروت، علمته كثيراً من الطيبة والحنان وكان بعد اكتشافه عجزه عن إحبالها قد انكسر شيء فيه من الداخل، انكسر حتى صار لا يجرؤ على مقاربتها خوف العجز والخزي، وكانت معرفته بأنه لا يحبل قد جعلته منقبضاً حزيناً حين يدخل الفراش معها. بل وصل به الأمر إلى وضع لم يعد يجرؤ فيه حتى على الشكوى مما يعاني لأحد. كان إذا دخل الفراش معها، وأراد مقاربتها وأخذ بالانتصاب يشعر بمئات الأشواك تنتشر في عضوه، وكان الألم لا يتوقف إلا بعد الابتعاد عنها، وكانت قد عرفت حين رأت فيه هذه الأعراض أنَّ الشاويش مسحور وأنّ هناك من لا يريد لهما الإنجاب فربطهما، وكان هذا ما جعلها توافق في سعادة على مضيِّه إلى المقبرة لحراسة جثة العريس لم تفرح به عروسه، فلعله يعثر على السحر، وكانت قد همست له بهذه الأمنية على خجل، ولكنه... لم يعثر على السحر، بل عثر على هذه الأشلاء، وكأنها انتقام شخصي منه، وهو من خاض في الجثث وعانى من تنظيف أحذيته من الدماء الجافة عليها قبل أن يصبح الباش شاويش ويصبح من حقه تكليف واحد من الجنود بمهمة التنظيف.

كان يعمد بعد تفحص الأشلاء الضئيلة إلى دفنها عميقاً حتى يحرم الضباع من الوصول إليها، وكان دفنها العميق يهدئ غضبه، وحرقته وتشوقه إلى طفل يضمه إلى قلبه.. أما هذه المرة فقد كانت الأشلاء مكتملة لا تنقص إلا الرأس الذي حُزَّ ربما لتضليل العاثر عليه عن هوّيته والساقين؟.. لماذا الساقان، لماذا بُترا؟

وكرّر الحجي فاحّاً: لماذا جئت به إلى هنا؟

كان وجهه جافاً مُديناً حتى خاف الشاويش أن يتهمه الحجي بقتل الطفل، وكان الكثيرون سيصدقونه. ولم لا يصدقونه، وهو الحجي وصاحب المجلس في الجامع الأموي.. وهو؟ من هو؟.. مجرد شاويش حصل على لقبه من المصري العدو، فهو ليس حتى جندياً عثمانياً، ولم يطلب الوالي ضمّه إلى الجيش الجديد كما فعل مع الملازمين والضباط الذين استعيدوا إلى الخدمة مع جيش السلطنة حسب الاتفاقية.

حاول الشاويش الإجابة على سؤال الحجي، ولكن لم يكن لديه جواب وهو لا يعرف لم جاء به إلى الحجي؟ ما الذي أراده من حمل هذا الجسم الصغير الشاحب محزوز الرأس منزوع الساقين؟ أكان يريد إرعاب الحجي؟ هاهو لم يرتعب. أراد أن يبكي على حرمانه وخديجة حتى من هذا الطفل ولو بأذرع ثلاثة، وإذن فلم جاء به إلى الحجي، وبهدوء أخذت الفكرة تتسرب إلى وعيه. الحجي صاحب المجلس في الجامع الأموي هو الأعلم في المدينة.. ألا يجب أن يكون لديه الجواب. أليس هو من يحمل كل الإجابات. أليست فتاواه ما تحلُّ الدم، وتحرِم الزوجة؟ أليس....

قال في ضعف: أردت... الجواب.

وقال الحجي في فحيح كأنه الهمس: الجواب عماذا؟

وبضعف أقرب إلى البكاء، بضعف فيه كل براءة الطفل أمام أبيه عند لحظة المكاشفة. أخذ يفتح قلباً لم يجرؤ يوماً على فتحه أمام أحد. تحدث عن شوقه لطفل، أي طفل ولو كان معاقاً، ولكن... الله لم يهب ولم يسمح. تحدث عن انهيار خديجة الداخلي الذي لا يعرفه سواه. ولكنها وهي ابنة العائلة المتكبرة التي لا تعترف بضعف أو عوز لم تعترف يوماً أنها مشتاقة لطفل يمكن لها أن

تضحي بذراع أو بساق، أو بعشر سنوات من عمرها وتضمه إلى صدرها، ولكن...
الله لم يهب ولم يسمح. تحدث عن مضايقة الناس له بعد عودته من مغامرته مع الباشا المصري، وعن تهربهم منه وخوفهم منه، وعجزه عن الحصول على عمل يتناسب مع سنه ومركزه، ولكن لا عمل. تحدث عن خجله أمام خديجة وأمها وهو يبيع أشياءه، الهدايا واللقى التي حملها من الحرب وهي النصيب الشرعي الذي كان الباشا المصري يهبه لجنوده. لقد بعتها.

وتردد قبل أن يقول:...كلها. ولكن... الطفل لم يأت، والعمل لم يتح. والأشياء حتى ما لا قيمة حقيقية له كوشاح امرأة مطرز وربما بلي من أحد جوانبه، أو شال ماتزال رائحة من لبسه قبل سنوات عالقة به.. وتمتم: بعتها كلها...

وحين... أضاف.. نفدت حتى القروش التي دفعها لي الوالي في مقابل سنوات الانتظار، حتى هذه القروش نفدت.. وفجأة يأتيني أهل العريس الميت... واعتصره بكاء جاف لم يجرؤ على مواجهة الحجي به، كان الحجي يراقبه بعيني بومة.. وبرود قلب سمكة.. كان لا يريد تفهم أحزان هذا العلج يجلس أمامه... قال:..مقبرة..وقبر طري.... وتحد لحماية القبر من الضباع.

وفحّ الحجي: وحميته؟

وتمتم الشاويش: ولكن ما لا أفهمه ولا أفهمه هو هذه.

وأشار إلى كتلة اللحم البيضاء في المنديل المفروش على الأرض.

وكرر الحجي فحيحه: أول مرة؟

وانفجر الشاويش: بل... لا .. لا أعرف العدد.. كنت أتعثر بها وقد نبشتها الضبع، وأتعثر بها وقد أكلت نصفها الضبع، وأتعثر بها وقد حملت بعيداً عن القبور وسقطت تحت صرخاتي من فمها على أمل العودة إليها بعد

انصرافي.. أنا لا أفهم.. أكل المقابر على هذه الحالـة..؟ ثـم تمالـك نفسه: ولمـاذا يدفنونهم خارج المقبرة. ولماذا يدفنونهم تحـت قـشرة رقيقـة مـن تـراب، ولم لا يعمقون الحفر حتى لا تصل إليها الضباع.

وتنفس الحجي عميقاً. كان لديه الكثير من الكـلام، وكـان لابـد مـن قولـه لهذا الذي خرج يوماً للحرب مع الفاسق الأرناؤوطي ضد سلطان الزمـان، ولكـن صوت القباقيب تزحف على الطريق في طريقها إلى الجامع لـصلاة الفجـر جعلتـه يكتم ما أراد قوله، فقال: قم وعد بهذا – وأشار إلى المنديل يضم جـذع الطفـل – فادفنه حيث وجدته.. فلا يجوز أن يتوه أهلـه عنـه إن قـصدوا زيارتـه، وربمـا كانت لديَّ إجابات كثيرة ستسمعها في الليالي القادمة.

- 18 -

كانت أمام تجربة لم تخطر لها ببال أبداً، تجربة لم تعرفها العائلة ولا الحارة من قبل. نسبة الأنف إلى العينين، إلى الجبين والأنف. كانت تجربة الألوان ولكنها وهي نساجة البسط المحترفة والتي كانت حين تنقصها الخيطان الملونة تقوم بصبغها في المنزل، فهناك الفوة، وهناك صدأ الحديد وهناك منقوع قشر الرمان، وهناك مغلي قشر البصل، وهناك مغلي قشر الجوز الأخضر، كانت تعرف صناعة الألوان، وطريقة إعدادها، ولكنها كانت ألواناً تصنع مع الماء ثم تنقع الخيوط الصوفية فيها، فتصطبغ، أما هذه.. لا.. كانت ألواناً لم تعرفها من قبل لذا فقد سرقتها وهي ترجو الله ألا يكتشف سرقتها، وكان عليها أن تتعلم صنعها.. ولكن... هذه الفرشاة اللعينة كيف يمكن إخضاعها لتؤدي الفكرة في الرأس، الفكرة التي تراها العين على اللوحة المسروقة.

وجدت الحل، ولكنه كان حلاً مسرفاً، حلاً قائماً على تجزئة الموضوع كما علّمتها أمها صغيرة وقبل أن تسمح لها بصناعة بساطها الخاص. كانت تعطيها الخيوط الملونة والسداة الجاهزة وتطلب منها أن تصنع عدداً لا نهائياً من المسدسات وأن تفرق بينها بالعقد البيض.. كانت تتركها تصنع مسدسات إثر مسدسات بلا نهاية، وحين أدركت أنها قد أتقنت المسدسات طلبت منها تصغيرها بالإقلال من عدد العقد، فتنقص عقدة إثر عقدة حتى صار بإمكانها أن تصنع مسدسات بعدد قليل جداً من العقد، ثم نقلتها إلى المربعات، فالمثمنات.

كان ذلك درساً مفيداً، وكان عليها إتقانه الآن، وهكذا جزأت وجه المرأة الجميلة إلى العينين وما بينهما من الأنف. رسمتهما ورسمتهما وكرَّرت وأعادت.. نسيت المصري، ونسيت الإعداد للحج، ونسيت صوت الطباخات يعددن طعام الحج الجاف من مربيَّات، ولحم مقلي، ومملحات، وخضار ميبسة، وجرار زيتون وجرار الجميد ينقعنه عند الحاجة بالماء فيتحول إلى لبن. والدقيق... الكثير من الدقيق.. كانت وصايا الحجة واضحة، فالرحلة طويلة وسيحتجن إلى كل شيء، والملابس؟ الكثير من السراويل البيض، والكثير من الشلحات البيض، والكثير من الثياب البيض، والكثير من الملاءات البيض، فالرحلة لن تنقص إن سهَّل الله ولم يعترض طريقهم المشلحون عن ستة أشهر إلى سنة، أما إن اعترض المشلحون طريقهم ومنعوهم من إكمال مسيرتهم، أو غوّروا الآبار التي سيشربون منها، أو..

كانت أروى تسمع حديثهن وهن يتواصين ويتشاجعن، وكانت تراقب عدم اكتراثهن الحقيقي بعدم اصطحاب أزواجهن لهن إلى الحج، ولكن آمر الحج وقاضي القضاة والحجة رضية الذين سيصحبونهن أقنعوا الأرامل والمطلقات بأنهم محارمهم، وتكفلوا بنفقة الإخوة وأبناء الإخوة من المحارم الذين سيحجون معهم. كان الحج لذلك العام عيداً حقيقياً تكفَّل السلطان عبر الوالي بالجزء الأكبر من نفقاته. كان هناك رغبة حقيقية وجميلة في إسعاد هؤلاء النسوان الذين عانين طويلاً من أيام المصري السوداء، وعلى الجميع الإفادة من هدوء الطريق إلى الحج، ولم يشيروا في نداءاتهم إلى أنَّ المصري هو من استطاع تهدئة البدو وقطاع الطرق وتأمين طريق الحج، بل قدموا الحج منة من السلطان لرعيته الذين حرموا طويلاً من أداء هذه الفريضة، فأقبلوا على الحج في سعادة لم تعرفها المدينة من قبل، وحتى حين امتنع بعض الأزواج عن مصاحبة

زوجاتهم لظروف تخصهم جاءت الفتوى والأمر السلطاني بالسماح للزوجات والأرامل والمطلقات والعازبات بالحج مع المحارم المكنين ومن عدمت المحارم أصلاً تقدم رجال الوالي بعقد قرانهم عليها عقداً صورياً يسمح لهم ولهن بالحج، وفي ذلك العام سمي الحج، بحج النسوان، فقد كان أكثر الحجيج من النساء.

كانت أروى تسمع الزغاريد والفرح والأناشيد الدينية تنشدها رفيقات الحج والخياطات وهن يعددن الثياب واللحف وأكياس السفر.. كان جواً عجيباً من سعادة يغطي عليهن.

وكان الرجال منفيين خارج هذه السعادة للمرة الأولى وكان حسن آغا قد ابتعد بنفسه عن هذا المهرجان إلى بيت أمه حيث ذلك الأفرنجي المجنون طريد قارتين والأحلام المهدورة الكثيرة، أما أروى فقد كانت الأيام تنقضي وهي تناطح العيون والأنوف والآذان حتى لوّنت ولوّنت أذرعاً كثيرة من قماش أبيض كانت تسرقه ليلاً من الباحة حين تتركه الخياطات المتعبات على أمل القدوم في اليوم التالي لإكمال ما بدأنه بالأمس، وكن لا يستشعرن بنقص القمصان المسرَّجة ولا الأثواب نصف المخيطة، ولا الأقمشة لم تقصّ بعد، فقد كان ما اشترته نفيسة خانم أكبر من أن ينقصه سرقة صغيرة هنا أو هناك.

كانت قد ادخرت ما سرقته في المرة الأولى وهو كثير في سقيفة الحطب، مدركة أنها ستصادف أيام قحط بعد رحلة أمها. ولذا فقد ادخرتها لهذا اليوم، واكتفت لتجاربها على الأنوف والآذان والعيون بما تسرقه مما تيسر من ثياب نصف مخيطة أو مقصوصة للخياطة...

كان برناردو يسمع الأناشيد الدينية وزيارات رفيقات الرحلة وكان يعرف أنَّ مهمة دينية ما تنجز، فصمت ولم يسأل، ولماذا يتدخل وهو الهارب اللاجئ؟ ولكن طول هرب الآغا من بيته وإقامته شبه الدائمة نهاراً في بيت أمه يراقب

كفريات برناردو ورسمه للنساء.. الجميلات... وسأله مرة بعد تردد:

أ...تشتاق إلى المرأة... هل أسعى لك إلى زوجة؟

وأطلق برناردو قهقهته. وأشار الآغا إلى كثرة رسمه للنساء العاريات الصدور، يرسم ويعيد، ويرسم ويعيد. لماذا؟

- 19 -

كان لابد أن يصحبوها ولو إلى المزيريب وهذا أضعف الإيمان، ولم تستطع أروى التملص فقد كان التملص أو رفض الصحبة إلى المزيريب وقاحة قد تصل إلى اعتبارها (مغضوبة).

كانت تعرف بموعد السفر كما يعرفه الأب والجيران، وكل ركب الحجيج، فقد كان منادي الوالي قد خرق آذانهم بطبله ونداءاته. وكان الآغا في موقفه الرافض صحبتها قد تجاوز كثيراً من الأعراف وأخلاق النبل والاحترام الزوجي. وكانت في إصرارها على الحج حتى دون صحبته جرأة لم تعتدها المدينة منذ قرون، و قد جعلت مباركة السلطان والوالي والحجة رضية هذه الجرأة أمراً مقبولاً. أمَّا ما يريد الوالي فكان محو ذكرى المصري الملعون، ولكنهم في تطرفهم الجديد بالسماح بالحج دون صحبة الزوج كانوا قد أوجدوا شرخاً جديداً في أخلاق المدينة لم يكن معروفاً من قبل.. عصيان الزوجة لزوجها.

لم يكن الآغا يتخيل ولو للحظة أن يحتمل صحبتها وخدمتها، وهو يعرف تمارضها وتظاهرها بالضعف في كل مشوار يصطحبها فيها. كانت في حاجة إلى وصيفة وخادم طيلة الوقت ولما كانت قد باعت جاريتيها، ولم تستبق إلا خادمة واحدة في البيت منذ دفعت ديونه بعد إفلاسه، فقد كان في كثير من المرات مضطراً إلى القيام بدور الزوج المحب المشفق أو الوصيف.

كان قد أفهمها منذ أن وقعت عليها القرعة، وهي لم تقع عليها وحيدة بل على نساء الحجة رضية كلهن. كان قد أفهمها بأنه لن يصطحبها ولو وصل الأمر إلى الطلاق، وحين سمعت بكلمة الطلاق ذعرت، فما أبشع أن يقال بأنّه طلّقها لأنها طلبت إليه صحبتها إلى الحج. ولما كانت الكثيرات من صديقات حلقة الحجة رضية من الأرامل والمطلقات وقد وجدن الحل في اصطحاب إخوتهن أو أبناء إخوتهن أو محرم ما من الأقارب، وكان الوالي قد أعلن بأنّ النساء سيشكلن قافلة خاصة من النساء، وسيظل المحارم مع القافلة العامة، ولكنهم على استعداد دائم لتلبية مطالب النسوة كلما دعونهم.. وكان هذا الترتيب مناسباً للجميع.

ولكن.. الصحبة حتى المزيريب كانت من أمور اللياقة المتسامحة. فمعظم تجار وبائعي المدينة سيصحبون الحجاج حتى المزيريب، ومعظم الحرفيين من حذائين، وإسكافيين، ومهاينية، ومحايرية وبياطرة، وخابزي الكعك، وبائعي الزبيب والجوز والتمر، والأهل والأقارب المشفقين، كانوا يصحبون القافلة فهي فرصة القافلة الأخيرة لإصلاح ما يخرب قبل الدخول في المجهول والمضي إلى الحج، أما للأهل فهو الوداع الأخير، ولأولئك الذين لا نعرف إن كانوا سيعودون أو سيكسبون الشهادة.

كان لابد من هذه الصحبة وقد ألحّ الآغا على أروى حتى أخجلها، واستأجر عربة خاصة بهما، عربة تستطيع عبور الطريق الوعر حتى المزيريب، ولم يكن على استعداد لركوب دابة ولم تكن عربتهما المعدة للمسافات القصيرة في المدينة أو حتى إلى بيت الضيعة تحتمل مثل هذه الرحلة الصعبة. أما أروى وهي من كانت تترقب حجة ترحمها من هذه الرحلة فلم تستطع انتهازها وهي ترى عربة مزيريب تنتظر.

وأخيراً... مضوا يودعون الحجة التي حملت هذا اللقب منذ لبست ثوبها الأبيض، فقد صار الجميع ينادونها بالحجة، حتى قبل أن تصل إلى مزيريب.

كانت تسمع الزغاريد والهلاهيل وإطلاق الفرسان المصاحبين لهم الرصاص ولكن شيئاً من هذا كله لم يسعدها، فقد كان مخها مشغولاً بغرفتها التي وضعت عليها قفلين خوف دخول الخادمة الوحيدة التي بقيت في البيت إلى الغرفة بحجة ترتيبها وهي من منعت الجميع من الاقتراب منها، والعبث بما فيها فهي تخاف كشف سر فسوقها في رسم النساء ذوات الأثداء الضخمة والشعر الناعم المتطاير الطويل والجداول والأطيار والأشجار التي لا وجود لها على الأرض.

كانت تعرف أنَّها لم تستطع أبداً جعل نسائها يشبهن نساء رسمة المصري التي سرقتها أول مرة، فهي لم تتقن إلا رسم الأثداء الضخمة المتحدية النافرة إلى الأمام أما العيون الزرق واللوزية، والأنف النحيل الطويل المستقيم في انحداره من الجبين حتى العرنين فهي لم تتقنه على سهولته أبداً. كانت تنظر في المرآة فترى الأنف الضخم وتنظر إلى أمها فترى الانحناءة في الأنف، أما أبوها فقد كان أنفه كمنقار الصقر. وكانت تتساءل وهي تحاول صنع الاستقامة في الأنف فتنحني: من أين عرف المصري هذه الأنوف المستقيمة كالسيف. ترى هل أنوف المصريين على هذه الاستقامة والحدِّية.. وكانت كلما وضعت له في جرة الماء أو إبريق العرقسوس الذي يحمله له الآغا في زياراته السرية مغلي جوزة الخشخاش التي تحتفظ بها أمها مع مجموعة هائلة من الأعشاب والجوز والزيوت في صيدليتها المنزلية.. وكانت مثل نساء المدينة إذا ما أزعجهن طفل مشاغب أو أرق قدمن له من هذا الدواء السحري، مغلي الخشخاش فينام ويترك الأم تنام. وكانت أروى تنتظر شربه من مرقبها قرب الدرابزين المطل على

الباحة حيث يشتغل فإذا ما استراح قليلاً ابتسمت في سعادة، ولكنه ما إن يتكئ على الوسادة القشية إلى جانبه ويبدأ في شخيره العجيب حتى تسارع بحمل رساماتها ذات الأنوف الضخمة والعيون التي لم تستطع جعل نظرتيهما ذات اتجاه واحد فبدت النساء فيها حولاوات، ثم تضع رساماتها مكان رساماته وتحمل رساماته إلى غرفتها وتبدأ في نسخها وتقليدها، وكانت تعرف أنَّه حين يصحو في الصباح ويعدُّ قهوته التي يضيف إليها الحليب وكانت تتساءل: ما الذي يغريه بهذا المشروب العجيب، القهوة بالحليب؟ وهناك مخلوق عاقل في العالم يفسد طعم القهوة بالحليب؟ ومرة إثر مرة غيرت اسمه من المصري إلى القهوة بالحليب.

كانت تراقبه وهو يمضي إلى رساماتها يحمل الطاس النحاسية وفيها القهوة بالحليب... وما إن يرى الرسمة والحوَل في العينين والانحناءة في الأنف حتى يضع الطاس جانباً ثم يبدأ في إصلاح الحوَل ومحو الحنية عن الأنف وهو يبربر ويلعن، وكانت تضحك في سرها فهو لا شك يلعن عتمة الغروب التي جعلته يحول العينين ويثني الأنف، ثم يعمد إلى تظليل الأثداء قليلاً ليخفف من ضخامتها. كانت تتركه يصلح ويصلح وهي تعيد وترسم العيون والأنف في تدريب لا ينتهي، مؤمنة بما لا يقبل الجدل بأنها ستتقنها أخيراً.

كانت على سباق مع الزمن، فقد كانت ترى الاستعدادات في الباحة تحت من خياطة وتخزين مؤن، وزغاريد وأناشيد دينية، وكانت رفيقات الأم من جماعة الحجة رضية يقمن بجولات مع خادماتهن وجواريهن على زميلات رحلة السعادة فإذا ما وصلن بدأت واحدة منهن ممن تملك الصوت المعقول بإنشاد الأناشيد، ويتحول الجميع إلى جوقة يرددن من ورائها، وكن جميعاً يسألن عن أروى، ولم لا تشاركهن فرحة الحج التي لن تتكرر، وربما لن يعدن منها،

وكانت الأم تجد مئة حجة ولكنها كما ستقول لأروى بعد انصرافهن مع بناتهن وكنائنهن وجواريهن تحس بالغصَّة تخنق قلبها لماذا...لماذا أكون الوحيدة لا كنة لها فالصبيان ماتا.. وتتكتم فلا تقول عاصيين، فلقد سئمت وأسأمت من حولها بهذا التصريح، ولا بنات، والبنت الوحيدة مشغولة بما لاتعرف في غرفتها، وكانت العلاقة بينهما قد بردت منذ رفضت نعمة مصاحبتها إلى الحج.

تنهدت أروى وعرفت بعد حفلة البكاء أنها لابد لها من المضي مع أبيها إلى المزيريب. وتنهدت ثانية.. وهاهي تمضي إلى ذلك المكان النائي لا حاجة لها لمعرفته والمسمى بالمزيريب. كان الجميع في حالة احتفال وفرح، ولكنه لم يستطع اختراق جدران رفضها. كانوا يغنون ويهللون وينشدون، وفي كل مرحلة يتوقفون فيها كان الجميع يشاركون في الحضرة حيث يخاطبون طيبة ومكة بأحلى الأسماء، بل فيهم من كان يخاطبهما مخاطبته للمرأة المحبوبة ويعلن أنه ماض إليهما.

كانت تتساءل وهي تنظر إلى هذا كله في جمود: لماذا...لماذا لم تستطع حرارة الإيمان المحيطة بالرحلة كلها أن تشق طريقها إلى قلبها فتشاركهم ولو بالأناشيد فلم يكنّ يطمعن في مشاركتها الحضرة ولا الذكر.

وبهدوء أخذت العربات تتباطأ في سرعتها، وأخذ ضجيج المزيريب يعلو ورأت الصبية والشحاذين والإسكافيين وبائعي الكعك يتحلقون حول العربات وقال الآغا: وصلنا... تعالي نحرك أرجلنا قليلاً.

* * *

رأت نفيسة خانم مجموعات الشحاذين والجواري والعبيد المحررين على غير رغبة منهم، فلقد مات أصحابهم، ولم يجدوا من يؤويهم، فتحولوا إلى متسولين للطعام والمأوى والرعاية.

لم تكن تعرف أن الجوع يضرب المدينة، فقد كان مخزون بيت المونة لديها ممتلئاً دائماً. ممتلئاً بما يكفي لسنة أو سنتين، وكان البرغل والزيت يكفي لثلاث سنوات. كانت صفائح القاورمة ممتلئة تتجدد كلما قاربت النفاد، وكانت صفائح الجبن الحموي، والسمن البلدي، وأكياس الجوز بقشره الخشبي، ومشاكيك الرمان والبامية المجففة تملأ بيت المونة الكبير.

كان المرابع يحمل إلى البيت حصة البيت من المنتج الزراعي من رأس الكومة، وكانت الخادم والجاريتان يخزنّه بالطريقة الصحيحة، وكانت عادتها أيام كانت عروساً أن تدخل قريباتها وصديقاتها إلى بيت المونة يتفرجن على احتياطاتها لأيام العصّة، وكان هذا قبل أن تفقد الصبيين في جيش العاصي الأرناؤوطي، ولكنها منذ فقدتهما أخذ نوع من السأم والسوداوية يحيطان بها، ولم تعد تكترث كثيراً لزيادة المونة أو نقصها. وكانت الجاريتان والخادم يقمن بكل شيء، فهن يحتطن لجوعهن أيضاً.

وهكذا حين تحركت العربة تحملها إلى المزيريب، تحملها وتحمل على الجمال مؤونتها وطعامها، وثيابها وأشياءها الكثيرة التي عرفت أنها ستحتاج إليها، ورأت جموع النساء والأطفال، بل كان بينهم رجال عجائز في البدء يمددن أيديهن وأيديهم يطلبون رغيفاً أو فلساً نحاسياً، كانت تنظر إليهم في سأم: ما هذا؟ أهناك من يطلب صدقة من حجي؟ أهناك من تبلغ به القسوة أن ينتزع لقمة من يد شهيد ماض إلى الصحراء حيث المشلحون، والآبار المعطلة والعطش والحيوانات الكاسرة. كان من المعتاد أن يغدق المودعون ولو من الغرباء

على الحجاج هدايا الطعام والثياب لا يطلبون منهم إلا أن يدعوا لهم هناك عند الكعبة المشرفة والقبر المنير، أما... كانت تنظر إلى وجوههم الصفر والعيون الملتاثة بالعماص، وتتساءل: ما الذي يغريهم بمنازعتها على السلاح الذي صحبته لحرب الصحراء والمشلحين والسيول المفاجئة والعواصف المدمرة، والموت الممكن؟

نظرت إلى عربة الآغا وأروى متطاولة في تساؤل: أتراهم يهبون هؤلاء الناس ما يتسولونه، ولكن العربة كانت محكمة الإغلاق لا تسمح لصوت أو نور بالتسلل إليها.

وإذن...؟ تساءلت...هل سيكملون مماشاتهم حتى خان دنون حفاة على هذه الدروب الملوءة بالحجارة الصوانية المسنونة؟ ولماذا؟ من أجل رغيف؟ طز بالرغيف. الكرامة والاحترام أهم. فكرت في نصيحتهم بالعودة والحفاظ على كرامتهم، ولكنها كسلت حتى عن هذا، فاسترخت في جلستها وأخذت تنظر إلى قفا العربة المتقدمة أمامها وهي تتمايل والغبار البعيد يعلو ويعلو...

كان خان دنون المحطة الأولى مغطى بالغبار، حاولت ألا تكترث لهذا الفقر والشرشحة...كانت تتساءل: أستترك أروى عربة أبيها وتأتي إليها تتودع منها. كانت تتساءل: ما الخطأ فيّ الذي جعل هذه البنت بعيدة عني، بعيدة أكثر من أبيها الذي أصبح مجرد جار في البيت قد يلقي عليّ تحية الصباح وقد لا يلقي، مهموماً بأشياء لا أعرفها، ولكنها قطعاً هموم جاءته من أكوام الكتب الكفرية التي ترده من مصر بين الحين والآخر . . . أعوذ بالله. ما الذي حوّل هذا البلد الضاجّ بالعلماء والأزهر الشريف والنور العتيق إلى بلد يعج بالفسقة والإفرنج والكتب الكفرية؟

شقّت نافذة العربة قليلاً تبحث عن عربة الآغا وأروى حين لمحتهن.. وتراجعت بسرعة: أعوذ بالله. ما الذي جاء بهن إلى هنا. جوار وجوار. صبايا وكهلات وعجائز. تنهدت: ولكني تخلصت من الجاريتين لديَّ منذ سنتين. وسمعت الطرق على جدار العربة فلم تفتح. كانت أصواتهن تتسرب: ستي جوعانة. من شان الله. شي رغيف...ستي كيف تحجين وتتركينا. ولكنها قالت وإن لم تصرخ: ولكني بعتكما منذ سنتين.

- ستي. أهل البيت ماتوا بالهيضة، وقد مضى عليّ شهور وأنا أستعطي الناس.

- ستي تركوني أمانة عند الجيران، ولكن الجيران طردوني. قالوا: ما لدينا من مونة لن يكفي حتى الموسم القادم. روحي ابحثي عن رزقك.

- ستي افتحي إكراماً لألله. أكراماً للست أروى. إكراماً للشهيدين.

وقفزت دمعة إلى عينها عند ذكر الشهيدين اللذين لم يكونا... ثم تماسكت: وأنا...وأنا إن جعت غداً في صحارى الحجاز، من يطعمني؟ من؟ أشفقوا علي. أنتم في بلاد الخضرة والخير. يمكن لكم أن تطرقوا أي باب فيطعمكم. ولكن هناك. هناك في البرية الصفراء بلا حدود. من يعطيني كأس ماء....

كان الطرق على جدار العربة يزداد، فأصمّت أذنيها على عادتها حين لا تريد للخارج أن يدخل إليها: ما الذي حصل لهذا العالم. كان الحجي والحجية عروسي الحارة. الكل يحار في إهدائهما ما يعينهما على الحج. المونة، وقرب الماء، وثياب الإحرام... والآن... وسمعت واحدة تصرخ: لك حرام عليك. الزيت اللي البيت يحتاجه يحرم على الجامع.

ولكنها أصرت على عدم السماع، فالحج يدعوها، وهاهي فرصة العمر تأتي مرة واحدة ولن تتكرر.

وسمعت صوت سنابك الخيل وصرخات الجند وعويل النساء والأطفال من العبيد والجواري والفقراء يهربون تحت ضربات سياط جند الوالي، وتنفست في ارتياح: الحمد لله. الآن أستطيع الحج دون منغصات.

- 20 -

كان يشرب طاسه الثالث من القهوة بالحليب ويحدق في اللوحات أمامه. لا ...لا يمكن له أن يرسم مثل هذه الرسوم، فكيف جاءت إلى هذا المكان...؟ كانت تدريبات على أنوف لم تكتمل استقامتها، وعلى عيون لم تتحّد بؤرة رؤيتها.

نظر من حوله في خوف: أهذا البيت مسكون؟ أفيه آخرون لا يراهم؟ وتسرب الخوف الطفلي والسري من المجهول، من آخرين لا نراهم يعيشون معنا. أشباح... جن.. ولكن. أيمكن له وهو النابوليتاني صديق غاريبالدي ومريد باكونين أن يؤمن بخرافات كهذه...جن؟

وتسربت ذكريات ألف ليلة التي فتنته وفتنت أوروبا كلها بعد ترجمتها. الجن، ولم لا؟ أليس يعيش في بلاد ألف ليلة، وإذن... ربما كان الجن موجودين لديهم... وأطلق نفثة سخرية خفيفة... الجن.. قنديل علاء الدين.. ما أحلى أن تكون لهذه الحكايات بعض الحقيقة.. ولكن.. ابتعد عن لوحة الأنوف المنحنية والعيون الحولاء...لابد أنه الحشيش.. همهم لنفسه، ولكن... وجد عدداً من اللوحات منصوبة جانباً. لم أضعها هاهنا، فمن وضعها ولماذا.. من يدخل إلى هذا البيت.. وفكر: لابد أنَّ له باباً أو مدخلاً سرياً، وهو يعرف أن لكل البيوت والقصور القديمة أبواباً سرية وسراديب خفية تنجي من الحصار أو تمكن من التسلل، وقد عرف الكثير منها أثناء مغامرته الملعونة في إيطاليا.

وضع الطاس من يده مفكراً: لم أستكشف هذا البيت أبداً، وهاهي الفرصة تتاح من عدم مفاجأة الآغا لك وأنت تنبش في بيت ضيافته. مضى إلى الباب الخارجي فأحكم إغلاقه من الداخل. أشعل مشعلاً قوياً وفتش المطبخ، جدرانه، الموقد الحطبي فيه، زواياه، نقر الحيطان، لا. لا باب سرياً هاهنا، ولا مدخل، مضى إلى المرحاض، الدهليز، الغرف المهجورة والمسكونة بالعنكبوت، وجرب الجدران والأرضيات والسقائف. لا. لا باب سري.. وفجأة قال في انتصار: غرفة المؤونة. مضى إليها. عتمة وخيوط عنكبوت ورطوبة، ولكن.. يجب إزالة الشك، نقر الجدران، الأرضية، الزوايا... السقف. لا. لا مدخل سري. وصرخ في غضب: وإذن...؟

خرج من غرفة المؤونة متعباً منزعجاً، ونظر عرضاً إلى زجاج الغرفة المجاورة، فرأى الغبار وخيوط العنكبوت تكسوه فضحك في انزعاج، وانحنى على البحرة يغسل ويغتسل وخلع ثيابه العلوية ينفضها ويمسحها بالماء مزيلاً العناكب وخيوطها. وإذن... من يأتي بهذه اللوحات.. ولماذا...؟

حمل الطاس وجرعه مرة واحدة فلقد بردت القهوة بالحليب. لا تسرف في استهلاك ما لديك، فالآغا على سفر ولا تعرف متى يعود...

اتجه إلى اللوحات المستندة إلى الجدار ورفع واحدة يتأملها وصدم، ما هذا.. امرأة عارية الصدر الضخم ضخامة لا يرسمها عادة، ليس هذا فحسب، فالثدي ليس ثدياً عادياً. إنه متطاول تطاولاً يقربه من عضو ضخم لرجل... كيف.. هل يمكن لبرناردو، وكان يخاطب نفسه وكأنه غريب أحياناً، أن يرسم شيئاً كهذا.. ولماذا..؟

نظر من حوله في خوف، وهو يبعد اللوحة من أمامه خائفاً أن يراها أحد. أدار وجهها إلى الجدار كما كانت.. أيمكن له أن يرسمها وهو تحت تأثير الحشيش....؟ اللعنة.. ما الذي أغراه بالأمس بتدخين الحشيش.

كان الآغا قد أحضر له من الطعام والتبغ ما يكفيه لأسبوع. قال: السفرة لن تستغرق أسبوعاً. ولكن من يدري.. وأضاف ضاحكاً: لا أريد أن أعود لأجدك.. وأشار بوجهه ويديه مازحاً إشارة الموت..

كان قبل يومين قد أحضر له قطعة حشيش...قال: هذه هي المرة الأخيرة آتيك بالحشيش.. لا أريد لأهل الحارة أن يقولوا عني حشاش، فهذه هي السُبَّة التي لا تغتفر في مدينتنا.. وضحك في اعتذار.

تذكر...شرب الشاي وهو يرسم، فقد نسي الآغا أن يأتيه بالعرق سوس وتساهل فلم يسأل. فالرجل سيصحب أهله في السفر ولابد أنَّ مخه مشغول. ولكن حين تأخر المساء ولم ينعس على عادته. قال: أضع قطعة من الحشيش في الغليون..

مضى إلى اللوحة التالية ولم يحاول رؤيتها، بل حملها متحاشياً رؤيتها إلى الحامل فوضعها ونظر.. كان في الوجه شيء من الوداعة لا يتناسب مع ما اعتاد رسمه، صحيح أن الأنف كان يميل إلى الجانب في غير انسجام مع نظرة العينين ولكن الوداعة الغريبة فيه ليس مما يراه عادة في المرأة، أما الثديان، فكانا على تنافر كامل مع الوجه، كانا ثديين عدوانيين تماماً، ثديان ذكريا الشكل. لماذا...لماذا..؟

وتنهد: أهذا هو الحشيش إذن؟ أهذا هو الحشيش الشامي وتأثيره، وخاف قولها. فاستدار مبتعداً إلى اللوحة الأخيرة، فقلبها، لم يكن فيها أثداء أصلاً، بل ضاعت الوداعة من العينين وكان الصدر أملس أشبه بصدر صبي. ما

معنى هذا، ونظر إلى الأسفل ليرى ما يشبه فماً بأسنان ضخمة ونابين لذئب بارزين.

- برناردو. هل أنت على طريق الجنون. أنت لابد أنك على طريق الجنون!

فتح الباب الخارجي للبيت بعد أن وضع على رأسه الكوفية التي علّمه الآغا لبسها قائلاً: كوفية لا تدل على مهنة أو طائفة بإمكانك لبسها فتعبر العيون بك..

نظر إلى الحارة. كانت الحارة خالية تماماً، لا أطفال يلعبون، ولا نساء يسكبن الماء إلى الحارة، ولا حمير محملة بالخضار والباعة من ورائها ينغمون نداءاتهم، وفجأة انتبه إلى السكون المحيط بالمكان. سكون كامل... وأحس بوجل خفيف يتسلل إليه...لماذا؟ ونسي أنّ معظم القادرين سافروا إلى المزيريب يودعون أو يرتزقون من الحجاج.. وذكر بالرمو بعد الاستيلاء عليها وهرب الأغنياء إلى منازلهم في الجبل والفقراء إلى الكنائس. كانت المدينة خالية خلو الحارة الآن.. وأخذ الوجل يتعاظم.. المدينة بلا سكان مخيفة. غابة من بيوت تقف عالياً بديلاً عن الأشجار، وتتالت الأفكار: الغابة الساكنة حافلة بالكمائن والوحوش، فماذا عن المدينة الخالية. وتساءل: هل الصمت مواز للخوف..

أعاد إغلاق الباب ورجع إلى مجلسه لتواجهه لوحات الأثداء الضخمة المتطاولة كـ... وضحك. ما الذي تفكر فيه.. مضى زمن طويل ولم تفكر في الأمر.. هل أثارتك هذه الرسوم. أهي ما كنت تخفي ولا تعلن.. أهي... ونظر إلى الفم المفتوح والنابين العدوانيين. وقال: لعنة الله على الحشيش الشامي. كان الحشيش في مصر أقل وطأة، وضحك. لابد أن الحشيش هناك كان مغشوشاً، فلم يوقظ فيك كل هذه الرغبات المجنونة.

كان الغليون قريباً فنفضه وأخذ يملؤه بحركة آلية وبعد تردد قليل أضاف قطعة حشيش وأشعله.

أخذت إيطاليا تستيقظ ورأى باكونين الجليل يصرخ: أنتم تريدون تأسيس دولة، تظنون أن الدولة الموحدة ستأتي بالخير والعدل.. وتوقف باكونين قليلاً وصرخ: الدولة حتى لو كانت مؤقتة كما تظنون. إنما هي الطريق إلى الاستبداد، لا إلى الحرية كما تعتقدون..

وعضَّ على شفته بقوة. كان مع غاريبالدي والمتطوعين قادرين على إدارة الأقاليم والمدن التي حرروها دون حاجة إلى □يتوريو إيمانويل ودولته، فلماذا أصغى إلى ماتزيني. لماذا تجاهل المعلم باكونين وأصغى إلى كافور... لماذا....

وجرَّ نفساً عميقاً جعل الأثداء في اللوحات تتطاول والفم يقضقض على أسنانه وسمع ريناتا تقول وهي تداعب خده في رقة مواسية: لم لا ترى الطبيب ليس في الأمر ما يخجل. خلق الله لكل مشكل دواء فما يخجلك. ولكنه جمع ثيابه ومضى مبتعداً مرتبكاً خجلاً يحاول ستر ثيابه الملطخة بقذارة تسرعه وعجزه.

وجرَّ نفساً آخر من الغليون ذي الدخان الأبيض فغطى على اللوحات والأثداء والبحرة، وكأنه كان يريد الاستتار بدخانه عن العالم.

* * *

كان الجمالون والعكامون والمكارية يصرخون في وقت واحد، وكانت أروى تراقبهم في انشغال. كان البيطريون يتفحصون الجمال في بطونها وخلف آذانها و تحت ذيولها. كان يجب أن تكون معافاة من كل علة، فالرحلة لا تحتمل المخاطرة بجمل مريض.

مضى الآغا لشراء كمية من الزبيب والجوز طلبت إليه نفيسة خانم شراءها، واستجاب على مضض فهي تتعاظم أمام رفيقاتها إلى الحج، كان يعرف أنّ ما لديها من جوز وزبيب وكعك أكثر من قدرتها على استهلاكه، ولكنها كانت تريد أن يرين الآغا وهو يسارع إلى تلبية طلباتها وشكر الله وحظه الطيب أنه لم يصحبها إلى الحج فهو يعرف أنه لو صحبها فلن يكون إلا الوصيف.

كانت نفيسة خانم تراقب الآغا وهو يتنقل من خيمة إلى خيمة يشتري ما طلبت إليه، وكانت في الخيمة تسترخي في انتظار تكامل الركب، كانت تسمع الغناء والقرع على الطبول والدربكات والمزاهر وهي تسّبح مسقطة حبات مسبحتها الألفية حبة فحبة، ولكن الغناء والأناشيد يشتد ويعلو مع ضرب الطبول والدربكات، ورأت الحجة رضية تنتصب من مجلسها وتطلُّ من شق في الخيمة على الساحة البعيدة تتسمع وتراقب.

كانت تنتظر أروى، وكان يجب أن تكون إلى جانبها الآن، فلماذا تصر على البقاء في العربة حردانة وحيدة. لماذا... تنهدت. أتراني سيمتد بي العمر حتى أراها ثانية... ليتها قبلت عريساً من هؤلاء الكثيرين الذين تقدموا لخطبتها ولكنها... وعضّت على شفتها في غيظ: لَمَ لم تدرك النساء حتى الآن؟ لقد تجاوزت الثامنة عشرة وليس هذا مألوفاً في نساء العائلة.. وكانت قد سألت الخادمة والجارية مرات كثيرة إن رأين العلامة فأصرتا على أنها لم تُعَلِّم بعد وثدياها؟.. ثدياها اللذان لم يكبرا ليعلنا أنوثتها أبداً. لماذا.. لماذا؟ وأعادت عض شفتها: الصبيان، واختطفهما المصري الملعون لا لهدف.. والبنت...؟

فجأة وجدت نفسها تخرج من الخيمة. كان لابد أن تراها. لابد.. فمن يدري.. ولكنها ما إن ابتعدت عن الخيمة حتى هاجمتها موجة من المندفعين

دفعوها أمامهم حاولت المقاومة، التسلل، ولكنها كانت تدفع فتندفع. رأت حلقات الذكر المجتمعة والرجال يقفزون، وهم يطوحون برؤوسهم يميناً وشمالاً. الله حي. الله. حاولت أن تتجاهلهم، ولكنَّ الجموع من حولها انضموا إلى حلقة محيطة بالحلقة الأولى وأحست بالأيدي تشدها إلى الوراء لتجد أنها جزء من حلقة نسائية تحيط بالحلقة الثانية. التفتت ورأت بسمة على وجه امرأة لا تعرفها تحت المنديل الأسود ورأت المرأة تشير إليها مشجعة لتهتز مع المهتزين: الله حي. الله حي.

رأت رجلين لا تعرفهما وهم يتمايلان بعنف ورأت الزبد يتسرب من فميهما: الله حي. الله حي.. كانت أصوات نايات وقرع مزاهر وطبل بعيد رتيب يضبط الإيقاع.. ولكن أين أروى، بل أين الآغا..

أين الآغا.. كانت تهتز وكانت الحركة من حولها تزداد تمايلاً وتوتراً. الله حي. الله حي. ورأت واحدة من حلقة النساء تنزلق في طراوة، تنزلق وتنزلق حتى تستلقي على الأرض كتلة مغطاة بالسواد وهي تنتفض بعنف وكأنها في حالة طلق، وهمست المرأة ممسكة بيدها بقوة: إنه الوجد. الله يطعمنا. وتمتمت وراءها: الله يطعمنا.

شاهدت رجلاً من بعيد يقترب من الحلقة وكأنه الآغا. أهو الآغا؟ ولكنه ضاع بين رجلين أرادا الانضمام إلى المتمايلين المتفرجين لا تضمهم الحلقة ولكنهم يشاركون فرادى متمايلين الله حي. الله حي.. وفجأة رأتها. إنها أروى، أرادت أن تلوِّح لها، أن تطلب إليها الانضمام إلى الحلقة، أن تصرخ منادية، ولكن اليد القابضة على كفها كانت قوية ككلابة: أعوذ بالله. لمَ لم تدرك النساء حتى الآن؟ لماذا؟... ولكن صدرها أملس...

وانزلقت فجأة... انزلقت لا تدري لماذا.. لا. لم يأتها الوجد. هي تعرف أنه لم يأتها، وكانت تتمنى محترقة أن يأتيها الوجد، ولكنه لم يأت، فلم تنزلق؟ ولم تتخل عنها اليد القابضة، بل شدَّتها بلطف إلى منتصف الحلقة لتستلقي بهدوء إلى جانب الكتلة السوداء الأولى. وفجأة وبينما كانت المرأة لا تعرفها توسد رأسها الأرض بلطف رأته. كان عنيز الجحش. رأته هي تقسم إنَّها رأته ولكنه كان شاباً مايزال، قال: البنت لا حلمات لها. كان يقولها متطيراً.. ونظرت. كانت أروى البيضاء جداً البيضاء حتى اللمعان. فردّت صارخة ولكنهم فيما بعد سيخبرونها أنهم لم يسمعوها تصرخ: البنت بيضاء، لهذا لا حلمة لها...وصرخت في أمر: اصنع المطلوب منك فقط قبل وصول الآغا.

كانوا قد غسلوا قدميها الصغيرتين جداً حتى لكأنهما قدما دمية، أدارت نفيسة وجهها وهي تراه يخرج مقصه الجديد، فلقد أصرت على ألا يستخدم مقصه الصدئ بالأمس حين أتى ورأى أصابع قدميها الست. تأكدت من حدِّة المقص المسنون حديثاً وتأكدت من نظافته بعد غسله بالماء الساخن والصابون، وتركت أمها مع الطفلة وهربت إلى الباحة وعند البحرة وهي تحدّق مذعورة في الماء سمعت صرختها كمواء قطة. نعم كانت تموء كقطة صغيرة قطعوا ذيلها وكانوا كثيراً ما يفعلون، وسمعت المواء ينكتم لابد أنها الجدة تضمها إلى صدرها.

أحست يداً تمسك بها من ذراعها تقيمها عن الأرض، وانتبهت عند لمسة اليد تجذبها للقيام أنّ فحيح الذاكرين الله حي. الله حي قد اختفى، ففتحت عينيها كانت وحيدة على الأرض وقد انصرف الجميع، ولكن الوجد لم يدركها. لماذا... أتراه أدرك المستلقية إلى جوارها، أرادت أن تسألها، ولكنها كانت قد

اختفت. شكرت صاحبة اليد التي ساعدتها على القيام، ومضت، كانت تظن أنها تتجه إلى الخيمة، ولكنها وجدت الأمواج تدفعها ثانية.

وكانت حلقة فيها رجلان يتبارزان في لعبة السيف والترس. كانت لعبة تموج بين المبارزة الدموية ورقصة الأصدقاء يكادان يتعانقان. ولم يشدَّها الأمر فتركتهما مبتعدة تريد أروى. لابد أن تراها قبل السفر رغم حردها. لابد لها من مصالحتها. هذه الجفوة. لماذا.. لماذا تكرهها أروى. أترى هذا تأثير الآغا الذي يترك لها الحبل على الغارب. أعوذ بالله. لقد سمح لها بالخلوة في مكتبته مع كتبه الفسقية التي جاء بها من مصر. وتوقفت تشهق. أتراه علّمها السحر وقراءة التعازيم في كتب الخربشات المغربية تلك. وهزّت رأسها في رفض: لا..لا. هو أكثر شفقة من هذا. إنه أبوها! ولكن أيعلمها السحر؟ أعوذ بالله. وأعادت هز رأسها في رفض: لا.. لو علّمها السحر لكانت قسوته عليها أشد من قسوته على الولدين جعلهما ينضمان إلى الفاسق المصري ليموتا هناك في الأناضول.. ولكن.. يجب أن أراها. تعلمت السحر أم لم تتعلمه. يجب أن أراها وأعانقها، فمن يدري. ربما لن أراها من بعد. ربما استجاب الله دعاء الحجة رضية فجعلهن جميعاً من الشهداء فيدخلن الجنة دون حساب.

اخترقت الجموع وكانت ساحة خالية من الناس ولكن في آخرها كان هناك جمع آخر وضجيج وثغاء خراف ورغاء جمال. قالت: لابد أنَّ أروى بينهم ومضت. كانت الأصوات تعلو مع اقترابها منهم. كان هناك عدد من الجمال البيض بياضاً لابد أنه غسل مرات كثيرة حتى غدا على هذا البياض. دنت وهي تهمهم: يا رب. دعها تكون هناك. يجب أن أراها، وإلا كان واجباً عليَّ أن أمضي لانتظارها عند العربات المستعدة للعودة إلى الشام.

اقتربت. وعلا ضجيج الزحام. كانت تسمع الله أكبر، وتسمع: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، تقترب وتسمع: هنيئاً لك يا زائر الحرمين. تقترب وفجأة انشقت الجموع وخرج منها جمل أبيض وقد زعفروا رأسه ورقبته ففاحت منه رائحة الزعفران الجميلة. هرع إليه عدد من الساسة فقبضوا على رسنه وأجثوه فجثا، وقام واحد بفتح فمه بلطف بينما أخذ الآخر يدس فيها كرات من طعام... وكان الجمل يهز رأسه رافضاً فينتثر بعض الكرات المقضومة، ويسارع الحشد إلى التقاطها وابتلاعها بسرعة.

اقتربت، مستغربة وحين رأت في باحة الحشد المحمل الجميل المغطى بالثياب الذهبية والخضر عرفت أن الجمل هو جمل المحمل، اقتربت ورأت المعجن النحاسي الكبير المملوء بمعجون الفستق واللوز والبندق المخلوط بالعسل. ويد السائس تحمل حفنة فتعجنها لتحيلها إلى قبضة تدسها في فم الجمل ويقوم الجمل بعد ابتلاع بعضها بنفض الباقي عن شفتيه وفمه فتتطاير الكتل الصغيرة وبنقض الحجاج والمودعون عليها يجمعونها في تبرك ورأت قطعة بحجم تينة تطير لتقع عند قدميها، ورأت بعض المودعين يرون الكتلة الطائرة فيندفعون إليها، ولكنها بسرعة انحنت ورفعتها عن الأرض ودسّتها في فمها. كان طعمها لذيذاً جداً خليطاً من فستق وعسل ولوز، وبينما كانت تلوكها في تلذذ رأته، وكان الآغا ينظر إليها غير مصدق.. نفيسة خانم المتكبرة، المتدللة، منهكة الجواري والخدم في طلب التنظيف والغسيل وإعادة الغسيل تأكل متلذذة سقط فم الجمل.. خجلت من نظرات الآغا غير المصدقة، ولكنه جمل المحمل المبارك، ونظرت إليه في تحد تخبره بأنها غير خجلة مما صنعت، فهذا الجمل زار الحرمين وسيزورهما ثانية وليس مثلك يا تلميذ الأرناؤوط والفرنج، وسقطت

كتلة أخرى قريبة منها، فحملتها واتجهت إليه لتلقمه إياها ولكن الاشمئزاز على وجهه والاستعداد للهرب جعلها تصرخ: إنها البركة يا آغا..

ولكنه استدار واختفى مبتعداً. نظرت إلى الكتلة تريد مضغها وابتلاعها ولكن الشك راودها فجأة، واستيقظ تأنف الخانم نفيسة فدلّت يدها إلى جانبها وتركتها تسقط عارفة أنها ترتكب خطيئة لن تعرف كيف سيعاقبها الله عليها.

- 21 -

كـان الغليـون مـا يـزال في فمـه حـين حمـل لوحـة الفـم الفـاغر والنـابين المهددين، فوضعها على الحامل وتأملها طويلاً يفكر ما الذي سيـستطيع تعديلـه أولاً، وجه الصبي مع الشعر الأنثوي المحيط به والصدر الأملـس لا أثـداء فيـه، والفم... الفاغر. يا إلهي أي تفكير منحرف صنع هذه اللوحة، قالها وهو يسخر من نفسه على عادته: برناردو أنت منحرف.

كان الدخان الحارق الصادر عن الغليون قد ألهب حلقه، فنفضه في أصيص نبات زينة قريب، ثم أعاد ملأه بالتبغ بسرعة، وكأنـه يخـاف أن يـضيع تـأثير الغليون المشحون بالحشيش الذي هجـره منـذ هروبـه مـن مـصر. أضـاف قطعـة الحشيش وأشعل الغليون. وما إن سيطرت الغيوم الزرق على المشهد أمامه حتـى رأى الريشة تستجيب ليده، فانحنى على الساقين، وأخذ في الرسم والتلوين.

كان يعمل كالمحموم، ولم يكـن يفكـر، ولم يكـن يتأمـل، ولم يكـن يرصـد ليعرف إن أحسن أم أساء، بل كان أداة تنفذ وترسم وترسم والبراءة تختفـي عـن الوجه والشعر المحيط بالوجه يزداد إغـراء وعنفـاً، أمـا الـصدر الأملـس النـاعم حيث الأثداء فقد أخـذ يـشع بـشيء جديـد لم يعرفـه في عمـره.. إغـراء جديـد، وجمال جديد، ويقظة لأزمان اختفت...

عند الضوء الأول كانت نفيسة خانم تودع أروى التي لم تدرك النساء وكـان قصورها هذا ألماً في حلق الخانم وخيبة أمل لا تقل عن خيبتها في الآغا الذي عـاد

من مصر ولم يحصل على العالمية، ولا على المجلس في الأموي الذي كانت العائلتان تنتظره، وليته اكتفى بهذا، بل عاد ومعه تلك الأحمال من الكتب الفسقية والسحرية ونظرة السخرية في عينيه، وأحياناً في فمه من كل شيء أحبَّته المدينة لقرون.

كانت تعرف منذ ما قبل سفره سخريته من الأضرحة المقدسة، بل كانت حكاية العائلتين عن حسن آغا الطفل الذي تحدى جدَّته والجان وقبر الولي الذي لا يعرفون له اسماً في أول الحي والذي مضى بعد أذان العشاء والعتمة إلى مزاره رغم تحذير الجدة والأم من أنه سيصيبه بالفالج، ولم يكن قد حفظ القرآن بعد، كانت تتذكر محاولة تحديد سنه، أعوذ بالله إنه لم يبلغ العاشرة بعد، فأولاد الأغوات والأسر المحترمة كانوا يحفظون القرآن قبل العاشرة. مضى إلى قبر الولي فأطفأ شموعه كلها وحملها معه إلى جدته لتراها وتصعق حتى يكاد يغمى عليها، وتبدأ في قراءة المعوذتين عليه وتغطيته بالحجب والتمائم. فمن يبدأ حياته بهذا التحدي، الله وحده يعلم إلى أين سيصل.

كانت نفيسة خانم تعرف تاريخه هذا كله، فالحارة صغيرة والعائلات تعرف عن بعضها أدق الأسرار، ولكنه وهو الشاب الوسيم أزرق العينين أصهب اللحية والشاربين كان إغراء لكل فتيات الحارة، فلم تعترض عليه زوجاً رغم تاريخه غير المشرف، ولكن أمها همست: طيش صبا. وهل يحاسب الإنسان على طيش الصبا، ومن فينا لم يرتكب عشرات المعاصي إن لم يكن في الحياة، ففي الأحلام والأماني...

كانت تراقبهما في عربتهما يودعانها وعربتها تمضي مبتعدة — تنهدت — ربما كان الابتعاد الأخير.

كانت غصتها التي لم تعلنها لرفيقات سفرها خيبة أملها فيه. فقد كانت تتمنى لو صحبها فتاب الله عليه، وربما أحرق تلك الكتب الفسقية، والكتب السحرية ذات التعزيمات الملعونة (ولا يفلح الساحرون) تمتمت وهي تتعوذ بالرحمن.

أخذ الغبار يعلو ويعلو ويشكل غماً يخفي عربة الآغا والعربات، ثم الخيام في مزيريب. ثم مزيريب، ثم كان النور الكبير الذي حجب كل مرئي، وارتفع صوت رفيقتها في العربة تنشد نشيداً يعلن التشوق لطيبة والمدينة وزيارة قبر المحبوب الأكبر في المدينة.

أراد الآغا أن يلتفَّ السائق بالعربة ليعودوا إلى الشام ولكن السائق كان كامل الغياب يحدق في غيمة الغبار المبتعدة في انذهال. كان يتحرق على الانضمام إليهم ولكن الله لم يسمح، تمتم لنفسه والدموع تنثال من عينيه.

التفت الآغا إلى أروى يريد أن يلفت نظرها إلى دموع السائق، وكان في محاولته بعض دهشة يشوبها التعاطف، ولكن أروى كانت غائبة بدورها، وتساءل: أتراها حزينة لغياب أمها الذي سيطول وهو الذي لم تترك غضبات الأم غير المبررة أمامه مكاناً للحزن على غيابها، أم...وتساءل: أتراها خائفة من حمل مسؤولية البيت وحيدة؟ ولكن...هه. ما مسؤولية البيت أصلاً وهو من يشرف على كل شيء منذ تخلت الخانم عن كل دور أرضي لها وتعرفت على الحجة رضية.

تلفت الآغا من حوله ليكتشف أنَّ عربتهم قد تركت وحيدة تنحو إلى الجنوب حيث القافلة الأخيرة التي مضت إلى الحج ولم تخلف وراءها إلا غيوماً من غبار أخذ يهدأ وتنجلي الصورة فإذا بالأفق وليس فيه إلا بقعة سوداء تبتعد.

تنحنح الآغا فقد كانت رقته تمنعه من إخراج السائق من حالة النشوة التي يعيشها وتقطر الدمع من عينيه.

أما أروى المنشغلة فقد استيقظت مغامرتها الأخيرة قبل سفرها إلى المزيريب. كانت تفكر في تلك الرسمات المجنونة التي أنزلتها إلى المصري المخشخش، وكانت هذه آخر تسمية له، فبعد المصري، وبعد القهوة مع الحليب صار اسمه منذ أن بدأت وضع مغلي جوزة الخشخاش له في العرق سوس صار اسمه المصري المخشخش، فقد أعجبتها قدرتها على خداعه والتحكم فيه وإقناعه بأن هذه الرسوم الفاشلة هي من شغل يديه فهو لا يعرف بدخولها إلى البيت ولا يعرف بوجود رسام آخر في البيت غيره، ولا يعرف إلا أنه ربما كان يرسم هذه الجنونات وهو شبه نائم.

لاحظ الآغا والعربة تدور عائدة إلى الشام ظلّ بسمة على وجهها، ولكنه انتبه إلى أن القوافل العائدة قد ابتعدت، فلمس كتف السائق، وأشار إلى القوافل العائدة البعيدة مشيراً إلى أنّ عليهم الانضمام إليهم بسرعة، فالسفر ليلاً حتى من المزيريب إلى خان دنون مخيف، فما يدريك ماذا يمكن للمشلحين والطامعين أن يفعلوا مع مسافري الليل.

وهمز السائق حصانيه البلديين وأخذت العربة تعدو وتتقلقل.

أما أروى فقد كانت تتخيل دهشة المصري المخشخش من رسماتها. ما الذي جعلها على هذا الجنون ولماذا... لماذا تخلت عن رسم الحوريات الجميلات الغاطسات في الجدول فيضيع نصفهن ما بين الماء وبين انعكاس الشجر عليه ليبدين وكأن نصفهن السفلي من لحاء وشجر. ما الذي جعلها تتخلى عن هذه الرسمات التي ابتكرها وتتحداه بـ... هذا الفم الفاغر الملعون... لماذا؟

أخذ الغروب يحط وخان دنون ما يـزال بعيـداً. يجـب الوصـول إليـه قبـل الليل وكانت أروى تتساءل: لو عرف أنها مـن رسمـت لوحاتـه المجنونـة فـأي رأي سيعتقده فيها.. وضحكت ضحكتها السرية. إنـه نزوتهـا القديمـة وأحـلام ليلها.. أتراه الكابوس؟ لا لم يكن الكابوس فالكابوس يحطم قواك قبـل اليقظـة، أما هذا المنام فكانت تستيقظ منه سعيدة، وكأنها حققت حلماً كانت تتمناه.

* * *

كان الطعام الكثير الذي تسلى بقضمه وكانت هذه مـن عاداتـه منـذ كـان في إيطاليا، الأكل وشرب النبيذ أثناء الرسم، أما ها هنا حيث لا نبيذ إلا بصعوبة، فقد استبدله بالحشيش، وهاهو الحشيش الذي وضعه المرة تلو المـرة في الغليـون قد أتعبه وأخيراً ترك رسمته واستلقى على طراحة قريبة.

* * *

تقلَّب في نومه على الطراحة، وفجأة استيقظ. توفَّز. استيقظ بكامـل وعيـه. اللوحة. انتصب. كانت العتمة قد بدأت تغطي المكان بغياب جديـد، بحـث عمـا يشعل به القنديل، ولم ينتبه إلى أن التشوش لم يغب عنه بعد. فتخبط قلـيلاً. لم يستطع تأمل ما رسم قبل أن يحمله النوم إلى عالمه..

اتجـه إلى البحـرة، فغطـس رأسـه فيهـا، ثـم انتزعـه مـن المـاء، فنفـضه وضحك: مثل كلب ينفض الماء عن جسمه.

انتبه فجأة إلى الهدوء الحاطِّ على البيـت والحـارة. فلـيس مـن نـداء بـائع خضار، وليس من شجار بـين زوجـين، ولـيس مـن صـراخ أم تطلـب مـن الأولاد الهدوء لا. لا شيء.. ما الذي أصمت المدينة.. نسي تماماً حكاية خـروج الجميـع لوداع الحجاج، وأحسَّ بخوف صغير، ما الذي أصمت المدينة.

فجأة وربما كان هذا بتأثير حشيش ما قبل النوم قرَّر الخروج من البيت واكتشاف ما أصمت مدينة لاتعرف الصمت في هذا الوقت. اعتمر الكوفية كما أوصاه الآغا واتجه إلى الباب، ولما خاف انغلاق الباب وهو لا يملك المفتاح، فقد تردد قليلاً، ثم رأى وضع حجر بين دلفتي الباب، فيمنع الباب من الانغلاق. والحرامية؟ تساءل، ولكنه هزَّ رأسه في غير اكتراث. وأين الحرامية؟ على أية حال لن أطيل الغياب.

مضى في حارة معتمة صامتة، لا روائح طبيخ فيها، ولا تشكي أطفال، ولا شجار أزواج، و.... فجأة انتبه، حتى لا أذان في المآذن..ما الذي يجري؟ خرج من الحارة إلى السوق الصامت الكبير.

كان يمشي وحس بالذهول يغطيه، فهذه هي المرة الأولى يجوس في المدينة، وتذكر باليرمو ووحشة شوارعها وأسواقها حين هرب الناس أمام الجيش الغاريبالدي والذي نشرت الإشاعات عن اغتصابه الفتيات وسرقة المجوهرات، ولكن.. لا.. فهذه المدينة لم تغز، فقد تذكر أنهم مضوا لوداع الحجاج، ولكن... هل خرج سكان المدينة جميعاً؟ أيمكن هذا... كان كعسكري قديم يعرف كيف يصنع لنفسه نقاطاً علاّمة تدله على طريق العودة.. وفجأة سمع صوتاً بشرياً، فسعد. لقد افتقد الأصوات.. اقترب متعجلاً، ورأى أنواراً، ورأى رواداً عجائز وصبية فأدرك سبب عدم مصاحبتهم للحجاج، اقترب ليسمع صوتاً مسرسعاً لا يشبه صوت الرجال ولا صوت النساء، فأمعن في الاقتراب ورأى خيمة وشاشة منارة وظلالاً على الشاشة فأدرك أنه أمام الكراكوز فهزَّ رأسه ساخراً ومضى...

فجأة هجمت الفكرة: ماذا لو اهتدى إلى بائع نبيذ فاشترى منه بعض النبيذ ولم يحرج الآغا.. يا إلهي. أي حظ. لو.. وتعجل الخطا دون أن ينسى أبداً النقاط العلّامة فلا يجب أن يتوه، ولا يجب أن يسأل عن طريق العودة.

فجأة وجد نفسه في السوق الطويل، ولم يكن يعرف أنَّه في السوق الطويل، ولكنه رأى البسطات والعربات المغطاة والدكاكين والأنوار البعيدة في نهاية الشارع. قال: سأرى ما هذه الأنوار... لم يحتج الأمر منه إلى وقت طويل. ما أصغر هذه المدينة.

وكان حياً مسكوناً مناراً بالقناديل والفوانيس والشموع ولم تكن دكاكينه للتجارة، بل كانت مقاهي ورواداً كثيرين، وتساءل غير مصدق: أهو في دمشق حقاً، فقد كانت دمشق أخرى، دمشق مختلفة عن التي فارقها ولكن اللافتات كانت بالعربية. ومشى وهو يتشمم ما حوله مثل كلب صيد. كان يقول لنفسه: ليت حظي يكون طيباً فأجد خمارة، أو دكاناً لبيع النبيذ. أحسُّ حلقي يقتلني. أريد كأساً واحداً فقط.

تحسس جيبه، كان قد استعد قبل مغادرته البيت فحمل معه بعض القروش الفضية. ما يدريك، ربما احتجت إليها.. و.. وجدها. كانت الرائحة شديدة الفوح، وكان الباب مواربا لا يرى من في الخارج ما يجري بالداخل، فدفع الباب، وكان ما حلم به فاختار مكاناً منعزلاً، فلم يكن في مزاج الثرثرة مع الحاضرين وأشار إلى الخادم الذي حمل إليه جرة صغيرة وطاساً وصحن ترمس وضعها دون كلام.

* * *

مع أذان العصر كانت عربة حسن آغا تقف أمام البيت، وكان أول ما شغل باله هو برناردو، فترك أروى تدخل إلى البيت، ومضى إلى البيت المهجور،

ولكنه حين وجد الباب مواربا وحجر يمنعه من الانغلاق فزع، فلابد أن برناردو قد سئم وخرج من البيت، ولكن إلى أين يمضي هذا الغريب المطارد.

دفع الباب وأحكم إغلاقه، ثم عبر الدهليز، وهو ينادي بصوت خفيض برناردو، ولكن لا برناردو...لم يهتم باللوحة المعلقة على الحامل، ولا باللوحات المقلوبة مستندة إلى الجدار، فقد كان همه في برناردو.

دفع الباب الأول لغرفة المعيشة ولكن لا برناردو، كان يهتف باسمه طيلة الوقت وهو يقتحم باباً فباباً، ولكن ما خاف منه كان يعرفه في قلبه منذ رأى الباب الموارب والحجر يمنع الدلفتين من الانغلاق.

جلس على طراحة قريبة وأخذ يفكر: أين يمكن أن يكون، أو...هل قبضوا عليه. ثم تذكر: ولكن لماذا.. ما الذنب الذي ارتكبه منذ حضوره. أترى الخديوي قد أرسل من يلاحقه حتى دمشق. شمَّ الغليون القريب وكانت رائحة الحشيش المحروق فاغمة. رأى بقايا الطعام في صحون على جانب البحرة، ولكن أين برناردو.. أترى المطاردون المصريون قد عثروا عليه؟.. ولكنه في بحثه ولوبانه الهائج لم يلاحظ ظلَّ أروى التي كانت قد تسللت على عادتها تراقب البيت من خلف الدرابزين، فجأة انتصب وقرر أن يبحث عنه، وأن يقدم كفالته لو احتاج إلى كفالة، ورعايته إن احتاج إلى رعاية.

ما إن خرج من البيت وسمعت أروى صوت الباب ينغلق حتى اندفعت ترفع ثوبها إلى ما فوق الركبة حتى لا تتعثر به وهي تقفز الدرج درجتين فدرجتين، كانت تريد معرفة ما فعل باللوحة الفضيحة، لوحة الفم الفاغر والنابين البارزين. كانت تعرف أنَّها في رسمتها تلك قد تجاوزت كل حد ممكن، وكانت وهي ترى لوبان أبيها يبحث عنه قد أدركت ولو بشكل غامض أنَّها كأنها السبب في خروجه من البيت.

وصلت إلى الباحة، ولم تكترث للصحون وبقايا الطعام فيها، ولم تهتمَّ للغليون الذي شمَّه الآغا فعرف أنه قد استهلك كل حشيش تركه له، بل اندفعت إلى اللوحة على الحامل، وعرفت مباشرة الوجه الحيادي الوديع الذي أنجزته. وكان أول وجه كامل لا يحتاج إلى إصلاح أنف أو ضبط بؤرة العينين فيه.

وشهقت مرعوبة وهي ترى إلى الساقين.. ما هذا؟ لقد تجاوز جنونها بمراحل.. لم تمسَّ اللوحة، بل تركتها وعادت إلى الوراء مذعورة وكأنها تخاف لمسها..كان تعديله في الساقين فقط، فقد جعل من إحدى الساقين ذكراً متهيجاً ومن الساق الأخرى الفم الذي كان إلى الأعلى قليلاً، وكانت ربلة الساق منتفخة كأنثى حامل! ما معنى هذا. ما معنى هذا.. صرخت في رعب، ولم تحمل اللوحة كما كانت قد قررت، بل تركتها وهربت إلى غرفتها — المعتزل.

سمعت الخادم تسألها إن أرادت أن تتعشى، ولكنها لم تكن ترغب أصلاً في الطعام، فقد كانت متجمدة تنظر في ركن الغرفة لا تعرف ما تصنع بعد هذه الصدمة المريعة... فقد كانت تعتقد أنها وصلت في جنونها الذي لا تعرف له تفسيراً إلى الحد الأقصى، ولكن... أعوذ بالله. لقد تجاوزها إلى.. إلى... وأغمضت عينيها في ذعر.

- 22 -

تقلب برناردو في مضجعه قليلاً، ثم فتح عينيه. لا ... إنه ليس في إيطاليا، أم لعله في إيطاليا، وأغمض عينيه ثانية: هاهي الأحلام الكابوسية تعاوده. ولكن ضجيجاً بعيداً كدوي مختلط كان يتسرب إليه. ماهذا إنه ليس نائماً. أخذ الدوي يتضح. إنه قرع ناقوس بعيد. ما هذا. أهو في إيطاليا. كم مضى عليه ولم يسمع ضرب النواقيس؟ آه، ربما منذ أيام الإسكندرية.

فتح عينيه مرعوباً، وجلس. كان ما يزال في ثياب الأمس، وكان هناك صور للعذراء وصليب خشبي. ما هذا؟ قرص نفسه حتى أوجعها وصرخ. لا. ليس نائماً، فما الذي يجري إذن، بالأمس فقط كان ضيفاً على الرجل الكريم حسن آغا. ما الذي جاء به إلى هنا..انسحب من مرقده. انتصب. تأمل الأيقونات بعين المندهش، كانت شيئاً مختلفاً عما يعرفه من رسومات المادونات هناك.. حتى الصليب كان مختلفاً في شكل الأذرع، لا، لم يكن يشبه الصلبان هناك.. ما الذي يجري. أين أنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟

تقدم من الباب، فشقَّ الفتحة قليلاً، وفوجئ بالنور، النور القوي لم يعرفه منذ أيام باليرمو. نور جارح، ونساء يجهزن الخضار للطعام. كان في مشهد صقلي حقيقي، فالنساء، وجوههن، وجلستهن على الكراسي القصيرة، بروفيلاتهن، ثرثرتهن الهادئة غير المسموعة...

كان يتأملهن في حنين. لقد افتقد هذا المشهد منذ زمن طويل، الوجوه الحنطية والشعور السوداء، والهدوء والاسترخاء في النظرات.. أين أنا؟ قطعاً لست في بيت الآغا حسن، فالبيت حاشد بالناس والحياة، ثم هذه الأيقونات. سمع قرع الجرس البعيد. وفجأة تذكر.. وضرب جبينه بكفه. جنون الأمس وشربه العرق. كيف أقنعوه بهذا الشراب القوي. لقد سخروا من تخنثه وشربه النبيذ، فالرجال لا يشربون إلا العرق، ثم تطور الأمر ليسخروا من لهجته المصرية المرتبكة أصلاً، فكيف وصل إلى هنا؟ لمَ لم ترحل مع المصريين؟ أتراك كنت مختفياً، وأين.. وتطور الحديث من ممازحة ومشاربة إلى شجار.. وضحك في خفة وهو ينظر إلى قميصه فيرى تمزقه.. هل عاد برناردو إلى شبابه، وأيام الحانات وشجاراتها.

انفتح باب اكتشفه للمرة الأولى، وكان الباب الخارجي ودخل، فعرفه، إنه من أصرَّ على شربه العرق. أراد الانسحاب، ولكن الرجل التفت ليراه في شق الباب قبل انسحابه خجلاً، فهو يعرف الشرق وعاداته وكراهيته التلصص على النساء، ولكنه فتح الباب بقوة ودخل وهو يصرخ في مرح: مرحباً يا مصري.

* * *

كان بحثاً مضحكاً وكأنه أعمى يبحث عن أخرس، فلا الأخرس يعلن عن مكانه ولا الأعمى يستطيع الاستدلال عليه. كان يحوم ويحوم في الأسواق والحارات يفتش بعينيه ولا يجرؤ على السؤال، فعمن يسأل، عن الإيطالي الهارب من أوروبا لمطاردة الجميع له؟ أم عن المصري الهارب من الخديوي وآغوات مصر، أم..؟ قصد الكراكونات وقدَّم أعطيات صغيرة، وسأل عن أحمق مهوش اللحية والشعر يظن نفسه مصرياً تارة، وأوروبياً تارة أخرى، ولكن الجندرمة كانوا يأخذون أعطيته ويضحكون منه، فعمَّن يسأل، ومن هو هذا

المصري الكهل الضائع، والأوروبي بلا قنصلية تحميه، وأخيراً وحين أعتم الليل رجع إلى البيت، ولم يدخل بيته، بل مضى إلى بيت أمه المهجور على أمل أن يلقاه وقد رجع، ولكن البيت كان كما تركه خالياً إلا من الرسمات المجنونة.

وأحس بالجوع، يجب أن يتعشى فطول المشي أجاعه، ولما لم تكن لديه شهية فقد تناسى الجوع وعاد إلى بيته، واستحضر فانوسين كبيرين أضاء بهما الباحة ونادى وكأنه يرفع العتب عن نفسه وبصوت خافت: برناردو. برناردو، ولما لم يأته الردُّ اتجه إلى اللوحة المعلقة و...رآه...

كتم صرخة في حلقه، صرخة لم يصرخها مذ كان طفلاً وكانت أشباح الليل ترعبه، فقد كانت الرسمة صورة لإبليس، إنه إبليس ولا شك، ذلك الكائن خارج الجنس وسيد الجنس، إبليس الذي كان في ربلة ساقه ذكر وفي ربلة ساقه الأخرى أنثى فهو يزاوجهما حين يشاء، وينجب، ويملأ الدنيا أباليس دون حاجة إلى آخر يكمل به نقصه.

أذعرته اللوحة فابتعد عنها، ولكنها لسبب لا يدريه. كانت تشده كانت الرسمة لصبي فاتن لا أثداء لديه، ولا أعضاء جنسية، بل كان ممسوحاً وكأنه البطن الممتد، وضحك: ولِمَ يكون لديه أعضاء وقد ملك كل شيء في ساقيه؟

كان كاملاً بلا شهوة، وكاملاً بلا نشوة، وكاملاً بلا رغبة، وكاملاً بلا مطاردة، ما هذا.. ما معنى هذا؟...

كان الآغا غير متدين، وكانت مصر الأرناؤوطية والفرنجية قد أفسدت بقايا التدين لديه، ولكن خوفاً عميقاً، خوفاً خارج العقل والتحليل والتفسير كان يعمل فيه: حسن آغا ما الذي يجري هنا. هل خطف الجن ذلك الإيطالي الأحمق حين استدعاهم؟ هل كان صواباً تركه يقوم بهذا الجنون فيصورهم ويستدعيهم، وهاهو يستدعي سيدهم فيصطحبه إلى عالمه...

كان الآغا وحيداً رغم اشتداد ضجة العائدين من المودعين، وضجة الأطفال المتشكين، وضجة التذكير والأذان في المآذن إلا أنه كان وحيداً وحدة مطلقة، فما يراه ويعرفه كان لا يمكن أن يشارك به أحداً، فلو فعل لأباحوا دمه واستباحوا حريته، و.... أعوذ بالله. أؤوي إفرنجياً مطارداً في بيتي، إفرنجياً يصور إبليس ويستدعيه إليه.. أعوذ بالله. كل المصائب التي وقعت على المدينة منذ احتباس المطر والغلاء وانتشار الحمى الصفراء، لا سبب لها إلا استدعاء هذا الملعون المطرود من الرحمة.

تنهد في حزن كسير: ولو عرِفوا أنه المطارد حتى من أوروبا الفرنجية ومصر الخديوية فسيصبح من الأكيد لديهم أنّ هذا القحط والجفاف لا سبب له إلا هذا الإفرنجي الملعون الذي استدعى إبليس إلى هاهنا، إلى الشام شريف.. وأخذت الأفكار تتلاحق في رأسه وسمع أحاديثهم السرية: هذه المدينة التي كان الله يحميها، وكان المحمل يحميها، وكانت دعوات الحجاج المسافرين منها تحميها، فإذا بذلك المصري الملعون يرفع عنها الحمايات كلها، ويسمح بدخول الأفرنج الكفار والقناصل إليها، فإذا بها تنكشف عارية ولا حماية تحميها من غضب الله، ثم يكتمل هذا كله بانكشاف أنّ هذا الإفرنجي المغضوب الذي كانت المدينة تعرف أنه سيأتي ويأتي معه باللعنة، وهاهو يفعلها ويستدعي إبليس ليقضي على البقية الباقية من بركة المدينة.

انتصب مذعوراً يريد تمزيق الرسمة، ولكنه خاف خوفاً حقيقياً، خاف بعد الحوار الداخلي الطويل حتى أن يحدق بها فتحل عليه لعنة إبليس الذي خطف المجنون برناردو..

تراجع دون أن يستدير وحمل الفوانيس معه، ثم مضى إلى بيته شبه راكض، فذلك البيت الذي آوى مستدعي إبليس أصبح بيتاً مخيفاً، خطيراً، فما

يدريك ما التعزيمة التي يمكن أن تأتي به. ما يدريك ربما نطقت بها على سبيل الخطأ، وربما نطِق بها برناردو خطأ فجاء إبليس وحمله إليه... تنهد وهو يجلس على مقعده المألوف إلى جانب البحرة، خاف أن يمضي إلى فراشه للنوم، فماذا لو جاء وكوبسه. وارتجف.. ثم تنهد فجأة: المسكين. سيء الحظ، المطارد من أوروبا ومصر، وأخيراً المخطوف من إبليس. ما الذي جعله يقدم على هذه الحماقة.

كانت أروى تراقب الضوء في غرفة أبيها وما إن تأكدت من إطفائه الفانوس لينام حتى سارعت في شجاعة المراهقين لم تعلمهم الأيام الخوف بعد، وربما كان من حسن حظها أنَّ أمها قد تخلت عن شؤون الدنيا والتحقت بالحجة رضية، فتركتها تعيش مغامراتها الفنية على البسط حتى سئمت البسط، وعلى الخام الأبيض منذ عرفت بسكنى المصري في بيت جدتها.

عبرت الخرق في الجدار، فالدرج الخشبي، وكانت قد أخفت الشمعة مشتعلة تحت ساتر الفانوس، فلما وصلت إلى الباحة حررت النور المحبوس فيها، وأشعلت السراج الكبير، ثم حملت السراج إلى الرسمة التي أذعرتها، وأذعرت أباها حتى رأته ينسحب خائفاً، ولكن... ما الذي أخافه وهو الراشد عرف النساء وعرف الرجال فما الذي أخافه منها؟

كانت الرسمة أساساً رسمتها هي، وكل ما أضافه إليها هو إزالته الفم الفاغر والنابين المشهرين، وجعلهما مسحاً، كان قد غطاهما ببضع ضربات من لون لحمي فاختفيا وتساءلت: هل عدما، هل زالا بتغطيته لهما، ألن يظلا موجودين ما دمت أفكر في أنهما كانا موجودين وقد اختفيا تحت ضربات الريشة. لمست مكان المسح، كان اللون قد جفَّ فأخفى ما تحته، وفكرت: ألن

يستطيع رسام آخر إزالة هذا الغشاء من اللون فيتجلى ما تحته كالكابوس الـذي أرادت رسمه.

فجأة وعلى عادتها في سرعة اتخاذ القرار وفي سـرعة تنفيـذه دون مـساءلة طويلة أو تفكير حملت اللوحة، ومضت بها تقفز الدرج حافية القدمين في خفة، ثم تعبر بها الخرق إلى غرفتها فتعلقها، ثـم تـذكر الـسراج والـشمعة، فتـسارع ثانية إلى الباحة فتحمل السراج وتطفئه معيـدة لـه إلى مكانـه الأول، ثـم تحمـل شمعتها وتسترها بساتر الفانوس وترجع إلى غرفتها.

وضعت عدداً من الفوانيس والأسرجة أمام اللوحة لتتأملـها في هـدوء... لم يمسَّ الوجه، وهذا شيء رائع، فهذا يدل على تحـسنها، لم يستطع أو لم يـرد تعديله أو الإضافة إليه. أما.... – وعند قولة أمـا – سمعـت صـوتاً خافتـاً يـشبه صوت إغلاق الباب الخـارجي. مـا هـذا. قفـزت إلى الـدرابزين تطـل علـى غرفـة أبيها، كان هناك ضوء خافت يتسرب من غرفة الأب، تسللت على الدرج وأطلّت من نافذة غرفة أبيها تتلصص، ولكـن الأب لم يكـن هنـاك.. لقـد عـاد إلى حيـث ارتعب.

وقفزت كالمجنونة إلى السطح فالخرق، فالسطح، فالدرابزين وأطلـت. كـان الآغا قد أعاد إشـعال الـسراج وهـو يـدور في الباحـة كـالمجنون. وكـان يقلـب في اللوحات المسندة إلى الجدار، يقلبها غير مكترث لسقوطها أو كشطها، وسمعـت مواءه المذعور – يا رب. يا رب – تركتها هاهنا منذ قليل. أين اختفت؟

وأحست بالشفقة عليه. كانت ترى ذعره وارتباكه كما لم تـره في حياتهـا. كان وجهـه مضاء تماماً وكان الذعر والخوف الباديان غير بشريين حتـى لخافـت أن تصيبه نوبة ما. تمنت لو لم تحملها إلى غرفتها. وتمنت لو تستطيع إعادتهـا

فيطمئن، وتمنت لو لم تدخل هذه اللعبة أصلاً، وفجأة تذكرت: وأين المصري إذن؟ أين اختفى؟

وفي تلك اللحظة تماماً ارتخت ركبتا الآغا وكأنهما لم تعودا قادرتين على حمله وجلس على الأرض.

كان يمكن لها أن ترى في اهتزازه ما يرعبها. أتراه يبكي؟ وشهقت: وهل يبكي الآغا؟ فجأة أحست بالشفقة تغمرها، فانسابت الدموع من عينيها في بكاء صامت وقررت أن تحمل الرسمة وتعيدها إليه.. ولكنها.. رأته يلتفت في جلسته، فأحدّت الإنصات لتكتشف أنَّ هناك من يطرق على الباب، ورأت الآغا يتحامل على نفسه ويمضي إلى الباب الخارجي، فجرت كالمجنونة إلى غرفتها تحمل اللوحة وتركض إلى الباحة التي ماتزال منارة، فتعيد اللوحة إلى حاملها الأول.

عند الباب فوجئ الآغا بشيخ الحارة يخبره بأنَّ الحراس الليليين قد قبضوا على رجل مصري يزعم أنه ضيف على الآغا، وأنهم في الكراكون يريدون منه التعرف عليه. فتنفس الآغا الصعداء ومضى معهم.

تركت أروى اللوحة على حاملها ثم تسلقت الدرج.

- 23 -

نشرت عدداً من البسط أمامها، بسط ملونة بالأحمر والأزرق والأخضر، بسط انتشر فيها المسدسات إلى جانب المربعات والمثمنات، ولكن.. هذه البسط التي كانت تراها جميلة، وكانت تسمع أمها تتحدث عن جمالها أمام صديقاتها وتعرف أنها تغريهن بخطبتها وهي ذات الأصابع مستحقة زينة الذهب، وتسمع ثناء صديقات أمها عليها وتشهيهن بعضاً من هذه البسط، ولكنها تنظر إليهن بوجه ناشف مثل الكشك كما كانت أمها تعلق بعد مضيهن: البسط مكومة وقد صار لديك منها أكثر مما تريدين وستستعملين، فلم لم تهديهن واحداً، أو اثنين. سيكنَّ خير دعاية لك.. ثم تنظر إلى صدرها الأمسح، وكأنها تقول: فينسين عيبك....

تمنَّت لو أنها أهدتهن بعض هذه البسط، بل كلها، فلم تعد هذه المسدسات والمثمنات والأهلَّة تثير فيها الاهتمام. رمتها جانباً دون أن تهتم حتى لطيِّها الطيَّ النظامي كما اعتادت. قامت إلى رسماتها على القماش.. وجوه مستديرة، ووجوه طويلة وجوه لرجال يشبهون الآغا بشكل أو بآخر، ووجوه لنساء تشبهن أمها، أو الخادم التي بقيت في البيت، الأثيرة لديها، ولكن... وجه هذا الصبي.. لا لم يكن صبياً، بل امرأة مثلي. ولكن لا أثداء لها مثلي... تمتمت ضاحكة: والفم الفاغر ذو النابين؟ ثم أطلقت ضحكتها العابثة تعرف أن ليس من سامع لها. ولكنَّ ذلك المخشخش الملعون جعلها صبياً. لا...لا.. فكرت.. ليس

صبياً تماماً، وإذن.. ولم تجد الكلمة المناسبة إنه.. وفجأة قفزت الكلمة: ملاك... ولكنها تراجعت بسرعة: كيف يكون ملاكاً ولديه.. وضحكت في خجل.

أرادت العودة إلى البيت لتعيد النظر فيه، وتتأمله، ولوهلة ندمت على إعادته، فلقد أحسَّت أنه لها.. إنه أول رسمة مكتملة لا يعدِّل المخشخش فيها، ثم تراجعت والساقان؟ أستطيع تجاهلهما، أو مسحهما كما فعل مع النابين وضحكت... كان الأمر كله بالنسبة لها لعب أطفال ومزاحاً من البداية وحتى النهاية، وحتى هذه الخطوة التي وضعت فيها على غير رغبة منها الخطوة الأولى لعودة رسم البشر إلى بلاد حرمت منه منذ ألفي عام، لم تكترث لها ولم تهتم لها ولم تفكر فيها.

نظرت إلى الرسمات على القماش تنشرها أمامها. كانت وجوهاً كثيرة قد عدِّلت وضبطت وعاد إليها السواء في الأنف الحاد والعينين غير الحولاوين ولكنها لم تشعر أنها تعنيها. إنها ليست رسماتها ولو كانت تعرف التوقيع لإثبات الأحقية لما وقَّعت إلا على الرسمة التي أذعرت الآغا بحضورها وغيابها، وأحسَّت أنها يجب أن تراها ثانية. يجب. كان يجب أن تراها، فما يدريها. ربما أتلفها الآغا، فالذعر الذي عاشه أمامها، ثم بعد استعادتها.. وتنهدت في أسف: لا. لا أعتقد ذلك ممكناً خاصة بعد مجيء المصري المخشخش، لا. لن تستطيع خداعه هذه المرة، وخشخشته، ثم سرقتها أثناء نومه، فلقد رآها اثنان وستصبح الحكاية كبيرة، ولكن... يجب أن تراها.

وبسرعة كانت قد عبرت سطح الجدة وشمَّرت ثوبها لتقفز الدرج حين سمعت الباب الخارجي يفتح، وأدركت أنها قد تأخرت، فأرخت ثوبها

وانسحبت إلى ما وراء الدرابزين تراقب.. سمعت صوت رجلين، وعرفت أن الآغا قد استرجع المصري المخشخش.

رفع الآغا نور الفانوس ثم التفت إلى حيث كانت الرسمة وتجمد وعندئذ سمعت المخشخش يقول: شفت؟ اللوحة لسه في مطرحها، ولكنَّ الآغا مربوط اللسان لم يستطع إلا أن يحمل الفانوس ويرفعه قريباً من الرسمة ثم يفحُّ: ألم أقل لك. إنه إبليس.

نظر برناردو الصاحي تماماً إليه مندهشاً: أنت إيه. أنا عاوز أفهم. أنت ايه؟ ساعات بتكلمني كلام علمي قوي، بتتكلم عن الطهطاوي وعن مختار باشا وعن كتاب دوكنترا سوسيال بتاع روسو اللي أنت قريته بالفرنساوي وأنا لو ما كنتش عارف إنك ما بتكدبش لكنت قلت..

كان الآغا يتسمع إليه مهزوماً، ولكن اللوحة واضحة فتمتم مقاطعاً: بس..

وأكمل برناردو مقهقاً: أنت كنت فاكر أنه خطفني.

وقال الآغا وهو يحني رأسه: تماماً.

ورد برناردو: أديني قدامك... خلاص بقى؟

وصرخ الآغا فجأة يشير إلى الرسمة متشجعاً: وهذا الملعون. هذا الذي حرمه الله من الجنة. هذا الذي سخَّره الله لضلال الناس وعذابهم. ولكن برناردو المندهش تماماً من ثورته استوقفه: اسمع. اسمع. اهدا شوية. ثم بهدوء قال وكأنه راشد يهدئ خوف طفل: ده موش إبليس.

وأكمل الآغا محتداً: وماذا يكون إذن؟ إنها الصورة المعروفة عنه. إنه الجنس الكامل. ألا ترى؟ وأحاطه برناردو بذراعه في ود: طيب تعال. تعال. وشدَّه إلى مجلسه عند البحرة حيث أطباق الطعام النحاسية لم تنظف بعد، فدفعها كلها جانباً وأخرج من عبه زجاجة عرق...: تشرب معايا؟ ولكن الآغا

وقد أدار ظهره للرسمة التي نشرت كل هذا الارتباك فيه رفع كفه يشكره: لا. أشكرك.

وقال برناردو في إغراء وكانت أروى تراقب في لهفة، فهل يفعلها الآغا: يا راجل جرب، ولكن الآغا أصر على رفضه الشرب.

فقال برناردو: طيب على راحتك.

وصب لنفسه العرق في طاس غسله من البحرة ثم أضاف بعض الماء. وقال: أنا ما كنتش عارف أنه السوريين لسه عندهم بعد القرون دي كلها. لسه عندهم فكرة عن لوسيان والمسخرات بتاعته.

كانت أروى قد شنَّفت آذانها تريد أن تسمع ما يقال. كانت تتمنى لو أنها كانت معهما تسمع وتقول، ولكنَّ بُعْدَ مجلسها القريب من الدرج منعها من السماع، فلم يوصل إليها إلا بعض المقاطع والكلمات ومع ذلك فقد كانت مصرة على السماع فانسحبت من مجلسها بهدوء، وجعلت مجلسها فوقهما تماماً، فصارت تسمع. كانت تعرف أنَّ الحديث ليس إلا عن هذه البنت ممسوحة الصدر أو الصبي ذي الفم الفاغر والنابين اللذين غطاهما المخشخش، وكان يجب أن تعرف ماذا يقولان.

قال الآغا: أسترجع إلى لوسيان؟

وقال برناردو وقد جرع جرعة كبيرة من الشراب بيّضه بالماء: طبعاً. طبعاً، ده اللي أنت سميته إبليس وقام إلى حيث اللوحة. ده نكتة نكتة من نكت لوسيان.

وردد الآغا: نكتة؟

برناردو: طبعاً. ده في كتابه اللي اسمه قصة حقيقية بيحكي عن جزيرة سكانها كلهم رجاله. جزيرة ما فيهاش ستات.

الآغا: وما علاقة هذه الجزيرة بـ...بإبليس؟

ورد برناردو: ما هي دي النكتة. لأنه أنت حتسأل، وكل الناس حتسأل طيب وبعدين: إذا كانوا كلهم رجالة دول منين حيجيبوا عيال عشان ما يفنوش، هوه لقى الحل بكده. الناس في الجزيرة بيكونوا ستات لغاية ما تطلع لهم دقون وشنبات، ولما يعوزوا يخلفوا.. أهه. زي ما أنت شايف. رجل راجل ورجل ست، ورشف رشفة كبيرة من طاسه وأطلق ضحكته المجلجلة، بذمتك موش ده أريح؟

وقال الآغا يتلفت من حوله في ارتباك: يعني... يعني... هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم..

وقال برناردو وقد أطلق العرق لسانه: صحيح.. زي ما فهمت بالضبط.. بس الحق. لوسيان كان بيسخر من الجماعة بتوع أفلاطون والجماعة السفسطائيين اللي جم بعدهم واحتقارهم للمرأة..

وقال الآغا في ضعف: ليست الفلسفة اليونانية فقط من تحتقر المرأة.

برناردو: لا.. أنا قلت أفلاطون لأنه قالها بصراحة: أنه الراجل الكامل موش لازم يصغر عقله ويهتم بمخلوق ناقص زي المرأة.

الآغا: وإذن فما الذي كان يريده؟

برناردو: الحب الأفلاطوني. يعني ما فيش غيره. حب الرجالة...

وأطلق قهقهة جعلته ينقلب على قفاه ويسكب الطاس على صدره، وجعلت الآغا يتركه يحاول القيام لبرهة فقد كانت الفكرة ما تزال تعتلج في ذهنه لكنه انتصب وساعده على العودة إلى كرسيه الصغير ثم تجرأ، فمضى إلى اللوحة حاملاً سراجه يحدق فيها، وفجأة خطرت له الفكرة، فالوجه يشبه وجه أروى... وتساءل في سره: كأن الوجه وجه أروى ولكنه سأسأ رافضاً..لا..لا.. وأين له أن يراها؟

- 24 -

صممت أروى على استعادة رسمتها التي أخطأت بإنزالها إلى المصري المخشخش، ولكنها وهي تتقلب في فراشها كانت تعرف أنّ لعبتها القديمة في خشخشته وتبديل الرسمات عارفة أنه لن يخطر له ولا في أشد أفكاره جموحاً أنّ أروى يمكن أن تفعلها، ولذا، ولهذا التفسير فقط فقد فعلتها، ولكن... الآن هناك شاهدان وواحد منهما هو أبوها والذي كاد اختفاء اللوحة يقوده إلى الجنون، ولن تغامر هذه المغامرة من بعد

انتصبت من فراشها وقالت بصوت عال: من فعلها مرة يفعلها مرتين. وكان الفجر قد بدأ تسلله عبر الستائر. فاتجهت إلى النوافذ ورفعت الستائر عنها فانتشر الحليب في الغرفة. قالت لا بأس. أؤسس للرسمة في انتظار انجلاء النور الحليبي. شدّت قماشتها وأخذت في التأسيس.

في الوقت نفسه كان الآغا الذي تقلب ليله كما تقلبت ولكن لسبب آخر. فحكاية لوسيان وأفلاطون وسكان جزيرة الرجال لم تغادره، ولكن... ولكنه إبليس كان يتمتم، وكل السير التي قرأها حين تتحدث عن إبليس كانت تصفه بهذه الطريقة. وتوقف: وماذا لو كان غير ذلك فكيف سيتكاثر ولا أنثى له. توقف قليلاً، وفجأة انتصب من مجلسه: حسن آغا. حدّد موقفك. حدّد موقفك. أأنت كما تزعم لنفسك ابن للكونتراسوسيال وروسو، أم للقزويني وابن الوردي. ابن من أنت؟

وعند هذا السؤال سمع جرّ القبقاب على البلاط في الباحة، فأدرك أنّ الخادم قد استيقظت، و.. أحس بالجوع. جوع حقيقي. كانت بوادره تداعبه منذ سهرة الأمس مع هذا المطارد من قارتين.. وأعجبته التسمية. صحيح سيسميه منذ اليوم طريد القارتين، وهكذا أخذ اسم برناردو يختفي ليحل محله اسم المصري المخشخش، وطريد القارتين.

انسحب من فراشه. قال: يجب أن أراه مرة ثانية وفي ضوء النهار أريد التأكد من.. أنه ليس إبليس. كان يريد قول شبهه بأروى، ولكنه امتنع حتى عن التفكير بهذا..

اغتسل عند البحرة، فقد انسحب الضوء الحليبي من الباحة، وأخذت أروى تضع الخطوط الأولى للوجه وكانت حريصة هذه المرة على ضبط الأنف. قالت لنفسها: الأنف مفتاح الوجه، أما العينان فسنؤجل ضبط النظرة فيهما. أروى صانعة البسط والفنانة في رصف المثلثات والأهلّة والخطاطيف المعقوفة صار عليها الآن أن ترصف جديداً لم تعلمها إياه أمها ولا صانعات بسط المدينة، بل ربما لم يمارسه واحد، أو واحدة في البلد منذ انتشار المسيحية وعداوتها الرهيبة للتماثيل والصور منذ تحطيمها للأصنام وإحراقها المعابد الوثنية والمكتبات، هذه العداوة التي حملتها فيما بعد الآريوسية والنسطورية طويلاً. ولكنها وهي من رباها الآغا على مكتبته – قالتها بفخر – هذه المكتبة التي غيَّرت فيها الكثير، وجعلتها لا تنضم إلى أمها في حلقة الحجة رضية، وتوقفت قليلاً: هذه المكتبة أتراها غيَّرت فيه أيضاً؟ وبسرعة قالت: طبعاً، وإلا فمن هي البنت في الحارة كلها، التي قرأت ما قرأتُ وعرفت ما عرفتُ؟ بل من البنت التي تركت لها الغرفة العلوية تسرح وتمرح فيها مستقلة عن أمها ورفيقات أمها، بل حتى بعيداً عن الآغا... وبهدوء ناطحتها الفكرة: أتراها غيَّرت فيه

حقاً؟.. وتذكرت آسفة معايرة أمها الجارحة له مرة إثر مرة: معجب بالفاسق المصري؟ لمَ لم تمض فتحارب معه إذن؟ هه... أرسلت بالطفلين لا يعرفان مصلحتهما ليحاربا ويموتا غير شهيدين، بل عاصيين للسلطان وولي الأمر..

وضعت الريشة من يدها وفكرت: صحيح، الآغا يصلي الجمعة مع أهل الحارة ويجعلهم يعتقدون أنه يصلي بقية الفروض في البيت. لماذا... سمعته مرة يقول: حتى يحفظ مقفاه، وهو يعني حتى يمنع أهل الحارة من اغتيابه و... كادت تصفّر: ولكن ماذا لو عرف أهل الحارة باستضافته المصري المخشخش الذي يرسم النساء عاريات الصدور. وضحكت في خبث وهمست كأنما تمرر سراً إلى صديقة: أروى أنت ابنة أبيك... لا. لست ابنة أمك.

وسمعت صوت اليد النحاسية تطرق باب بيت جدتها، فأدركت أن الآغا قد مضى للقاء المخشخش. تأملت القماشة ومخطط إبليس كما سمَّت رسمتها داخلياً، ثم قفزت إلى المشرقة، فالدرابزين، وقرفصت تتأمل ما يجري.

كان الآغا وهو من يحمل مفتاح الباب قد اعتاد على قرع الباب لينبه برناردو إلى قدومه، ولكنه حين تأخر في الرد دخل ووضع على جدار البحرة الصينية التي تحمل صحون الإفطار التي أعدَّتها الخادمة، وضعها بهدوء، وأخذ يرتبها ويعيد ترتيبها وكأنه يلهي نفسه دون أن يجرؤ على النظر إلى حيث اللوحة، فجأة ترك الصينية والصحون، واتجه مباشرة إلى حيث لوحة إبليس كما سمعت أباها يسمي الرسمة ممسوحة البطن صريحة الساقين الفاجرتين.

وقف يتأملها ويمعن التأمل وكأنه يدرسها ليعيد رسمها. تأملها حتى تعبت من قرفصتها غير المريحة تخاف أن يراها، فحولت قرفصتها إلى جثوة، وما يزال الآغا يتأمل. سمعت حركة فالتفتت ورأت المخشخش يخرج من غرفته

مندلق الكرش كعادته مفتوح أزرار الصدر، فيتقدم من البحرة والآغا مستغرق في تأمله. غسل المخشخش رأسه كله على عادته وأثار من الضجة ما يكفي لتنبيه الآغا، ولكن الآغا كان مسحوراً منغمساً في تأمله، وتمتمت لنفسها: أتراها رسمة لإبليس كما زعم الآغا؟

نفض برناردو رأسه ككلب يخرج من الماء فابتسمت أروى لفعلته، وأخيراً لم يحتمل تجاهل الآغا له كما اعتقد، فصرخ: هيه. نحن هنا. ولاحظت انتفاض الآغا. لقد ارتعب. أكان مستغرقاً إلى هذا الحد؟ وصرخ برناردو: هه. ايه عجبك إبليس؟

وارتبك الآغا، فرجع إلى حيث برناردو، وقال: تعال نفطر..

جلسا على الأرض ونقلا الطعام مع صينيته النحاسية حيث وضعاها بينهما وبدآ الطعام. كانا يأكلان في صمت حتى سئمت أروى، ففكرت بالانسحاب حين سمعت المخشخش يقول: أنا كنت باتمنى لو أعرف أقرا عربي.

وقال الآغا: لماذا؟

فقال برنارد: عشان أقرا ألف ليلة تاني. أنت عندك نسخة منها موش كده؟

وتلفت الآغا من حوله كمن يخاف أن يسمعوا اعترافه المشين، وقال: نعم، وابتسمت أروى وتمتمت لنفسها: وأنت فقط؟ وفجأة أصيبت بالرعب. ماذا لو بحث عنها الآن، يجب أن تعيدها إلى مكانها. كانت قد استعارتها، فهي تقرأها كلما سئمت.

وأضاف برناردو: أنا قريتها بالفرنساوي. وعرفت أنها تترجمت للإنكليزي، بس ما قدرتش أوصل للترجمة الإنكليزي.

وقال الآغا في سأم وهو يشيح بيده: ما علينا. ليس هذا بالأمر المهم.

وقال برناردو بفمه الملآن: بس ده مهم. اسمع. أنت فاكر حكاية الطير الكبير قوي واللي بيضته قد... بحث عن كلمة تعبر عن الضخامة، وأخيراً وجدها.. أيوه قد القبة.. أيوه القبة.

وقال الآغا يرشف رشفة حليب دافئ: أنت تقصد الرخ؟

وهز برناردو رأسه: موش عارف إن كان هو نفسه لأنه لوسيان بيسميه الأليسون.

وقال الآغا: هل تتحدث عن الطائر الضخم على الجزيرة وبيضته العملاقة كقبة التي يتعثر بها السندباد وبحارته؟

وهز برناردو رأسه وهو يبتلع لقمة البيض الكبيرة: تماماً.

وقال الآغا وهو يضع اللقمة في الصحن ثانية: وهل ستقول إن لوسيان قد تكلم عن الرخ وبيضته العملاقة أيضاً.

وضحك برناردو في قعقعة: تمام.

وهز الآغا رأسه يميناً وشمالاً في نفي: عمّ تتكلم. لابد أنّ هذا اللعين الذي دلَّك على طريق العرق قد أفسد عقلك.

وقال برناردو مبتسماً: ليه؟

وقال الآغا كمن يدلي بالحجة المفحمة المثقفة: لماذا؟ لأن هذه الحكايات الموجودة في ألف ليلة والتي تعجب فيها كثيراً كتبت أو رويت منذ بضع عشرات أو ربما بضع مئات من السنين ولكنها لن تتجاوز عصر العباسيين، فكيف قرأها لوسيان وهو من سبقهم على الأقل بست مئة أو سبع مئة سنة.

ونظر إليه برناردو للمرة الأولى بجدية، ثم خاطبه بلقبه الرسمي: حسن آغا أنت بتعمل إيه؟ بتقرا التاريخ بالمقلوب؟ الرأس تحت والرجلين فوق؟

الآغا: ماذا تعني؟

برناردو: الجماعة اللي كتبوا ألف ليلة هم اللي قريوا وإلا نقولها بطريقة تانية. همه اللي سمعوا حكايات لوسيان.

الآغا: ما زلت لا أفهم.

برناردو: أنت فاكر ايه. لما العرب جم على البلاد ديه ونشروا الدين الإسلامي وخلوا اللغة العربية هي اللغة الرسمية.

ورد الآغا محتجاً: ولكن الناس هنا كانوا عرباً أصلاً.

برناردو: ممكن. بس عرب لهم طعم تاني. جماعة غسان وجماعة المنذر بالعراق كان ليهم لهجة تانية لهجة قريبة قوي من العربي اللي بتعرفوه في القرآن بس موش هيه نفسها.

وقال الآغا في حرد: وماذا بعد؟

برناردو: بعدين ولا حاجة. لوسيان وملحمة هوميروس. كلها دي تحولت إلى حكايات، النسوان العجايز بيحكوها وشوية شوية ضاعت منها السخرية بتاعة لوسيان، وحكاية جزيرة الرجالة اللي حكيتهالك واللي لوسيان بيألس فيها على جماعة أفلاطون، أهمه لزقوها بإبليس على أنها حقيقة.

الآغا: لكن إبليس مذكور في الكتب كلها.

برناردو: أنا موش حاناقشك بده، بس ما فيش ولا كتاب قال إنه كان له رجل دكر ورجل نتايه. ده اللي بقي من حكايات لوسيان.

اعتمد على ذراعيه وركبتيه ليقوم: على كل الموضوع ده كفاياه. قوم بينا.

الآغا: إلى أين؟

برناردو: المسرح. الكوميضا. التياترو. يا صديقي العالم بيبيجي لعندك، لغاية هنا، قوم بينا نتفرج، ويمكن ربنا يفتح عليك بفكرة قوم.

كانت هذه هي المرة الأولى تسمع أروى فيها بهذا العالم الغامض المسمى بالكوميضا. ولكن الكلمة رنَّت، وكأنها ذكرى لعالم عرفته فيما مضى، متى.. لا تعرف، ولكن الكلمة بحدٍّ ذاتها جعلتها تحس بالنشوة، وفجأة أحست موجة من الرعب تغطي النشوة حتى لفكرت عدة مرات أن تدفع بنفسها إلى الباحة كاشفة عن تلصصها لتمنع أباها من المضي إلى ذلك العالم الغامض الذي سمعت المخشخش يسميه بالكوميضا.

- 25 -

على الطريق المسمى بالسوق الطويل والذي كان يشق المدينة من الشرق إلى الغرب كان الرجلان يمشيان بين العربات ونداءات الباعة وبقاع النور الهاربة من مظلات الخيش وقطع القماش المهترئة. كان هنالك بساط أو اثنان، وسجادة أو اثنتان، كانت مظلات مهجَّنة من بقايا بسط اهترأت ولم تعد تصلح للاستخدام في البيت، ومن سجاد لم يعد يصلحه الرفو، ومن لم يكن لديه هذا الترف اكتفى بأكياس خيش وصلها إلى بعضها البعض وصنع منها مظلة.

كان الآغا ينظر إلى مشيه مع برناردو في سخرية، فهذا الإيطالي الغريب يصبح دليله في مدينته.. كانا يتقدمان إلى المنطقة العجيبة من المدينة، منطقة الناس الآخرين في المدينة، حارة اليهود، وحارة الشيعة، وحارة النصارى. ما الذي جاء به إلى هذه المنطقة. تمنى لو يعبرها بسرعة إلى الشيخ رسلان ذلك الذي حمى فيما مضى البرَّ والشام من هجمات الصليبيين، الشيخ رسلان حيث المتنزهات على النهر...كان يعرف أن هذا الذي يسميه بالكوميضا لابد أن يكون هناك في الشيخ رسلان، فكل البدع تتم هناك خارج أسوار المدينة، فهناك يتم تكريس المغنين والمغاني، وهناك يعترف بالعازفين وبالراقصات فإن قبلهم جمهور الشيخ رسلان ومتنزهاتها بين النهرين كرسوا، وإن رفضهم انحدروا وانحدروا حتى يضيعوا في النسيان. كان قد زار متنزهات الشيخ رسلان عدة مرات ومع عدد من الأصدقاء الذين انقطع عنهم منذ رحيله إلى مصر، ولو لم

يعرف أنَّه ماض إلى الشيخ رسلان لما صاحب طريد القارتين هذا. وقال برناردو وهو ينظر من حوله: □ يا أريكتا.

فالتفت إليه الآغا: ما الذي تعنيه؟

وأجابه برناردو: اسمه في العصر اللاتيني ، ثم ترجم فيما بعد إلى السوق الطويل.

ونظر إليه الآغا في سخرية خفيفة: بعض العلم لا معنى له.. وليس إلا فضولاً.

وفجأة انحرف برناردو إلى اليسار فاستوقفه الآغا: هيه إلى أين؟ إلى أين؟ الشيخ رسلان. هناك في الأمام.

وقال برناردو: بس الكوميضا هنا.. تعال.

في تلك اللحظة ولسبب غامض برز أمامه الحجي، نبع من لا مكان، وتقدم منه يسلم عليه، فلم يكن قد رأى برناردو والذي مشى إلى الأمام يتوقع لحاق الآغا به، واضطر الآغا إلى مسايرة الحجي الذي كان يعتقد أن الآغا متوجه إلى الشيخ رسلان. وكان آخر ما يتخيله أنّ الآغا حسن بن الآغا محمود المرعشلي يمكن أن يدخل إلى حارة النصارى، وما الذي سيصنعه هناك.

توقف الآغا قليلاً حائراً بين اللحاق ببرناردو، وهو لحاق فيه ما فيه، فالدخول إلى حارة النصارى بدعة لم يكن في حاجة إليها، ورؤيته يدخل إلى حارتهم سيجلب له الكثير من الحكي، والكثير من الغيبة، فالدخول إلى حارة غريبة لم يكن مستحباً أصلاً، فماذا عن الدخول إلى حارة النصارى...

وقال الحجي: هيا. وأمسكه من ذراعه يشده: هناك منشد جديد لابد أنك ماض إليه، فوجوه الشام كلها ماضية لسماعه. هيا.

ولكن الآغا كان ما يزال على تردده. هل يتخلى عن برناردو، وماذا لو عرف أحدهم أنه إفرنجي وأنه طريد القارتين. أي حظ سيء سيكون وبعد كل

هذه الجهود التي بذلها لحمايته. كان يعتمد في مصاحبته له على قدرته على لفلفة الأمور لو طرأ طارئ. أما تركه وحيداً؟

تحرك الحجي: لقد تركوا لنا مقعدين متقدمين. هيا...

وهنا التفت الآغا إليه: لنا؟ وكنت تعرف أنك ستلاقيني هنا؟

وأحرج الحجي الذي لم يكن يعرف أنه سيلقى الآغا، بل كان المقعد محجوزاً للشيخ زهير الذي اعتذر لظرف خاص به، ولكنه بذكائه الذي يخلصه من المآزق عادة قال مازحاً: ماذا. هل تشك في قدرة الكشف عند أهل الله؟

ولم يستطع الآغا الاعتراض، فمضى معه. وعندما ابتعد بضع عشرات من الأمتار التفت الآغا ليجد برناردو يقف في فتحة الحارة ينظر إلى ابتعاده في ذهول.

* * *

كانت فرصتها الذهبية فهي واثقة من غيبتهما لوقت طويل تستطيع فيه إنزال رسمتها غير المنجزة لتضعها إلى جانب لوحة إبليس كما صارت تسميها ومحاولة نسخها في لوحة تحتفظ بها، فهي تعرف أنّ هذه الرسمة والتي أيقظت فيها كل كوامنها لم تعدلها، فهي منذ تركت المخشخش يعدل فيها هذا التعديل العجيب، ومنذ اطّلع الآغا عليها، فصارا اثنين وليس من الممكن خشخشة اثنين.. منذ ذلك الحين أصبحت اللوحة غريبة عنها، وصار عليها أن تصنع لوحتها الخاصة، وهكذا أخذت معالم الوجه الشيطاني البريء، الذكري الأنثوي، أو فلنسمه اسماً محايداً، فهو ليس ذكرياً ولا أنثوياً، ولكنها كانت تحدق فيه مفتونة: فيه مني الشبه الكبير، فكيف يتم هذا. أيمكن أن يرسم الإنسان نفسه دون أن يراها. أيمكن أن يجعل من نفسه موضوعاً وهو صانع الموضوع. أتراها كانت تعيد رسم صورة رسمها كثيرون من قبلها، أم أنها تعيد

صناعة ذلك السوري الذي تحدث عنه المخشخش وسماه.. ماذا سماه.. إنسان.. سهيان.. كيف سماه...

فسد نهار برناردو الذي كان يريد أن يعرِّف الآغا على الكوميضا، وما كان له أن يعرفها في مصر، فقد كان ما يعرض هناك عروضاً خاصة بالأجانب، وبالفرنسية، أو بالإيطالية، وما كان له أن يعرفها، ودمشق كانت مدينة محرمة على الإفرنج أصلاً قبل مجيء المصري إبراهيم باشا الذي فتحها أمامهم. واستقدم قناصلهم، ولكنه لم يستقدم الكوميضا، وهاهو يجد الصديق الجديد في غسان الذي علَّمه على شرب العرق، وصحبه إلى الكوميضا.

كانت فرقة متواضعة ذات خلفيات متواضعة الرسم وعدد من الممثلين متواضع، وإن صحبت معها نصوصاً من الكوميديا ديللارتي كانت قادرة على إضحاك جمهور لم يكن في معظمه يعرف الإيطالية، ولكن هاهو الآغا يهرب منه.. لماذا.. لماذا نظر إليه تلك النظرة المواربة العاتبة ثم مضى؟ أكان عليه أن يلحق به، أم كان عليه أن يناديه؟ ولكن نظرته المواربة لم تكن نظرة داعية، بل كانت نظرة لوم. علام يلومه وما الذي أخطأ فيه؟ كان قد قالها له صراحة: سنمضي إلى الكوميضا، وحين عجز عن شرحها له قال: رجال ونساء يقفون على منبر عال ويتحدثون وكأنهم يعيشون حياتهم الخاصة.. و..لم يفهم الآغا، أو أنّ ما فهمه لم يكن جذاباً بما يكفي، فتركه ومضى إلى الأمام، ولكن... يتركه... لماذا؟... كان بإمكانه الاحتجاج. كان بإمكانه إبداء رفضه القاطع لهذا الفن، أما..لا. لا. ليس هذا هو الآغا الذي يعرفه.

مضى إلى حيث الصديق الجديد غسان والذي استقبله بترحاب: مرحبا يا مصري.

كان واحداً من الجند الذين انضموا إلى إبراهيم باشا، وحاربوا في الأناضول واليونان وكريت، فأحسوا بأن دماء جديدة قد دبت في عروقهم بعد طول بلادة. وكان يتحدث إلى برناردو على أنه مصري، وكان يعتب على المصريين أنفسهم أنهم لم يقدروا ذلك الرجل حق قدره، فهذا الأرناؤوطي خرج بهم من مصر بعد أن علّمهم العسكرية، وكان في طريقه إلى إدخالهم العصر. كان يثرثر ويثرثر في سعادة يحدث عن تلك الأيام السعيدة التي سرعان ما انقضت ككل شيء جميل.

كان برناردو يفكر ما الذي حصل لهذا العالم، نابليون وإخراجه الفرنسيين من بلادة فرنسا الملكية وتدخل الخوارنة في كل تفصيل من تفاصيل حياتهم، والثمن الفادح الذي دفعوه من شبانهم حين وصلوا إلى الروسيا وعكا. ولكن.. سرعان ما ارتد المد ليصبح جزراً، وكان على أوروبا أن ترضخ لما كان قبل الثورة مع مترنيخ، أما في إيطاليا فكان يضحك في مرارة: كانت حماقتهم هي ما خربت بيتهم، حماقتهم التي جعلتهم لا يصغون إلى ذلك الروسي العجيب باكونين: الدولة هي الاستبداد، لا الحرية. ولكن... أيمكن للناس أن يعيشوا بلا دولة، كان هذا رد غاريبالدي، و كان يصغي إلى هذا الحوار الجليل في افتتان، ولكن هاهي فكرة باكونين تثبت صحتها، فما إن صارت الدولة إلى يتوريو حتى بدأ السواد، وبدأت مطاردة الحالمين.

وقال غسان: كان حلماً لم نعشه منذ زمن طويل، أتعرف أنهم قد رفعوني إلى ملازم.

وقال برناردو: وما انضميتش ليه لجيش الوالي؟

فانكفأ غسان يقول في أسف: لم يريدوني، أو لم أردهم، ثم انقلب إلى التهريج. والخمارة اشتريتها من نقود التعويض وهذه تكفيني، وسأشتري

لابني محلاً للصياغة إن استطعت جمع ما يكفي من المال. لا. الأمور لا ترجع إلى الوراء.

وشرد برناردو: ما ترجعش لورا أمال إيه اللي حصل في أوروبا؟ وهنا هُـه في مصر وفي الشام..؟

كان الوقت مبكراً على الكوميضا، وكانت فرصة لبرنـاردو ليـشرب العـرق ويشرب حتى لم يعد يستطيع الانضمام إلى غسان في الكوميضا، ولم يعد يـستطيع العودة إلى بيت الآغا... فيقبضون عليه يترنح ولن ينقذه من أذاهم حتـى صديقه الآغا.. كان يعرف ذلك، ولذا فقد استسلم ليدي غسان تشدانه إلى غرفة في خلفية الخمارة وتركه يستلقي فيها حتى يصحو.

كانت أروى ترسم كالمجنونة، لم تكن تبدع، ولم تكن تجـدد، بـل كانـت أداة في يد أخرى تسيِّرها لتصنع ذلـك الوجـه العجيـب والـذي كانـت بـشكل ما تعرف أنه يشبه وجهها. وجه جميل، ولكنه حائر بين الذكري والأنثوي، أما خصلات الـشعر المجعـدة المحيطـة بـه فقـد كانـت محايـدة، وقـد علـق عليهـا برناردو فيما بعد: شعور تلاقيها على التماثيـل والرسـوم الـسورية في المتـاحف الإيطالية.

سمعت الطرق النحاسي على البـاب، فأدركـت أنهمـا قـد عـادا، وبـسرعة حملت رسمتها وأدواتها واندفعت على الدرج هاربـة بكنزهـا، عـادت بهـدوء، وكمنت عند الدرابزين تراقب ما سيفعلان، ولكن المفاجأة كانـت في أنّ مـن دخـل كان الآغا فقط، فأين المخشخش إذن؟

تطاولت بجسدها في مخاطرة ولكنها كانت تريد أن ترى المخـشخش، وما الذي سيفعله حين يرى الرسمة، ولكنه لم يكن قد رجع مع الآغا. لماذا؟

سمعت الآغا ينادي في ضعف غير واثق: أبو عبدو... ولكن أصحيح ما سمعت أذناها، ولكن لماذا يناديه بهذا الاسم غير المصري. لماذا؟

جلس عند البحرة حزيناً كمن فقد عزيزاً، كان ضوء العصر يغادر العالم، ولكنها كانت حريصة على أن ترى ردة فعل المخشخش على رسمته ذات الساقين الفاجرتين ولكنه لم يأت بعد، والآغا لم يمض إلى الرسمة يتفحصها على عادته.

أخذ الغروب يحط والآغا يشيخ في جلسته منحنية الظهر تلك. لماذا؟ هل حصل شيء للمصري المخشخش، وأخذ حزن غريب يغمرها، هل حصل شيء لذلك المخشخش، وأبوها؟ ما الذي يكربه إلى هذه الدرجة؟ تمينت لو تملك الجرأة فتنزل وتعانقه، ولكن هذا سيدمر كل شيء. عادت إلى غرفتها. نظرت إلى الرسمة. إنها تحتاج إلى لمسات كثيرة قبل أن تقول إنها انتهت، ولكن الوجه، الوجه الغريب. ما الذي جعله يشع بهذا الجمال الغريب المغري...لا. لم يعد يشبه الرسمة التي تركتها تحت، ولم يرها الآغا ولا المخشخش بعد، قربت السراج القوي من الوجه. أعوذ بالله... فتنة صافية، فتنة مغوية.. غيّرت موقع السراج ونظرت إلى الساقين. ما الذي أغراها بالتنازل عن الفم الفاغر والنابين المشرعين. ما الذي أغراها بالساقين الفاجرتين. الساق الذكر، والساق الأنثى..كان يمكن أن يقال إنها فوجئت بهذه التغيرات، ولكنها... أكانت هي من يرسم أثناء ذلك الهياج العجيب الذي تملّكها ساعات النهار كلها قبل سماعها المطرقة النحاسية على الباب تستأذن المخشخش... طبعاً كانت هي ولكن.... أسئلة كثيرة وجديدة ألحّت عليها.. ولوهلة فكرت في مسح الساقين كما... ولكنها وجدتهما معبرتين عن شيء لا تعرف التعبير عنه في قلبها.

تركت الرسمة في موقعها والسراج أمامها ومضت إلى الدرابزين تطل على الباحة. كان الآغا قد مضى.. تساءلت: أتراه رأى الرسمة قبل أن يغيب، ولكن... تسللت على الدرج بهدوء خائفة أن يكون الآغا جالساً في مكان ما ينتظر المخشخش، ولكنه كان قد مضى.

مضت إلى حيث الرسمة التي تركتها قبل قليل وقد رفعت قوة النور في المصباح المعلق قريباً، وفوجئت. الحق أنها فوجئت، فمن عبث باللوحة. من مسح الإضافات على الساقين وأعادهما ساقين طبيعيتين وأعاد الفم الفاغر إلى ملتقى الساقين والنابين المشهرين. من. من؟ كادت تصرخ. أهناك من يعابثها. هل عاد المخشخش في غيابها. ولكنه لم تتح له الفرصة، فمن عبث بالرسمة إذن؟ فجأة أحست بذعر لم تكن تظن أنه سيتملكها يوماً، ولكنه شيء أكبر من الذعر، أكبر من برودة الكفين والقدمين، أكثر من انتصاب شعر الرأس والجسد، أكبر من تشنج المعدة. ما هذا. أهناك من يعابثها في رسمتها، أهناك من يقوّلها ما لا تريد قوله، أهناك من يحرك يديها وريشتها إلى ما يريد. وإذن؟

رفعت يدها كمن يحمل سكيناً للطعن وضربت الرسمة ولكن يدها لم تكن تحمل سكيناً ولا حتى ريشة، فلم تزد ضربتها عن ثني اللوحة إلى الداخل قليلاً. ولكن الضربة كانت قوية بحيث رأت الرسمة ترتعش فوق حاملها، فاختلطت المرئيات حتى لكأن الروح دبت في الرسمة، فصرخت مذعورة وجرت إلى الدرج، ولكن الدرجات الأولى وصوت قدميها المدوي على الخشب جعلها تتوقف قليلاً، وتنتبه إلى أنها ما تزال تحمل الفانوس، فعادت ووضعته حيث كان وانسحبت إلى غرفتها.

- 26 -

العلاقة الجديدة التي قامت بين الشاويش والحجي لم تكن صداقة، ولم تكن رفقة بل... كان الشاويش يتساءل وهو يتفحص ما يمكن أن يكون قبوراً ضحلة للعجبة من المواليد: ماذا تسمى إذن؟

أشعل كانونه في الكوخ الموجود في المقبرة، وأشعل غليونه الطويل الذي عاد إليه منذ أن أهداه أبو العريس الميت هذا الشُبُك، وأهداه كمية من التبغ. قال: ستتسلى وأنت تقوم بمهمتك.

قبل يومين جاء إليه الأب ومعه الإخوة وأبناء العم يشكرونه أن حمى جثة العريس من الضباع ويطلبون إليه الاستمرار في حراسته لفترة أخرى، وسيكافئونه عن قادم الأيام بمثل ما كافأوه عن الفترة السابقة، وأعجبته الفكرة، فالقحط الصارم واحتباس المطر ضيَّق على الناس عيشهم وجعلهم يبيعون أشياءهم القليلة ليشتروا الخبز وكان الضيق أشدَّ على من لا عمل له إلا انتظار عطف الوالي أو السلطان يستعيده إلى الخدمة في الجيش الذي لم يتقن عملاً غيره.

دخّن نفساً طويلاً أدار رأسه قليلاً، وأحسَّ بالارتياح، فهذا العمل غير المتوقع، وهذه النقود غير المتوقعة في هذا الزمن الصعب قد أعطته الفرصة للابتعاد عن البيت وعن خديجة وعن عينيها اللائمتين دائماً.

كان يدخن الشُبُك وكأنه يريد إحراق مافي الغليون دفعة واحدة، وكان يدفع الدخان ليراه ينتشر في الكوخ ويحس وكأنه ينشر أمامه عمره الذي لم ير فيه من سعادة حقيقية. كان يعرف أنَّ أجمل أيامه كانت حين يرى المدينة تسقط أمامه ويرى الحرائق الصغيرة، والعويل. كان يرى الجنود ينقضون على غنائم العدو التي تركها وراءه، وكان الباشا المصري يتخيَّر لنفسه عادة خيمة القائد العدو بما تحوي من كنوز وأسلحة وكانت كثيرة دائماً، ويترك للعساكر والضباط ما تبقى، وكان ما تبقى يتضمن الجواري المتروكات مع الخيام، والنساء العواهر المصاحبات للحملة، فقد حاول الفرنسيون المصاحبون للحملة تعليم الجند الاكتفاء بهؤلاء المكرسات لعبادة رب الحرب والجنس، ولكن الجنود نادراً ما يكتفون بهؤلاء المتاحات والقانونيات إذ كان للهاربات مع رجالهن جاذبية لا تقاوم فينقضون على الهاربين ينتزعون النساء عنوة منهم ولكنه... الآن يتساءل: لمَ لم يشارك رجاله في تلك الوليمة التي تحِلُّها الحرب.. كان فيه شيء عفيف جعل كبار الضباط الذين كانوا يراقبون الرجال في جنونهم يحترمونه ما سهَّل ترفيعه إلى باش شاويش... الآن يتساءل: أكانت العفة ما منعه من مشاركة الرجال جنون ما بعد النصر؟ أم أنها ما رأته خديجة بعد العودة من الحرب؟ ولكنه لم يكن كذلك في الشهرين اللذين قضاهما عريساً معها قبل أن يحملوه إلى الباشا المصري وجيشه.. بل كان يعرف أنَّها حملت منه.. وكان يتوقع في زيارته الأولى أن يرى الطفل على كتفها، ولكنها أخبرته حزينة أنه قد توفي بعد ولادته مباشرة، وفجأة توقف عن التدخين. توقف يسعل بقسوة. بقسوة... أتراها؟

وانتفض قائماً: لا..لا... خديجة لا تكذب. لا. لا.. غير ممكن.. وعند قولته هذه سمع نحنحة، فالتفت بجسده تجاه المدخل المسدود بلحاف قديم

يدفع الهواء البارد عن الكوخ، واستعد بطبنجته، فما يدريك من يأتي في هذا الليل القارس. تكررت النحنحة وقد علت فعرف أنَّ القادم صار قريباً من المدخل، فرفع من لسان النور في الفانوس، وهتف: تفضل.

انشق اللحاف وبرز الحجي، وكانت المفاجأة، فقد كان آخر شخص في العالم يتوقع رؤيته في هذا الليل، وعند مدخل الكوخ، في المقبرة التي يخاف الجميع من الاقتراب منها ليلاً، فأرواح الموتى.. قال الحجي: السلام عليكم. ووقف يحمل بقجتين كان من الواضح أنَّ إحداهما كانت تضم فواكه مجففة وبعض التبغ كما كان في الأخرى خبز وبعض من إدام جاف كما سيعرف الشاويش بعد قليل.

ولكن... هل كان مصاباً بالدوار. فتدخين الغليون الكثيف والكوخ المختنق بدخان التبغ القوي و...ربما الجوع، فلقد ضعفت شهيته للطعام في الأيام الأخيرة ولا يعرف السبب.. ولكنه.. كان ينظر إلى الشيخ في لباسه الأسود ولحيته الشهباء وانحناء ظهره الخفيف، فلم يتعرف إلى الحجي في البدء، وكيف له أن يعرفه عبر غمامات الدخان والدوار الخفيف. هل ظنه... أستغفر لله. أستغفر الله. كررها ثلاث مرات.. هل ظنه الشيطان، أو جنياً من جن المقبرة.. ولكن الحجي الذي لم يسمع: وعليكم السلام ورحمة الله كما يجب على كل من يسمع السلام عليكم تقدم مجتازاً غمائم الدخان ورفع اللحاف قليلاً ليسمح للدخان بالخروج، وضع ما يحمله على منضدة مرتجلة قريبة، وتغلب على انزعاجه من عدم رد السلام، وقال: جئت معي بعشاء خفيف وبعض ما نتفكه به، وقلت أتعشى مع الصديق القديم شاويش زيدان.

وضع يده على ركبة الشاويش، فكأنه أخرجه من سبات، إذ قام ينتفض وينقضُّ على يد الحجي مقبلاً كما يجب، وحاول الحجي في رخاوة أن يبعده،

وإن أسعده استعادة كل لموقعه. كان الشاويش يقبل يده، وكأنه يعتذر عن خطايا لا يعرفها، وأخيراً أبعده الحجي بلطف، ثم قال بصرامة:

- شاويش زيدان الملة تحتاج إليك.

* * *

- 27 -

كان المسرح ليواناً أضيفت إليه بعض الرسوم الساذجة في الخلفية، رسوم توحي بقصر، وعواميد ورواق وستائر، وكان البابان الجانبيان مغطيين بستائر تنشق مع دخول الممثلين إلى الليوان الذي لم يكن خشبة بل كان أرضية الليوان وقد غطيت بالسجاد. أما الملقن فقد لاحظ برناردو أنه كان مختبئاً وراء ستارة جانبية يلقن الممثلين ما يعرفه من كوميديات مكرورة يحفظها كل من يتردد على المسرح الهزلي، ولكن الجديد فيها كانت براعة الممثلين وبذاءتهم وطرافة ثيابهم.

كان الآغا لا يفهم من حواراتهم شيئاً، ولكن برناردو كان يضحك، وكان أحياناً يلتفت إلى الآغا ليحدثه عما تقوله الخادم عن الحب الذي تكنه لحبيبها سغاناريل وسأله الآغا: سغا... ماذا؟

وقال برناردو في نفاد صبر: إنه الخادم المحتال سغاناريل.

وسأل الآغا في بلادة: وأين هذا الخادم؟

وفجأة انشقت الستارة اليمنى ودخل رجل يلبس طرطوراً مائل القمة إلى اليمين وكان للطرطور عقدتان كقرنين، ولساقيه خلاخيل تخشخش وكان وجهه مطلياً بالأبيض والأحمر وعيناه بالأزرق وقال الآغا لنفسه وإن لم يعلن: إنه الشيطان... ثم فكر: ما حكاية الشيطان يلاحقني هذه الأيام؟ فأنا أراه في كل شيء من حولي، مرة في الرسمة البذيئة في البيت، ومرة في هذا الذي سماه

بالكوميضا، وهاهو يقفز ويتقلب أمامي في بهلوانية ويخشخش بخلاخيله، ثم يلقي عدداً من الجمل التي لم يفهم منها الآغا شيئاً، ولكن برناردو كان يقهقه في سعادة، ورأى عدداً من الجمهور ممن جلسوا في الصفوف الأمامية يكركرون من الضحك. ولكن ما الذي يضحكهم... هل يضحك الشيطان الناس، ولكن من سماها برناردو بالخادم تقدمت منه وصفعته على قفاه، فانقلب إلى الأمام مرتمياً على الأرض، ثم مستبدلاً الوقوع بالدحرجة فالقيام، وكانت الخادم تطلق سيلاً من الكلام كان برناردو يقهقه له، وكان الجمهور الذي يلبس الثياب الأوروبية يقهقه، كانت سعادة لم يستطع الآغا أن يفهمها أو يتذوقها، ولكن من الواضح أن الجمهور في الثياب الأوروبية كان مغرقاً في الضحك، والآغا الذي صحب برناردو على غير رغبة منه إلا المسايرة، والخوف عليه من أن يورط نفسه في مشكل لا يستطيع تخليص نفسه منه، وكان الآغا ينظر إلى ما يجري في دهشة، فليس فيما يرى ما يثير كل هذه القهقهات.

* * *

كان برناردو الذي لم يتُه ولم يترنح والمعتمر للكوفية التي علَّمه الآغا لبسها قد عبر السوق والحارات حتى بيت الآغا، وحين فتح له الآغا الباب حائراً مندهشاً منزعجاً من هذا الطريد الذي يخاطر بحريته وحرية مضِيفه بهذه السهولة.

كانت الأفكار تعتمل في داخل الآغا، ماذا لو قبضوا على برناردو، وعرفوا أنه المطلوب من خديوي مصر، أو ربما عرفوا أنه المطارد من أوروبا أيضاً، وحملوه إلى القنصلية الإيطالية التي ستستلمه سعيدة، وترحله إلى إيطاليا.. وماذا عنه؟ هو آوى في بيته عدو الجميع، ولماذا.. هل كان الإيطالي يعِدُّ لفتنة أخرى في المدينة وهو المطارد بالفتن في كل مكان حلّ فيه.

كان رعب المطاردة الجديد يلاحقه. فقضى النهار محبوساً في بيت أمه مع الرسمات التي كرهها، وفي جزء صغير من قلبه كان يعرف أنّ كل كارثة أو مصيبة ستحل به سيكون سببها هذه الرسمات الفاجرة...و... فجأة أخرجه صوت المطرقة النحاسية من رعب المطاردات الحائم من حوله في البيت الخالي من طريد القارتين وجعلته يندفع حتى الباب ليرى برناردو ضاحكاً سعيداً معتمراً الكوفية الأنيقة. قال ببساطة: أنت هنا؟

ودخل.

لم يحتج برناردو إلى كثير من الجهد ليوقظ حسَّ الآغا بالذنب أن تخلى عنه بالأمس، ولم يحتج إلى كثير من الإلحاح حتى يصحبه إلى هذه الحماقة الجديدة المسماة بالكوميضا والتي سيعلق عليها بعد عودته: أهذه هي الكوميضا إذن؟ مجموعة من العواطلية والمتبطلين الذين لا يجدون ما يشغلهم في هذا العالم إلا أن يقفوا على مرتفع من الباحة يتحاورون ويتجادلون وكأنهم لا يرون الناس الذين يتفرجون عليهم.

- 28 -

هــي المـصائب سـتحل علــى المدينــة ولكنهــا سـتكون الإشـارة إلى قدومــه و....أنت تعرفها جيداً، فالأولى كانت في الأولاد العجبة الذين ستلدهم الأمهات بعد حمل طويل، ولكن الزيادة في أعضائهـم، والعجبة في خلقتهـم ستكون الإشارة إلى قرب قدومه إلى الأرض، وهؤلاء الأولاد العجبة سيكونون أنصاره علينا.

وفجأة صمت، فأضفى صمته حالة من التوتر على الشاويش المرعـوب أصـلاً من هذه الزيارة الليلية غير المتوقعة في المقـبرة، قـال: أنـت صـحبته في حروبـه عدة سنوات ولكن... وتوقف وكأنه محرج... هل رأيت جسده مرة؟

لم يجب الشاويش فقد كان مستغرقاً في الرهبة المحيطة به، ولكن الحجي ألحَّ: هل رأيت جسده مرة..؟ ووكزه فأخرجه من ذهوله. وكـرَّر الحجـي: هـه. قل لي. فما ستقوله شديد الأهمية: هل رأيت جسده مرة؟ وقال الشاويش: ومـن أين لمثلي أن يرى جسد الباشا، أنسيت أني مجرد عسكري شنتلي. ساعده الحـظ فبقي حياً، وساعده الحظ فارتقى إلى باش شاويش.

وأضاف الحجي كمن يكلم نفسه: لم تـر جـسده. لا بـأس، ولكـن كـثيرين رأوه، وهتف الشاويش مستنكراً: ولكن كيف... إنه الباشا. وقال الحجـي شـبه هامس: أستغفر الله، ولكنهم يقولون إنه كان... أستغفر الله كان غلامـي الهـوى. ألم تسمع بأشياء كهذه خلال المدة التي صحبته فيها. وفكر الشاويش قلـيلاً، ثـم

هزَّ رأسه في ضعف: لا.. لم أسمع. ولما لاحظ حيرة الشاويش تابع: غير مهم.. فما سألتك عنه قد حدثوني عنه وهو أنه كان له ست أصابع في كلتا قدميه.

وحملق الشاويش عينيه حتى استدارتا غير مصدق: لا...

وقال الحجي وهو يهز رأسه مؤمِّناً: وكان له يد أخرى صغيرة نابتة تحت إبطه، ثم انفجر في رعب: أستغفر الله. أستغفر الله.. أعوذ بالله. وصمت الشاويش مفكراً: أترى، كان هذا السبب في قتل الأطفال، وحزِّ رؤوسهم وسمل عيونهم.

وطال الصمت بين الاثنين حتى تنحنح الحجي فتابع: والمصيبة التالية كانت محاولة إسقاط دولة السلطان. إسقاط دولة الإسلام التي لم يتجرأ عليها إنس ولا جان منذ أن أنعم الله على هذي البلاد بالإسلام..

ولم يستطع الشاويش الردَّ، ولكن الحجي أكمل: وإدخال الإفرنج إلى بلد شرّفه الله وحماه من هؤلاء الكفار الملاعين. إدخال الإفرنج وقناصلهم إلى شام شريف، فرفعت البركة منها. لم تعد الشام شريف هي الشام شريف نفسها التي عرفناها لمئات السنين. ألا ترى؟ لقد صارت مدينة مثل كل المدن والقرى، مجرد بيوت وحارات يمكن لأي كان ممن لديه المال أن يسكن فيها حيث شاء. لقد رفعت البركة عنها. ألم تلاحظ ذلك؟

قال جملته الأخيرة صارخاً ما اضطر الشاويش إلى هزِّ رأسه في موافقة: صحيح. صحيح. وأضاف في ضعف: القحط. وانتبه إلى نفسه يقولها، ولم يكن يريد قولها، ولكنه كان يريد المشاركة في الحديث فقط. وقال الحجي في انتصار: هاه هاه أنت قلتها: القحط. القحط. كم صلاة استسقاء أقمنا، ألم تصحبهم إلى صلاة الاستسقاء؟

وقال الشاويش في انكسار: بلى.

فأضاف الحجي في انتصار: فهل نزل المطر. هل رفع البلاء..؟ انظر من حولك وأجب. الناس يموتون على الطرقات من الجوع. من المسؤول؟ وقال الشاويش في ضعف لا يعرف الرد: إرادة الله.

وأرعد الحجي مستنكراً: لا. لا. الله لا يريد الشرَّ لعباده، ولكنهم حين يرتكبون المعاصي ويتحدَّونه في إدخال الإفرنج إلى المدينة التي باركها الله، فهم من جلبوا على أنفسهم الكوارث، وهم من مهَّدوا لعدو الله أن ينزل إلى مدينتهم، وبدل مدينة الله الشام شريف سيصبح اسمها من اليوم فصاعداً مدينة الشيطان.

حلّ الصمت – الرعب على الشاويش، وانعكس على الحجي الذي انقلب عليه رعب الشاويش فأرعبه.. ولم يعد الشاويش يستطيع مزيداً من الصمت المرعوب، فتناول غليونه وأخذ يشحنه غائب الذهن والحجي يراقبه، ولكنه ما إن اقترب من إشعاله حتى سمع فحيح الحجي:

- شاويش زيدان الملة تحتاج إليك.

* * *

كان المطلوب من الشاويش شديد البساطة أن يمتنع عن نبش القبور الضحلة، أو مطاردة الضباع ومنعها من أكل جثث أولئك الأطفال العجبة، وحين سأل الشاويش في ضعف: ولكن لماذا؟ قال الحجي في قوة: حتى لا يعرف الشيطان أنا نقتل أنصاره قبل وصوله فيأتي بأنصار من بلاد أخرى.

ورأى عيني الشاويش المستديرتين رعباً، وتابع الحجي:

- إنه يراقب وينتظر. ينتظر أن يظهر أعوانه ويعلنون أنهم في انتظاره كما أعلن ذلك الأرناؤوطي الملعون الذي كان لا همَّ له إلا إسقاط دولة السلطان.

وهمهم الشاويش لا يعرف كيف يعلق.

- ثانياً أن تنضم إلى أصدقائك المدافعين عن الملة، وتبحث عن أولئك المواليد العجبة رجال الشيطان القادم.

- وبعد؟

- وبعد. اترك الأمر لي، تبلغني فقط بولادة أولئك المواليد العجبة في أي مكان في المدينة والقرى المحيطة بها، وسنتخلص منهم سراً، وسنعطيهم للضباع فيضيعون حتى عن إبليس الذي سييأس حين لا يرى أنصاره يستعدون لاستقباله وإقامة مملكته على الأرض.

الآن فقط أخذ الشاويش يتذكر، الآن فقط أخذت الأمور تنجلي وما كان غامضاً ومثيراً للألم أخذ يتكشف وينجلي، ولكن.. ما أغرب الذاكرة.. كان يتساءل...

كان الناس منقسمين أمام ما يجري عند عكا. فهم يرون الجيوش السلطانية تنكسر، والأرناؤوطي العاصي يتقدم ولكنهم كانوا مطمئنين، فعكا التي لم تسقط أمام كبير الفرنجة بونابرت والذي هدم أوروبا كلها. عكا التي صمدت أمام بونابرت لن تستسلم لهذا الأرناؤوطي العاصي.

كان شتاءً قاسياً، فبعد أن بلّ أيلول ذيله كالمتوقع، وهطلت أمطار خفيفة إلا أنّ السماء توقفت عن البذل منذ أيلول، وهاهو تشرين الأول ينقضي مع أرض عطشى ونهر أخذ نقصه يزداد حتى لقد انكشف قاعه في بعض الأماكن وتشقق، أما حيث الحفر المملوءة بالماء فقد وجد الأولاد فيها ملعباً جديداً مع الأسماك والضفادع المحصورة في الحفر، وانخفض سعر السمك حتى عاف الناس السمك لكثرته وفرح الفقراء، فقد صار بإمكانهم أكل السمك، ولكن العجائز والشيوخ تشاءموا: فإن استمر الأمر على هذا النحو، فنحن قادمون على سنة سيعدم فيها

الناس الخبز، وأخذت السنة العجفاء تكشف عن مؤخرتها الرمادية مع تشرين الأول، ثم الثاني، وفي جفاف قاع النهر كاملاً.

كانوا يسمعون عن الفاسق المصري كما سماه خطباء المساجد وهو يهاجم المدن الآمنة، وسمعوا عن جنوده الجدد، وكان كثير منهم من السود الذين لم يروهم في جيش من قبل، لا في الانكشارية، ولا في اليرلية من قبل، وفجأة أخذت الحكايات تتزايد مع معرفتهم بسقوط غزة وعسقلان وحيفا أمام القوات المصرية...

لم يكن ذلك الشتاء قاسياً فقط في احتباس المطر وارتفاع سعر الغلال الشديد وبدء رحلة الجوع، ولكن الهيضة أخذت في الانتشار في المدينة. هو يذكر ذلك. ويذكر النعوش التي كانت تحمل الموتى يومياً إلى المقبرة، وتساءل الشاويش هل كانت الهيضة وكثرة ضحاياها هي ما جذبت الضباع إلى الولائم رقيقة تربة الدفن، أم أنها عادة قديمة اعتادتها لقرب المقبرة من البرية. ترى ألم يكن بين الموتى من كان له أهل يعزّونه ويكرمونه عن أن يصبح وجبة لضبع، وتنهد: مساكين. كان الموتى أكثر من أن يفكر فيهم أحد، فقد كان كلٌ يفكر في أنه سيكون التالي، ولا يسأل الله إلا الستر وأن يجد من يدفنه ويستر عورته.

وأخذ يتذكر الإشاعات التي بدأها خطباء الجوامع وهم يلعنون الفاسق الأرناؤوطي وأنه سبب هذا القحط والهيضة التي قضت على أكثر من ربع الناس ويقال إن الضباع سمنت في ذلك العام وأنها لم تعد تهاجم الرعاة والمسافرين المنفردين، ولكن الشيوخ كانوا يطمئنون الناس بأنها محنة وتنقضي إن شاء الله. فما إن يصل إلى عكا حتى تصدّه عكا، وكيف لا تصدّه وقد صدّت قلعتها الكثير من المعتدين والغاصبين والثائرين على السلطان، ولن يكون الأرناؤوطي خارجاً عن المعتاد.

انقضى الشتاء وانقضت فحول الشتاء، فمرَّ الكانونان الأول والثاني ولم تعط السماء بركتها فتمطر، ثم أخذ الربيع بلا زهر ولا خضرة ينقضي وأخذت الوجوه تكلح وامتلأت المدينة بالإشاعات، فهذا القحط وهذه الهيضة هي العلامات، ولكن الشائعة الأكثر غرابة - الآن يذكر الشاويش - كانت إشاعة تقول إنه ولد لأسرة في حمورية طفل لم يعرفوا إن كان ذكراً أو أنثى وحين شنَّف الجميع آذانهم في دهشة فماذا يكون... وأخذ الهمس ينقل الخبر الغريب طفل أمسح، ولكن له في ساقيه شيئان غريبان، ففي الساق اليمنى هناك زر صغير لم يتفتح بعد، أما في الساق اليسرى فقد كان هناك شق أشبه بما تحمله المرأة، وتقول الشائعة إن الأهل ارتعبوا وكان لهم أن يرتعبوا، فالعجبة مرعبة دائماً وهي نذير بالشؤم، وأشارت الداية بخنقه على عادة الناس في التخلص من العجبة قبل أن يسقط عليهم شؤمه، ولكن الأبوان وهما عريسان جديدان لم يستطيعا قتل، أو السماح بقتل بكرهما واضح الجمال... والعجبة؟.. إرادة الله، ولكن الخبر وصل إلى شيخ حمورية، وهاهنا كان دور الحجي في إكمال ذاكرة الشاويش. قال: ما لاتعرف يا أبو حسان هو أن شيخ حمورية أصرَّ على رؤية المولود وكان الشيخ واحداً من مريديّ، هذا الشيخ حين رأى المولود اصفّر وجهه واكفهرَّ ولم ينطق بكلمة إلا أنه خلال ساعتين هو الزمن المطلوب لوصوله إلى الشام كان عندي ينقل إليّ الخبر، ولم أكذب خبراً فقد ركبت إلى حمورية رغم حمى خفيفة كانت قد أصابتني منذ يومين، ولكن هل يمكن السكوت على خبر كهذا، وهناك رأيت، وتنفس الحجي عميقاً وتابع: الصبي. لا. ليس بالصبي وتأتأ قليلاً، كما ليس بالبنت ولكن.. ولم يستطع الشاويش منع نفسه من السؤال: وكيف العمل؟ وقال الحجي في صوت نبوئي: يجب قتل رسل إبليس هؤلاء وإضاعة أثرهم. وسأل الشاويش في براءة: لماذا...ألا يكفي دفنهم؟ لا..

وتنهد لا، فالقضاء على رسل إبليس والدجال قبل امتلاكهم البلاد والحلول محل المؤمنين الأتقياء، ثم تمتم من بين أسنانه... وقلت لشيخ حمورية حين رأيت تردده: قد تكون هذه القرية مكان نزول الشر على الأرض. أدرك البلاد والعباد. حدَّق الحجي في عيني الشاويش الحمراوين لا يعرف إن كان من الرعب أم من الدخان الكثيف يملأ الكوخ:

– حدِّد موقفك. حدِّده قبل فوات الأوان. ما المعسكر الذي تريد الانضمام إليه. انطق. لم يعد هناك من مجال للحياد والصمت.

- 29 -

انتفض من مرقده مفزوعاً حتى البلل. كانت الغرفة ما تزال معتمة ولكن شرارات كانت تبصُّ في الجدار المقابل، ولم يسمح للأوهام بأن تمضي به بعيداً فقد أدرك أن الشرارات لم تكن إلا انعكاس نور القنديل الضعيف جداً على الزبادي والصحون الصينية المصفوفة في المكتبة، ولكن هذا الإدراك السريع كومضة برق لم يخرجه من الرعب الذي جعله ينتصب في فرشته. أراد التأكد من أنه ليس في حلم، فمدّ يده يتلمسها، كانت سمينة مسترخية في نومها على عادتها.. فأحكم تغطيتها باللحاف...

انسحب من الفراش، ولكنه كان يرتجف. صحيح أنَّ ما تبقى من الرجفة لم يزد عن ارتعاشات خفيفة ووهن في الساقين، ولكنه كان يرتجف..

مضى إلى الغرفة – المكتبة الناضحة برائحة الجلد العتيق المدبوغ يغلفها مخلوطة برائحة الورق الثقيلة. جلس على الطراحة، ولم ينر الغرفة. فقد كان يريد الخلوة.

ورآه... أعوذ بالله. إنَّ كلَّ ما فعله من تغيير للغرفة، وتغيير للجلسة ما كان إلا محاولة لتناسي الكابوس الذي كان يراوده منذ رآهم يشقون المدينة على خيولهم في كبرياء المنتصر. ورآهم، أولئك الإفرنج الملاعين يلبسون الثياب العسكرية المصرية، ولكنه يعرف أنهم هم. كانت الرسل تصل إليه: الأرناؤوطي جلب الإفرنج معه ليدخلوا إلى المدينة المقدسة فترقبوا الكوارث. تأوه: لو أنَّ الله

جلّ وعلا تكرم وقبض روحي قبل أن أرى الفاسق يدنس الشام شريف، لو أنَّ الله جلّ وعلا كرَّمني بالطرش فلا أسمع اللغة اللعينة الغريبة يتبادلونها فيما بينهم. لو أنَّ الله رحم شيبتي... ولكن...

هو يعرف أنهم حملوه إلى بيته مشفقين فلقد رأوا ركبه تنحل وجسده يتهاوى على الأرض كخرقة عتيقة ذاب نشاؤها عنها لكثرة الغسل فتفكك تماسكها وتهاوت.

حمله الدكنجية وباعة السوق إلى بيته وهم يحوقلون ويتعوذون، فلقد فهموا ما أصابه، ورغم أنه لم يعلق بكلمة واحدة على كارثة دخول الأرناؤوطي العاصي، خادم الإفرنج وجالبهم إلى الشام شريف. رغم أنه كما تقول زوجته السمينة المترهلة قد أصيب بالخرس فلم يستطع الأطباء والشافون والمكبِّسون جعله ينطق لثلاثة أيام، وكان هذا من حسن الحظ، فلم ير السودان ولا النوبيين يقودهم الإفرنج ينتشرون في المدينة ويدنسون المدينة التي ينطلق منها الحجاج في رحلتهم الاستشهادية إلى مكة....

وضع كفه على جبينه مفكراً، ولكن ما معنى هذا، ما معنى هذا الحلم الذي جعله ينتفض من نومه. من هذا الذي رآه فوق جبل قاسيون.. وفجأة تساءل: ولكن كيف له أن يراه فوق الجبل من حي القنوات والمسافة بينهما أميال وأميال؟ ولكنه رآه. هو يعرف أنه قد رآه، وهو يعرف أنه رآه فوق قاسيون وكان.... أعوذ بالله. جميلاً جمالاً لم يره على امرأة في حياته، لم يره على الجواري، ولم يره على الحرائر، لم يره في مصر وغنج بناتها وتدللهن يشددن الملاءات السود على عجائزهن فيهيجن حتى العجائز في تمايلهن وتأودهن، لم يره بين الصقلبيات والمورليات والحبشيات من الجواري.. ولكن.. كيف يمكن لصبي أن يكون أجمل من كل هاته النسوة. وتأوه، فقد كان يعرف

أنه أجمل. ولكن.. تساءل: هل كان صبياً فعلاً؟ وسأسأ رافضاً: لا. لا لم يكن صبياً. أفكان امرأة؟ ورفض بشدة: لا.... كان شعره أو شعرها.. جمالاً خالصاً، وكانت العينان نجمتين مضيئتين، وكان ينشر من حوله شهوة وتحسس نفسه. أعوذ بالله. أنا؟ أنا الشيخ الذي امتنع عن النساء وامتنعت عنه النساء لسنوات. أشتهي؟

أخذ يفكر... شيخ سعيد. تذكر.. تذكر. تذكر جيداً. فالأحلام ليست تهاويم. إنها رسائل... ما الذي رأيت، أو من الذي رأيت؟

الآن يذكر... لم يكن الجمال فقط والإشعاع الشهوي المرعب. بل... هل أشار بيده يدعوه إليه. لا.. لقد أشار.. أشار وتذكر أنه التفت إلى الخلف ليرى الآلاف من الناس تشير إليه ملبية... وفجأة صعقته الحقيقة... أعوذ بالله. إنه إبليس.

عند صرخته: إنه إبليس أدرك أنه نطق، وحين أدرك أنه نطق عرف أنه قد خرج عن خرسه، فقرر الخروج من البيت، ولكن من يخرج من البيت في هذا الليل.

حاول دعاء الخادم لتصنع له قهوة، ولكنه أشفق من إيقاظها فهو لا يدرك في أي جزء من الليل هو. خرج إلى الباحة، ونظر إلى النجوم لا. فالفجر كان بعيداً، والعمل...؟ كانت ساقاه تتنططان يجب الخروج من البيت يجب المضي إلى الشيخ سليم، وفاجأه السؤال: ولكن لماذا؟

وبهدوء أخذت النبوءة تتضح أمامه... الشيطان في طريقه إلى الشام، الشيطان في طريقه إلى هدم دولة الإسلام، ونشر دولته على العالم بادئاً من الشام شريف... وحين تساءل الشيخ سليم في ضعف: وما الدلائل على قدومه ذكره بالمغربي الذي بهرهم بأحاديثه ونبوءاته قبل أن يختفي في غمامة السفر، قال:

القحط، والجوع، والهيضة، وازدياد المواليد العجبة، ودخول الإفرنج إلى الشام شريف.

كان يسمع صدى صوته النذير يدوي بعد رحيله بزمن طويل، كان الصوت النذير معلقاً بين قاسيون والبيوت المسقوفة بالطين الأحمر. وفجأة أحسَّ الحجي أنه المسؤول عن المدينة، والمسؤول عن إيقاف الكارثة والمسؤول عن الشام شريف. كان يعرف أنَّ القحط عقوبة من السماء لن تستطيع منعها. وكان يعرف أنَّ الجوع عقوبة لنا على ذنوبنا المستورة لا نعلنها. وكان يعرف أنَّ على جند النور أن يقفوا في وجه الشيطان حين يأتي... وتساءل مع الشيخ سليم: ولكن كيف لهم أن يقفوا في وجه جنود الشيطان إن كان معسكرهم مخترقاً بهؤلاء المواليد العجبة، مواليد الشيطان ورسله إلى الأرض؟

ترك مجلس الشيخ سليم ومضى بين البساتين يفكر، وكأن توزع الظلال والنور عليه كانا كافيين لقيادته إلى طريق الحق الذي يستطيع به وقف جنود الشيطان، ولكن.... تأوه.. هه.. كان يظن أنه أوقفهم، ولكنه رآهم، أولئك الإفرنج الملاعين على خيولهم يتبخترون في دروب الشام شريف مع الأرناؤوطي الملعون عدو السلطان.

- 30 -

كان قد كره حياته، كره اضطراره إلى ترك الدكان والركض إلى الخرابة يستجيب لنداء المثانة. وكان قد كره رؤية الصبيان له يبول واقفاً فيصفقون ويسخرون، فيضطر إلى الاستتار والعودة إلى الدكان موجوعاً متضايقاً يعرف أنه سيبول ولا يبول. وحتى إن استجاب لنداء الملعونة، فإن ما يبوليه لا يزيد عن قطرات تريحه، فيمضي إلى الدكان ليفاجأ بالحرقة والدعاء إلى بول لا يأتي ولا يريح.

كان قد جرب كل العلاجات فشرب كل الشرابات وتحمَّل بكل التحميلات وادّهن بكل الدهانات ولكنه أبداً لم يشف ولم يخفّ ألمه، وكانت اللعنة تضغط عليه حين يرى الإفرنج والسودان على خيولهم يشقون المدينة فيسمع نداء الحجي في بيت الشيخ سليم بعد العشاء المتواضع: رسل الشيطان، رسل إبليس، راحت الشام شريف، وكان يرى الحضور الخائفين من أن يسمعهم رجال الأرناؤوطي أو يسمعهم من يحمل خبرهم إلى الأرناؤوطي، ولكن الزَبَد على جانبي فم الحجي واختناق أوردة رقبته كانت تقنعهم بأنه يعرف ما يفعل، وأنَّ عليه أن يدلهم إلى ما يفعلون، ولكنه أبداً لم يجرؤ على قولها. كان يصف ويذكر. ولكنه كان خائفاً من أمرهم بما يفعلون فيصل خبره إلى الأرناؤوطي فيقع في يده التي لا ترحم.

وكان كلما رآهم على خيولهم يشقون الحارات والأزقة وطبنجاتهم مهيأة وسيوفهم مهيأة، وعيونهم الحمر مهيأة يسأل نفسه: ولكن لمَ هذا الخوف. لم لا أفعل شيئاً أهدئ فيه غضب الله على مدينة اخترق شرفها، فلم تعد الشام شريف.

كان رزق الدكان قد انخفض وانخفض حتى كأن الناس لم تعد توجعها أضراسها، فتطلب خلعها، وكأن شعورهم لم تعد تطول فيطلبون قصها. وتنهد: يا حرام القحط والحر الذي لم تعرفه المدينة منذ عشرات السنين، والهيضة لم تبق لأحد حوْلاً أو قوة أو رغبة بالتجمل، فرضوا بالحياة، مجرد الحياة وتذكر المثل: ألف عيشة بالكدر، ولا نومة تحت الحجر.

قال: يجب أن أنزل إلى المدينة، يجب أن أجول قليلاً في السوق الطويل يجب أن أمضي إلى العطارين في البذورية فالدكان محتاجة إلى كثير من المواد ولكن ماذا لو فاجأته حرقة المثانة... ماذا لو فاجأه الألم وهو بعيد عن الجامع حيث يستطيع أن يريح وجعه... فكر، وفكر، وأخيراً قال: لم لا ألفُّ نفسي بخرقة، وليكن القطر، فالخرقة تمنع النجاسة عن الثياب، ما العمل والضرورات تبيح المحظورات.. وبسرعة، وقبل أن يتردد أو يتراجع عن الفكرة، مضى إلى الركن الداخلي المستور من الدكان، فخلع شرواله، وأخذ يلف نفسه بخرق لا تسمح للقطر بالوصول إلى الثياب فتنجسها وتمنعه من أداء الفرض لو آن أوانه في السوق.

دخل إلى السوق الطويل، دخل إلى غربال النور والعتمة. كان يحس بألم المثانة تتحرر على الخرقة، فيحس بمتعة مضحكة. وكان يتساءل ساخراً من نفسه: أهو الحس نفسه الذي يحسه الطفل قبل أن تعلمه أمه الطهارة... كان يعرف أنّ السخرية هي المرحلة الأخيرة من رحلة الهزيمة أمام كل ما فعلت به

الأيام... وتساءل: أين الحجي الآن... كيف يفعل حتى لا يرى الإفرنج على خيولهم. كيف....

ومن بعيد سمع صوت طبل ضعيف وخشخشة خشاخيش معدنية، فتوتر: ما هذا إذن.. أهناك حفل. عرس... ولكن في السوق وساعة الظهيرة؟ مشى. قال البزورية قريبة. سأشتري نواقص الدكان، ثم أجد بائع اللحم على العجين فآكل قرصين وأجلس على القهوة.. أووف... الواحد في حاجة إلى بعض الترفيه.. ما الحياة إذن؟ أهي عمل، عمل، عمل؟ وفي النهاية.. العشا خبيز.

ارتاح إلى الفكرة ومشى، ولكن الأصوات أيضاً كانت تقترب. طبل وخشاخيش وفجأة سمع نعير بوق.. ما هذا.. أهم الإفرنج؟ وضحك..

فجأة ومن حارة إلى اليمين خرج: كان يلبس ثوباً مقلماً أحمر وطرطوراً أحمر له قرنان مائلان وهو يقفز أمام ثلاثة توزعوا ما بين طبال وبواق وضارب على المزهر... وقف إلى جانب الواقفين يتفرج: ما هذا؟ مجنون؟ ولكن من سماه المجنون انحنى فجأة ثم انقلب، وكرر الشقلبة عدة مرات، حتى وصلت شقلباته البلهوانية به قريباً من عنيز، فتوقف فجأة ليرى وجه عنيز في مواجهته مباشرة، وفجأة أخذ يبربر باللغة الإفرنجية، يبربر كلاماً لا يفهمه عنيز. ولكن الضارب على الدف أخذ يصيح: الليلة. الليلة يا شباب، الليلة بالمدرسة العازارية حفلة كوميضا جديدة، الليلة يا شباب. أهل البلد كلهم مدعوون ليتفرجوا على الكوميضا الجديدة: (هارون الرشيد وأبو حسن المغفل).

كان المقنَّع بالأصبغة، الضارب على الدف يضرب عليه بنعومة ويراقب بعيني صقر. أما عنيز فسمعه يهمس بصوت عال: أليه. فإذا بذلك الذي سماه عنيز بالمجنون، والذي كان ينقلب ثم ينتصب كسعدان. إذا به يحل رباطاً على بطنه، فتندلق خرقة طويلة ملفوفة ومقواة لتتماسك كعصا طرية، وإذا بذلك

المجنون يرفعها لتبدو كقضيب مهدِّد، ويهجم على المتفرجين يلوِّح بها، وفوجئ المتفرجون في البدء، ولكنَّ واحداً قهقه وهو يشير إلى العصا المهدِّدة تهتز، وأخذوا يضحكون، واصفّر عنيز، اصفّر حتى ما قبل الإغماء، أهم يعرفونه. أهم يعرفون عنيز الجحش حين كان أقوى من الجحش، وهاهم يعايرونه ويسخرون مما آل إليه، فلم يعد يصلح حتى للبول.

كان المجنون المهرج يمعن في تحديه للدكنجية والعتالين والمارين في السوق، يلوِّح بقضيب الخرق وهو يبربر ويبربر والمتفرجون يقهقهون ويقهقون، كان يمكن للمشهد أن يطول حتى يغمى على عنيز لولا أنَّ عتالاً خشناً كالبغل غافل المجنون المهرج وقبض على قضيب الخرق وأخذ يشده منه. كان يجره إلى حارة صغيرة جانبية، وانطلق المهرج يعوي طالباً النجدة، وهو يلوِّح بيديه طالباً من يمسك به فيمنعه من اللحاق بالعتال الخشن لا يعرف ما يريد منه. كان مشهداً شديد الإضحاك، ولكن الوحيد لم يضحك كان عنيز إذ أنه فجأة أحس بانقباض مثانته ينفرج وبالسائل الساخن يندفق. حاول وضع يده يمنع نفسه من البول الكثير فهو يخاف من تنجيس ثيابه فلا يستطيع الصلاة، ولكن البول كان يندفع ويندفع، ورأى ثيابه الخارجية تتبلل، وبدلاً من الشعور بالسعادة والارتياح أنَّ هذا الاحتباس الطويل قد انفرج إلا أنه أحس بالخجل من رؤية الناس له وقد بلَّل شرواله، بلَّله حتى الكاحلين، فاندفع هارباً يدعو الله ألا يفضحه أمام هؤلاء الساخرين.

- 31 -

كانت تتنصت عليهما من مرقبها وراء الدرابزين وهي تقسم إنها سمعت كلمة الكوميضا ثانية، ورأت الأب يتمنع، فهذه الكوميضا لم تمتعه، فهو يستطيع الجلوس على المقهى والفرجة على الناس يعيشون ويتشاجرون ويعشقون ويتزوجون، فما الحاجة إلى هذه الكوميضا إذن؟

كان برناردو حريصاً على اصطحاب الآغا، وسمعت مرافعته في أن الكوميضا هذه المرة بالعربية، وأنّ مجموعة من لبنان ستشخص بالعربية. وأنّ الحكاية هي عن هارون الرشيد، ورأت أروى توتر الآغا، هارون الرشيد؟ أيوه هارون الرشيد...قوم معايا. قوم.... ورأت ارتخاء الآغا فعرفت أنه سيمضي معه.

وبسرعة قررت أروى أن تلحق بهما، هي لا تعرف أين يقع هذا المرسح الذي يتحدثان عنه ولذا فهي ستلحق بهما وتهتدي إلى المكان..

كانت أروى منذ سفر أمها إلى الحج، وخلو البيت لها ولأبيها الغائب دائماً وللخادم التي أهملت كل شيء إلا الطبخ وتهريب الخبز والطعام إلى الجاريتين اللتين لم يعد لهما من يرعاهما، فهي تطبخ لتأكل وتطعم الآغا وأروى ومن يطرق الباب سراً، ثم... تنام. لم يكن هناك نفيسة خانم لجعلها لا تستريح، فهي تختلق لها الشغل. البزّاق يخرج من البلوعة رشّي عليه الملح. الخنافس تخرج من حوض النارنج اقتليها. الغبار يكسو النوافذ، ولم تكن أروى

مهتمة بأمور النظافة ووسواسها، فما كان يهمها هو تركها تمارس الهواية الجديدة التي علّمها لها المصري المخشخش والذي لم يكتف بتعليمها، بل هاهو يصر على اصطحاب الآغا إلى التياترو...

كانت أروى قد اخترعت منذ زمن طويل ثياب صبي، وكان يساعدها على ادعاء الصبي صدرها الأمسح وردفاها الصغيران، وشعرها الذي كانت تقصه بين الحين والآخر. لبست ثياب الصبي، ووضعت الكوفية تلف رأسها بها، وتكشف وجهاً لم يره أحد من أهل الحارة من قبل، وتنتظر وراء الباب المشقوق حتى تراهما يخرجان. فتنتظر قليلاً حتى يبتعدا، ثم تلحق بهما من بعيد.

وصلا إلى السوق الطويل، وكان نور الغروب قد بدأ يحلُّ على السوق فأشعل بعض الدكنجية فوانيس يهدون بها الزبائن إليهم، ولكن الأكثر كانوا يستعدون للإغلاق فهم يعرفون أنَّ الزبائن لا تحب صفقات الليل، فللنهار عيون لا يملكها الليل. وكان برناردو يرى تردد وعدم ارتياح الآغا، ولكنه أخذ يحدثه عن المسرح الذي كان له الدور الكبير في تهييج الناس هناك في أوروبا وكيف عكس لهم ظلم الملك وسخف الأثرياء الجدد الصاعدين، وتفسخ المقاطعجية و الخوارنة، فسهّل التغيير على من أراد التغيير.

وكان الآغا يهز رأسه في تظاهر بالاقتناع والفهم. قال برناردو:

- ما عندكوش جرانين عشان الناس تقرا وتفهم.

فهزَّ الآغا رأسه يكاد يوافقه، ثم تذكر. فحدثه عن صحف موجودة وذكر له أسماءها وأسماء محرريها، وقال برناردو:

- بس الجرانين اللي بتتكلم عليها. تقدر تقول كل حاجة والا لازم فيه ناس من الحكومة يقروها الأول؟

وأقرَّ الآغا أنه لا يعرف، فتابع برناردو: طيب الكوميضا دي بقي هيه اللي حتقوم بدور الجرانين ودور خطيب الجامع، ودور الناس اللي بيعرفوا المصايب اللي في البلد وبيحكوا عنها، بس كتيمي.

كانت أروى تلاحقهم من بعيد، وتتساءل: وماذا إن ضعت؟ وماذا إن لم تعجبني هذه التي يسمونها الكوميضا، ولكنها كانت ترى نفسها مشدودة إلى ذلك المكان السحري الذي تحدث عنه المخشخش بكل ذلك الإعجاب.

لم تعرف أنها دخلت حارة النصارى، فهي لم تسمع بها من قبل، ولم تعرف أن الكوميضا ستكون في ذلك الحي الذي فاجأها بكثرة أنواره، وبالدكاكين المفتوحة وبالروائح الحامضة المندفقة من دكاكين مغلقة إلا من باب موارب وحين اقتربت منه تريد اكتشاف ما فيه انفتح الباب وخرج منه رجل محترم الهيئة والثياب ولكن رائحة اليانسون كانت تفوح منه بقوة، ورأت عينيه التائهتين، فارتعبت وهربت تلحق بالآغا والمخشخش وكان خيراً ما فعلت، فلقد انحرفا إلى حارة لو أنها لم تدركهما في اللحظة المناسبة لكانا قد اختفيا عن ناظريها.

حين دخلت إلى البيت — التياترو لم تفاجأ فقد كان بيتاً عادياً يشبه بيتهم إلى حد كبير إلا أن الليوان قد غطي بستائر، وكان في خلفيته رسوم لاحظت سذاجتها وهمهمت لنفسها: لو أنهم سألوني لرسمت لهم ما هو أجمل.

انشقت الستائر وظهر المهرج المجنون ثانية، وأخذ يبربر باللغة الغريبة، ولكنه ما إن لمح برناردو والآغا حتى اتجه إليهما وكأنه يعرفهما وما إن اقترب منهما حتى تشقلب عدة مرات وحين انتصب لاحظت أن حزامه قد انحلَّ وتهاوى إلى الأرض فتهيأت لتنبيهه حين يقترب منها، ولكنه فجأة شدَّ الحزام المحلول ورفعه بيده، فإذا به يمتد إلى الأمام كعصا من قماش، وأخذ

يهدد به الآغا الذي انـزعج وابتعـد في اشمئـزاز أمـا المخـشخش فحـاول القـبض عليـه، ولكـن المهـرج المجنـون هـرب خائفـاً وانطلـق يهـدد بقيـة الـصفوف والمتفرجين المقهقهين السعداء والذين كانوا يلقوا بتعليقات ماجنة لم تفهم أروى منها شيئاً وإن جعلت الحضور ينفجرون في الضحك، وكـان برنـاردو يراقـب مـا يجري سعيداً، ولكنه أبداً لم يلحظ شاباً ملتحياً في الثلاثينات كـان يجلـس بـين صديقين يراقب في اشمئزاز ولا يضحك، بل كان يراقب الناس الضاحكين بعينين مفتوحتين وشهوة لا تنقضي. أمـا أروى فكانـت تنظـر إلى مـا يجـري في سـذاجة وحياد، فهي لم تفهم اللعبة، ولم تفهم النكتة، واكتفت بالتواري حين رأت أنَّ المخشخش يلتفت إلى الوراء حيث تجلس فيلتفت معه الآغا.

سـبقتهما أروى الـصبي إلى البيـت، وحـين وصـلت إلى أول الحـارة رأت الجاريتين تندفعان مبتعدتين تحملان الـسلتين الملـوءتين طعامـاً، فاختبـأت في ركن معتم حتى لا تريانها فتعرفان أنها قد عرفت بأن الخـادم تطعمهمـا خفيـة عنها.

تسللت إلى البيت بعد اطمئنانها إلى ابتعاد الخادم وبعفرتة المراهقة القوية خلعت نعليها وقفزت الدرج إلى غرفتها حيث أخذت تستعيد ما جرى.

كانت دماؤها تغلي وأنفاسها تلهث، ولوهلـة تـساءلت أكـان هـذا الهيـاج لأنـها صعدت الدرج قفزاً، أم...

- 32 -

كان الجفاف الطويل واحتباس المطر قد جعل الهواء شديد الجفاف وكان يتحسس سرواله وهو يركض فيرى لعجبه أنه أخذ يجف فشكر الله ولكنه وهو يتحسس سرواله تحسس الخرق التي تلفه فأصيب بالذعر. لو رآه العتال الجلف وقد بلَّل ثيابه. أكان من الممكن أن يمسك بالملفوف بالخرق ويصرخ فاضحاً إياه أمام جموع السوق: الجحش، الجحش يا ناس اللي كان يقلع شرش الكرنب فيه صار...

وركض مخجولاً محرجاً، كيف سينظر في عيون الناس بعد هذه الفضيحة لو تمَّت، ولكن ذلك المجنون الذي كان يتشقلب، ثم يمسك بالقضيب الخرقة يهدد به الناس... وتوقف مرعوباً ما الذي ذكره الآن بـ... وتوقف: عنيز.. ذكَّره؟ ذكَّره بماذا؟ كان التعب قد حلَّ عليه بعد هذا المشي السريع الهارب الأشبه بالركض... كان قد تعب. قال: لقد شخت يا عنيز. ولكن ذكّره بماذا.. وهرب ثانية: لقد شخت يا عنيز. ولكن ذكّره بماذا؟ ووجد نفسه وقد انحلَّت ركبتاه، فيتجه إلى المسطبة القريبة ويجلس: ذكّره بماذا. بماذا؟.

كان يحس بعينيها تحدقان فيه في اتهام بعد أن تسللت سراً لتقبض عليه مستلقياً على سطح المشرقة يتلصص عليهن. انتفض واقفاً وهو يتحسس سرواله. لقد قارب الجفاف.. يجب أن أصل إلى البيت لأغيِّره حتى لا تفوتني صلاة العصر كما فاتني الظهر. لا لن أخبرها عن سبب تغييره، فما زال نظيفاً كما ستقول،

لا. سأعبس في وجهها، وآخذ الشروال النظيف، وأمضي إلى غرفة الأولاد الغائبين في شغلهم فأغيِّره. وعاد السؤال يقرعه كجرس. ذكّرك بماذا.. ذكّرك بماذا.. وبهدوء رأى الباحة، باحة البيت. ورآها من مرقبه على السطح بعد أن طردوه من البيت، فتسلل ليرى السبب.

ورأى أم ضرغام وقد جمعت شعرها المكشوف لتتبدى رجلاً، وشهق: الآن يذكر كل شيء.

كنَّ قد شكلن حلقة من النساء حاسرات الشعور وفيهن واحدة أشهرت ثدييها كمن يقدمهما للرضاع. أخذن في التصفيق جالسات ثم أخذن في الغناء: عمي يا بياع الخس، بينما أخذت مجموعة الواقفات في حلقة وقد جمعن شعورهنّ تحت طاقية ليتبدين كالرجال. ثم لوين ضفيرة من شعورهن دسننها تحت أنوفهن لتبدو كشارب أسود متدل على جانب واحد من الفم، وردَّدن بصوت تعمّدن تغليظه كغلظ صوت الرجال: الله الدايم.. وتساءل: لماذا يقلدن بائعي الخس في ندائهن.

كرَّرت المجموعة الأولى: عمي يا بياع الخس، فردت المجموعة في ضفائر الشوارب: الله الدايم.

كان عنيز يمشي كالسكران مثقلاً بشرواله غير مكتمل الجفاف. اصطدمت قدمه بحجر كاد يوقعه لولا أن استطاع التماسك، وأحسّ بسرج الشروال يضايقه، فانحنى يتحسسه ليكتشف الخروق وقد انحلّت وسقطت، فأثقلت السرج. كانت الحارة خالية ولكن الشروال الثقيل كان محرجاً، فانحرف إلى حارة جانبية، وقرفص، ثم حلّ تكة الشروال ورمى الخروق، ثم ربط الشروال ومشى خفيفاً، ولكنه ما كاد حتى سمع صوت المجموعة ولاحظ فيهن الآن جدته وأمه، وكن يهتفن: الخسة عندنا ببوسة.

وضحك. أجدَّته وأمه تقولان هذا. كان فتى في العاشرة لم يعرف النساء، ولكنه كان يعرف أنَّ كلمة بوسة كانت آثمة بحد ذاتها.

انسلخت أم ضرغام عن مجموعة المتشوربات بضفائرهن، وشمَّرت ثوبها المسدل فوق شروالها، فاندفع قضيب من الخرق المقواة إلى الأمام بينما كانت بقية المجموعة تهتف: الله الدايم.

تلَّفت عنيز من حوله خجلاً، وكأن الصورة التي يتذكرها تتسرب إلى الخارج فيعرف الناس في السوق بمجونهن وشيطنته هو الذي ما يزال يذكر هذا الطقس الماجن، ثم تذكر شيطان السوق الطويل الذي هاجمه وغمزه لولا تدخل العتال، ونفض رأسه يهرب من تذكر العتال.

و.... سمع أم ضرغام تلوِّح بقضيب الخرق وتهتف: ستي الله يخليك. فتهتف بقية النساء: الله الدايم، وتكمل أم ضرغام ملوِّحة بالقضيب: خليني....فيك. وتهتف بقية النساء: الله الدايم.

كانت مجموعة الجالسات في وقار يرددن لازمة: الله الدايم، ولكن حين لامستهن أم ضرغام بقضيب الخرق وهو تقول: خليني شمه وضمه... انطلقن مذعورات وهنّ يهتفن جادات: الله الدايم.

رأى عنيز من مرقبه واحدة من النساء تنسلُّ من المجموعة، ولكنه كان مشدوداً إلى مشهد لم يفهمه تماماً وإن عرف أنه يتضمن شيئاً خاطئاً، وكان مسحوراً لا يدري سبب انسحاره، ولكن حين صاحت أم ضرغام وهي تطاردهن: الحقي حالك يالله وردّدن... الله الدايم.

عند ذلك، وعند ذلك فقط أحس بيد ثقيلة تمسك به من شعره، و...كانت المرأة المتسللة التي رأته يتلصص عليهن، وحين جرَّته إلى حيث النساء في الباحة أخذن في تقاذفه بينهن، والغريب أنَّ جدته وأمه كانتا بين المتقاذفات

المتشوربات بالضفائر. الآن لاحظ ذلك، وأخيراً هجمت عليه واحدة منهن لم يعرفها من قبل فخلعت عنه شرواله، وأخذ يصرخ كالمجنون: كرمى لألله... ما عدت أعيدها.

كان يصرخ وهو يحمي عجانه بيديه، وكانت وجوههن كاملة الجدية ليس من ضحكة، وليس من دعابة.

فجأة اصطدم به بعنف، فاهتزَّ مرعوباً، وكان الحجي الذي بادره: ايه. مابك؟ مرعوب وهارب. مم؟

وانطلق الجواب الذي لم يحضِّر له، ولم يفكِّر فيه من قبل: الشيطان، رأيت الشيطان.

- ماذا؟

- أي والله. رأيت الشيطان بقرونه وجلاجله (وتذكر كيف كان يتشقلب في الهواء، بل كان يطير)، و... هل أقول ماذا أيضاً.

وقال الحجي يلهث: قل. قل...(ثم قاطع نفسه قبل أن يكمل).

- هل اقترب منك. هل دعاك إليه؟

وتذكر عنيز كيف اقترب منه بعد قفزاته الطائرة، وما إن انتصب حتى كان وجهه قريباً منه.

- هل تحدث إ ليك. هل دعاك؟ كان في كلامه رجاء كبير، رجاء يكاد يكون التوسل، ولم يعتد عنيز هذه اللهجة من الحجي المتكبر وشيخ البلد الأول، هو يعرف ذلك، ويعرف مقام كليهما فهو يحافظ على المقامات. لذلك كانت لهجة التوسل مغرية. قال وهو يمعن حفراً في ذاكرته: غمزني..

- غمزك؟ كيف؟

وحاول عنيز أن يتذكر كيف غمزه، وفجأة لم يعد واثقاً إن كان غمزه، ولكنه أعوذ بالله قد قرّب وجهه المقنّع بالألوان، قرّبه. لا.. لابد أنه غمزه.

وفحّ الحجي: كيف غمزك؟

وغمز عنيز بعنيه: هكذا... ككل الغمزات.

وأعاد الحجي إلحاحه: ولحقت به؟

وكرَّر الحفر في الذاكرة يريد التأكد إن لحق به، ثم تذكر ذلك العتال البغل وهو يشدُّه من قضيب الخرق، فتنفس الصعداء. لابد أن العتال هو من أنقذه من الشيطان.

- قل. هل لحقت به؟

لم تعد ركبتا الجحش قادرتين على حمله. فاتجه إلى مصطبة هي أحد طوالع البيوت، فجلس مرتخياً، ولحق به الحجي: قل. هل لحق بك؟

- حجي. من شان الله خِفِّف علي قليلاً. أكاد أجن.

وعرف الحجي أنّ عنيز الجحش مرتبك ومضطرب بعد تجربة اللقاء مع الشيطان وهاهو يطلب إليه أن يرحمه، فجلس إلى جانبه على جدار الطالع، وأحاطه بذراعه في حنان، التفت عنيز إلى الحجي الذي لم يقبل منه يوماً شيئاً أقلَّ من تقبيل اليد، فهو لم يصافحه أبداً، بل كان إذا ما أراد السلام عليه يمدُّ يده فيقبلها وعندئذ يبدأ الحديث، ولكن. أن يحيطه بذراعه؟ دمعت عيناه من التأثر، فانقض على يد الحجي يقبلها، ولكن الحجي شدَّها بعيداً: لا. لا.. ليس هذا وقتها. هه. قل. هل لحقت به؟

وتحدث الجحش، تحدث عن العتال يمسك الشيطان من قضيب الخرق يشدُّه منه، وهو يعول ويولول، ويطلب النجدة، كاد الحجي أن ينقلب على ظهره. الشيطان يبكي ويطلب العون؟

- تصور يا حجي!!

- لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. إذن فما يزال هناك أمل. ما يزال هناك أمل. وستنجو المدينة، وستطرد الشيطان، وتعود إلى ملكوت الله العظيم.

انتصب واقفاً وهو يخاطب السماء: الشكر لك يا رب، الشكر لك أن استجبت لدعائي.. أحمدك يا رب أن قبلت دعائي لإنقاذ الشام شريف من سيطرة الشيطان.

ترك الحجي عنيز وانطلق فرحاً إلى الجامع وعنيز يلحق به حتى إذا ما دخل الجامع يصلي صلاة الشكر شعر الجحش أنه نجس ولا يستطيع، ولا يجوز له اللحاق به إلى مكان الطهر، وعليه قبل ذلك أن يمضي إلى البيت فيغيِّر ثيابه النجسة، ثم يعود فيصلي الصلاتين قبل حلول صلاة المغرب.

- 33 -

كانت قد عرفت أن أصابعها قاصرة عن قول ما في قلبها منذ زمن طويل. ونسج البسط لا يمكِّنها من طرح ما في قلبها، فقد كان بزخرفاته المحدودة مهما شطَّت في اختراعها، من صلبان معقوفة إلى أهلّة متقابلة، بل من أسود هندسية وطيور خرافية حادة الزوايا. كانت قاصرة جامدة لا تقول ما في قلبها، وحين تعلَّمت على يد المخشخش كيف تختصر التعبير بالريشة فبدلاً من عشرات العقد لصنع شكل هندسي لا تستطيع تليينه، فالعقد الصارمة لا تمكن من اللمسات الرقيقة ولا تكشف البسمة والغضب والحزن جاء المخشخش لينقلها إلى الريشة وطراوتها، وقدرتها على التعبير عن الغضب الكامن في قلبها لا تعرف له سبباً، ولا إلى من توجهه، وتنهدت وهي ترمق الرسمة الأخيرة التي وقفت عندها فهي لا تفتأ تكررها وتحسنها وكررت التنهد تتساءل: هذا الوجه الغريب الجمال المشعُّ بنور لاتعرف كيف سطع، ولكنها تحس بالالتصاق معه، إنه أمسح الصدر مثلها. و....تضحك ولكن ساقيه مختلفتان عن ساقيّ تقول في مجون.

و... سألت نفسها: من ينطقهم بهذا الكلام الجميل، أهم يقولونه من تلقاء أنفسهم، أهم يستطيعون العودة إلى زمن هارون الرشيد فتدبُّ روح هارون وأصحابه في من يشخِّص هارون والأصحاب، أم أنّ هناك من يعلمهم الحكي، فلقد رأت رجلاً مختفياً وراء الستارة يهمس لهم ويقول ما لا تعرفه، ثم عاد

السؤال، ولكن من علّم ذلك المختفي وراء الستارة كل هذا الكلام الجميل ليهمس لهم به إن كان هو من يعلمهم.

تمدّدت، ولكّن توترها وهياجها كانا أكبر من كل تمدد ونوم. لم تكن تعرف إن كان هذا التوتر توتر السعادة، أم توتر الكشف والاهتداء إلى وسيلة تخرج بها ما في قلبها، وكان يمكن لهذه الأسئلة المتضاربة أن تؤرقها حتى الصباح كما أرّقتها رسمات المخشخش التي حاولت تقليدها، فأعيتها من قبل. كان يمكن لهذا الهياج أن يؤرقها لولا أنها سمعت صوت باب بيت الجدة يغلق، فانسحبت من فراشها واندفعت تعبر الخرق، فالسقف إلى الدرابزين تختفي وتنتظر.

رأت المخشخش يخرج من بقجة يحملها جرة صغيرة صبّ منها في طاس قريب، ثم أضاف إليه بعضاً من ماء البحرة، فابيضّ الطاس ثم رأته يرفع الطاس ويعرضه على الآغا الذي يرفع يده رافضاً في لطف فيميل المخشخش على الطاس ويجرع نصف الطاس في جرعة واحدة. قالت: مسكين إنه عطشان.

كان الآغا ينتظر في صبر، وكأنه سأل سؤالاً صعباً فهو ينتظر الإجابة الصعبة أيضاً، ولكن برناردو العطشان جداً كما أتضح مال ثانية على الطاس وظل يجرع حتى أفرغه تماماً، وأعاد الطاس إلى جانب البحرة، وقال: لو فيه شوية زيتون.

وعندئذ سمعت الآغا يقول في نفاد صبر: أنت تعرف أنّا لا نحتفظ بطعام في هذا البيت.

ثم في ضيق يكمل:

- هه لم تجبني حتى الآن. ما علاقة هذا المجنون وهذه العصا وأشار بيده إشارة غير مهذبة أطلقها على استحياء بهارون الرشيد وهذا المغفل الذي أسموه أبو الحسن و....

قال برناردو يقاطعه: تجربة. كنت باجرب. عاوز أعرف الناس اللي هنا لسه فاكرة، والا خلاص؟

وقال الآغا: ماذا تعني؟

- حاقولك ....زمان. لما كان فيه كوميضا هنا هه في الشام.

- هاهنا في الشام؟

- طبعاً، وكتب التاريخ بتقول كتير عن الكوميضا اللي لسه مسارحها موجودة بكل بلد عندكو. اسمع. اليونان كانوا رقاق، رقاق شوي، يعني لطاف. فكانت الكوميضا بتاعتهم بتتكلم طول الوقت عن الحب والواجب والأرباب اللي كانوا بينزلوا الأرض وبيغازلوا الصبايا الصغيرين وبيجيبوا منهم عيال، بس ده كله بلطافة لغاية ما جم أجدادي الرومان، ودول كانوا عسكر، فلاحين، خشنين، كانوا يعرفوا ينتصروا في الحرب، بس ما كانوش لسه اتعلموا النعومة بتاعة اليونان.

وهمس الآغا في نفاد صبر: طيب.

- برناردو: عشان كده كانوا علشان يجيبوا الناس على المسارح بتاعتهم واللي كانت الكوميضا فيها مبارزات ومعارك مع الأسود والدبب يعني دم في دم كانوا يجيبوا لهم مهرج، والمهرج – وهزَّ رأسه في نفور – الروماني برضه فلاح خشن، والمهرج ده ما كانش يعرف يضحك الناس والستات خصوصاً اللي في التياترو إلا لو حمل قضيب من قماش زي اللي شفته وبقى يهددهم بيه وهمه كانوا بيضحكوا ويقلبوا على قفاهم، وهمه بيهربوا منه وهو بيهددهم بيه.

المهرج ده كانوا بيسموه فالوفوروس أو فالوفور، وفالوفور باللاتيني كان معناها حامل القضيب.

وقال الآغا غير فاهم على الإطلاق: وما علاقة هذا كله بالكوميضا وهارون الرشيد التي جررتني إليها؟

- صبرك. صبرك عليَّ... اللي فكرني فيها أني لاحظت أنكو هنا بالشام بتسموا قضيب العيل الصغير، بتسموه فرفور موش كده؟ وقبل أن يجيب الآغا تابع برناردو: أما في مصر فكلمة فرفور بتعني المهرج. شايف بقى؟

- وقال الآغا: ما الذي تريدني أن أشوفه؟

- كنت عايز أعرف يا ترى الناس اللي هنا لسه فاكرة المهرج الروماني اللي كان اسمه فالوفور والا نسيوه؟

- فاحتج الآغا: فالوفور وفرفور ما الذي يربط هذا بذاك؟

- يا سيدي الناس بتحب تسهل الكلام الأجنبي وتقربه من اللغة بتاعتها عشان كده فالوفور حولوها لفرفور. وفكر الآغا مطرقاً يريد أن يهضم هذا التخليط الذي يقوم به برناردو، ولكنه أكمل: قضيت يومين مع الواد المهرج لخليته يعمل الدور ده وكنت عاوز أعرف يا ترى الناس لسه فاكرة الفالوفور وإذا كانت لسه فاكراه يبقى لسه فاكرة الكوميضا. طيب إذا كانت لسه فاكرة الكوميضا يا ترى حاتتعامل معاها ازاي؟

جمع الآغا ثيابه من حوله غارقاً في محاولة فهم هذه الأفكار الجديدة ومضى دون أن يحيي برناردو.

- 34 -

كان قد أنهى جولته الليلية، وتفحص خطوط البارود وحفرة الفخ وعاد إلى كوخه، فاسترخى على طراحته، وقال: أدخن غليوناً فإن جاء النوم فلا بأس لأنه يعني أني سأستيقظ مع آخر الليل، وربما مع عواء الضبع إن سقط في الفخ.

أشعل الغليون، ولم يكن في حاجة إلى تأجيج النار، فالطقس كان أكثر من دافئ، وتساءل: ما الذي جرى لهذه الدنيا، وضحك: خبي حطباتك الكبار للعم آذار، ولكن.. أي آذار هذا والواحد يستطيع أن ينام على السطح إن ضايقه الناموس أو البق ولا يبرد..؟ هذا الحر. هذا الحر. لماذا.. لا مطر وفهمنا. صلاة الاستسقاء لم تستجب، وفهمنا، قالها الحجي: إنها ذنوبنا التي لا نريد التوبة عنها وهاهو جلّ وعلا يرينا عظمته في حبس المطر وتسخين الهواء...

وتذكر قول الحجي. إنها مملكة الشيطان التي نمضي إليها. ولكن. أراد أن يضحك، فقد علمته سنوات العسكرية ورؤية الموت العبثي والقريب أنّ الحياة نفسها هي النكتة، فالموت هو السيد وهو صاحب المملكة فقد يأتي على شكل حجر يقذف به العدو وقد يأتي على شكل بومبة، وقد يأتي على شكل رصاصة لا تعرف مطلقها، ولا تعرف لمَ اختارتك بين كل الناس.

كان أثناء العسكرية قد اصطنع حكمة الموت... هو السيد... وعليك أن تخادعه وتتظاهر بأنك مستسلم له ولا تقاومه فينساك إذ ضمنك... ولكن الموت هو السيد، وماذا أراد الحجي بقوله بأن الشيطان سيكون السيد إذن؟ والرب

العظيم سيد الشيطان؟ هل سيتخلى عنّا للشيطان؟ وسمع الحجي يقول: كله من ذنوبنا. فالله ترك لنا كل الفرص لنتوب ونعود إلى مملكته فخدعناه، فقد كنا نصلي ونسرق، ونظن الله لا يعرف. وكنا نصوم ونزني ونظن الله لا يعرف... كنا نقول ها نحن نقوم بفروضنا، ولكن. ماذا عن خطايانا وآثامنا إذن؟

كان قد ربّى عادة جديدة لديه وهي أنّ أذنه متهيئة دائماً، متهيئة لسماع أية حركة في الخارج، حول المقبرة أو بين القبور نفسها. كان يدخن ويبدو لمن يراه غارقاً في المتعة، وكان غارقاً في المتعة فعلاً، ولكن أذنه كانت مشدودة إليه في الخارج.

تنهد. لقد صارت صديقته لشدة ما فكر فيها وتخيلها تسقط، وتخيلها تعوي، وتخيلها تنظر إليه في لوم. كان يتمنى أن يرى واحدة أخرى تسقط في الفخ ليستعيد أهميته أمام الضيعة، فقد تخلى أهل العريس عن الدفع منذ اشتد الجفاف ولم ينزل المطر، وكانوا قد اطمأنوا إلى أن الضباع نفسها يئست من الحصول على أتاوتها من المقبرة منذ رأت البارود يشتعل أكثر من مرة فيطاردها، ومنذ أن سمعت عويل الضبع المحبوسة في الشرك، ومنذ أن رأت وشمّت جثتها مرمية في العراء.. وضحك مراجعاً: وتظن الضبع عاقلة لتفكر كما تفكر؟ لا. فالجفاف والحر قدما لها غنائم أخرى من الحيوانات الضعيفة في البرية فتخلت عن المخاطرة، وربما اتجهت إلى مقابر أخرى ليس فيها بارود وفخاخ.

سمع صوتاً ناعماً في الخارج كأنه دبيب أقدام صغيرة ناعمة، فانتضى سلاحه ورمى غليونه جانباً وأبعد اللحاف عن المدخل قليلاً ونظر إلى الخارج. كانت العتمة شديدة، ولكن... أهي الضباع؟ يجب أن أتأكد. لا يجب أن أترك الأمر للصدفة. قال: سأجرب حيلة البارود المشتعل، وسأرى إن استطعت

إسقاطها في الفخ. وحمل عوداً مشتعلاً من الكانون وخرج ليشعل به البارود حين أحسَّ بالقطرات تلسعه ولم يصدق. فالتفت إلى السماء. ليس من نجوم، وأشرق قلبه: ما معنى هذا. أهو المطر، ولم يتفاءل كثيراً. قال: أشعل البارود فإن وقعت في الفخ كانت النعمة نعمتين ولكن البارود... لم يشتعل. تلمسه بيده. لقد تبلل. وسمع الخطوات هذه المرة أكثر قرباً، فانتقل كالمجنون إلى مكان آخر ليشعل به البارود، ولكنه كان مبتلاً أيضاً. تلمسه. أعوذ بالله. لقد أغرقه المطر. أيمكن؟ التمع البرق فغطى المكان ورأى القبور تحت وميض البرق وكأنها تتهيأ لمعانقة المطر.. وتسرب السؤال الذي ما كان له أن يسأله... هل دنا يوم القيامة، ولكن المطر اشتد. فتحرك نحو الكوخ. كان يدوس على البارود* الطيني الذي أغرقته المياه، وأحس بالأسف، خسرناه لا لفائدة وخسرنا الضبع، ولكن.. حاول أن يواسي نفسه.. المطر نعمة وقبل أن يصل إلى الكوخ انفجر البرق ثانية ثم الرعد، ورأى السواقي تعدو في حارات المقبرة وعلى وجهها البارود يمشي كزبد أسود.

انسلَّ إلى الكوخ، حامداً الله أنَّ لديه ما يحتمي به، ولكنَّ المياه كانت تتسرب من ثنايا العمد الخشبية في السقف. قوَّى نور القنديل، وأضاف بعض الحطب إلى الكانون. قال: لم يكن هذا في الحسبان. لفَّ نفسه بمعطف قديم وجلس إلى جانب الكانون، ولكن القطر ما لبث أن زاد وزاد حتى أصبحت جلسته غير ممكنة، فكَّر.... أمضي إلى البيت؟ ولكن كيف.. والمطر وربما السيول.. وماذا أفعل هنا؟ تحتمي من المطر. كانت القطرات تضرب رأسه وكتفيه، وكان يضحك: من السيد الآن.. الموت أم المطر...؟ وفجأة اندفع ضحكها المقعقع العنيف بكل شؤمه واستفزازه ففزّ شعر بدنه: ما الذي يجري.. أكانت تسمع أفكاري حتى تذكرني بنفسها وأنها في المقبرة تحوم.. أراد الخروج

للقائها، ولكن صوت المزاريب القوية والماء الكثيف المتسلل من شقوق السطح أقنعاه بأنَّ الجلوس في الكوخ أرحم...أطلقت الملعونة ضحكتها اللعينة الغريبة ثانية بل يكاد يقسم أنَّه اشتمَّ رائحتها القريبة من الكوخ: ما معنى هذا.. أهو دورها لاستدراجي الآن.. وضحك في مرارة: لا..لن أخرج، ولن أقبل استفزازها.. وفجأة رأى عمد الكوخ تهتز. كان المطر الكثيف قد أثقل السطح.. أعوذ بالله هل سأجبر على الخروج الأعزل لأجدها في انتظاري. لم يطل به التفكير. إذ فجأة رأى الكوخ يهتز بعنف، ويهتز ويهتز، ثم يسجد فوقه وقبل أن تتاح له الفرصة لتنفيذ فكرته في الخروج من الكوخ هوى الكوخ متكوماً فوقه.

* * *

فتح عينيه، ثم أغلقهما بسرعة، فقد كان القطر كثيفاً، وكان يستقبل السماء بصدره. حاول الحركة ولكن الجذوع الخشبية كانت تثقله. تزحزح قليلاً، ثم قليلاً، ثم انسلّ من القفص الخشبي. كان منقوعاً بالماء... ما الذي يجري، وقف على ساقيه، وأحسَّ بوجع في الركبة والكتف. تمنى ألا يكون أي منهما مكسوراً فلن يحتمل كسراً وهو في هذه الحال...

ألقى نظرة على المكان، وعرف أنَّها القيامة التي حدثه عنها الحجي طويلاً، فمجيء الأرناؤوطي، والقحط، والهيضة كلها إشارات إلى القيامة، وهاهي تتم كما حدَّث الحجي. كان ما حوله بركة كبيرة من الماء وقد انتشرت فيها عشرات الجثث. جثث بنصف جسد فقط، وجثث ليست إلا بعض عظام عليها بعض لحم، حرّك قدميه ليخرج من كومة الأخشاب المغسولة جيداً حتى كأنها لم تكن يوماً إلا أخشاباً فقط. ترى هل تبعث الأشياء في هذا اليوم؟

نزل عن مرقبه العالي وإذا به يغوص في الماء حتى الرقبة، حتى الصدر.. حتى... قاوم وقاوم حتى عثر على شيء صلب وقف عليه ليرى إلى جانبه

مباشرة جثة لضبع مكشرة. دفعها عنه في اشمئزاز.لا. إنها حديثة الموت. لا إله إلا الله حتى الضباع تبعث يوم القيامة...

جرّ ساقيه عبر الوحل والماء وعندئذ تذكر. لقد كان في المقبرة. كان في الأمس في المقبرة. وتساءل: أهذا ما سهّل عليه الانتقال، جرَّ ساقيه حتى عثر على شيء من أرض صلبة أدرك أنها الطريق خارج المقبرة... وقف. وكان الماء يصل حتى فخذيه. وقف وقد نسي الألم يتساءل: ألم يبعث غيره كاملاً، أليس من آخرين يتحدث إليهم فيسألهم عن الحساب ولقاء الأحبة بعد الموت. يسألهم عما سيجري بعد.. هل يسوقونهم إلى الجنة، أم إلى جهنم. تحسَّس جبينه، كان فيه بعض حرارة، وضحك. وهل يحمُّ المبعوثون أليست الأمراض والمجاعات والحروب من نصيب البشر ولكن في الأرض. فهل ستلاحقهم هذه المصائب حتى ما بعد الموت..

تقدم على الأرض الصلبة التي افترض أنها الطريق المؤدي إلى المقبرة ترى، ما الذي حصل لخديجة. هل سأراها ثانية وانقبض قلبه فلقد تخيل نظراتها التي ما انفكت تلومه، والحجي، والآغا وعنيز والآخرين. هل سأراهم. أحس بالوحدة، ليس بالوحدة فقط، بل بالجوع.. وتردد قليلاً. وهل يجوع المبعوث.. ألم يحدثوه في الجامع كثيراً (إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) ولكنه جائع! مشى قليلاً، وهاجمه خرير قوي فالتفت ليرى الحفرة الكبيرة جداً حيث كانوا يأخذون طينهم الأحمر لترميم البيوت. رآها وقد تحولت إلى بركة طاف على سطحها جثث الحمير والبقر والكلاب والدجاج.. ما الذي يجري. ما الذي جرى.. هل تقوم القيامة في الأرض ولاحظ نبرة شك في كلامه، أم أنها شيء آخر، ولكن ما الشيء الآخر إذن؟ إن لم تكن القيامة، وأين الناس، إن لم تكن القيامة؟

مشى ومشى وهو تارة ينزلق فيسقط في الوحل، وعليه أن يقاوم بشدة لينتصب، وتارة يحمله التيار، وعليه أن يسبح بسباحته الضعيفة شاعراً طيلة الوقت بأشياء لا يستطيع وصفها وهي تلطم بطنه وساقيه وعجانه، ولكنه يسبح حتى يصل إلى مرتفع فيتسلقه ليبدأ المشي الصعب في الوحل والماء.

وقف على المرتفع الموحل ليكتشف أنّ فردة حذائه قد ضاعت وصار عليه الآن أن يمشي بفردة واحدة معرضاً قدمه اليمنى إلى الأحجار الحادة وكسر الزجاج التي يمكن أن تمزق قدمه. نظر من حوله يتمنى رؤيتها عائمة، ولكنها لم تكن عائمة... نظر إلى اليمين البعيد ورأى أشجاراً عارية مغسولة الخشب وتمتم: لم يحن الربيع بعد..

سمع من بعيد صرخات نداء، وتوقف. أهذا ممكن؟ أما يزال البشر يصرخون؟ سمع نداءات. نعم نداءات. إنه يعرفها. ولووو.. ممطوطة. ترى من ينادي... مشى إلى الأمام، ولم يسأل نفسه أبداً إلى أين يسير، ولكنه حين لمح مئذنة الجامع ما تزال منتصبة عرف أنه في طريقه إلى بيته. وتنهد ما الذي يتوقع أن يجد فيه؟

كانت سواقي من الماء تندفع مخرخرة تلطم قدمه العارية وهو يحاول أن يقفز عبر الوحل وعبر السواقي. و كان هناك جثث حمير وأبقار وماعز تسترخي إلى جانب الطريق بعد صراع طويل مع ماء لم تستطع مقاومته.

فجأة رآه. كان خارجاً من حارة عارياً إلا من قميص وحذاء وكان قضيبه الملفوف في الخرق متدلياً حتى القدمين. صدم للمشهد فتوقف، نظر إلى الوجه، وكانت لحيته المصبوغة بالطين قد جعلت شكله يبدو وكأنه خارج من قبر. وحين رآه الآخر رفع قضيبه الخرقة وأخذ يلوِّح به وهو يقترب منه مغنياً في حشرجة:

عمـــي يـــا بيـــاع الخـــس   الله الـــــــــــــــــــدايم

ثم وكأنه نسي الأغنية فأكمل:

خلـــيني شمٌّــــه وضـــمُّه   الله الـــــــــــــــــــدايم

وارتعب الشاويش: إنها القيامة إذن. القيامة التي يسمح فيها للماجنين بـأن يعيشوا مجونهم. أراد الابتعاد عنه، ولكنه صرخ فجأة: زيدان لماذا تـهرب مني؟

وتوقف الـشاويش مرعوبـاً إنـه يعـرف اسمـه. التفـت ليجـده وقـد أشـرع ذراعيه وهجم. وعرف أنـه الـشيطان. وعـرف أنـه سيحمله إلى جهـنم. فـأطلق ساقيه للريح، وما يزال جعير المطارد يعلو حتى وجد نفسه أمـام بيتـه، فـدفع الباب فاندفع ووجدها جالسة في صبر تنتظر.

قالت: الحمد لله على السلامة.

قال: الله يسلمك.. ما الذي يجري؟

قالت: تعال فغيِّر ثيابك. لا تمرض.

ومضى معها مستسلماً، ولكنه قبل أن يخلـع ثيابـه سمـع صـوت الـشيطان المطارد أمام الباب وهو يصرخ: حسان. ما بتعرف أنا مين. ما بتعرف أنا مين.

قالت: هل أفتح له؟

قال مدهوشاً من رغبتها: تفتحين للشيطان؟

ضحكت وقالت: مسكين. إنه عنيز وقد أصيب بلوثة منذ سقط البيـت علـى زوجته وأولاده ليلة أمس، ولم يخرج سواه حياً مـن البيـت.. دعـني أفـتح لـه، ولكنه رفض، فيجب أن يغير ثيابه أولاً.

- 35 -

استطاع الوصول إلى السنجقدار، وكان لابد له من الوصول إلى القلعة. يجب أن يرى الوالي، المرسل من السلطان وليِّ النعم. يجب أن يصل إليه ويبلغه الرسالة. إنها علامات القيامة تتحقق واحدة إثر الأخرى، وعلى الوالي أن يدعو الناس إلى العودة إلى الله، وأن يتوبوا عن الآثام التي لم تعد مستنكرة لديهم. كان يرى الشوارع وقد تحولت إلى سواقي من ماء ووحل. أين كان كل هذا الوحل. كان الماء يندفع، وكان الوحل يتكاسل عند كل حاجز أو حفرة فيجعل الطرقات ممرات للماء الموحل والوحل.. ولكنه أفلح في عبورها جميعاً، أفلح حتى وصل إلى السنجقدار. كان قد رأى صبيين في العاشرة أو الثانية عشرة وهما يجران جثة كلب ربطاها بحبل وأخذا في جرِّها وهي تتقلب من ورائهما، وقد انشمرت شفة الكلب العليا فبدت أسنانه الكبيرة، كاد يصرخ فيهما، ويمنعهما على عادته في النهي عن المنكر، ولكنه كان متعباً، وكان حلقه مبحوحاً، فلقد قضى ليلته الماضية وهو يرفع شكواه إلى الله ويصرخ: أرهم قوتك. أرهم جبروتك. أوقف الملعون عند حده: لقد تمادى حتى ظنَّ أنَّه قد آن أوان مملكته. أوقفه يا رب أو خذ أجلي قبل أن أعيش في مملكته التي مهَّد لها الأرناؤوطي الملعون، وكان يجعر: يا رب خذني إليك. خذني إليك فأنا أشعر أنك لم تعد تعبأ بنا. خذني إليك ولا تدعني أعيش في مملكته.

كان يصرخ: كنت أعرف أنّ هذا ما سيصل بنا إليه الأمر بعد أن أدخل الإفرنج إلى مدينة حجك. بعد أن أدخل قناصلهم ينصرون أبناء ملتهم وجنسهم على المسلمين، كنت أعرف أنَّ هذا سيتم منذ سقط المسلمون تحت نير الربا الذي ساقهم إليه الأرناؤوطي ورجاله، يا رب، الأنوال تتوقف ويحلُّ محلها القماش الإفرنجي الرخيص فيتخلى الناس عن أنوالهم وحريرهم وصوفهم ويشترون القماش الإفرنجي الأرخص، ولا يتمكن الصانعون من دفع ضرائبهم فيقعون في فخ الربا وبيع بيوتهم ودكاكينهم وأراضيهم الزراعية لمن حملوا جنسية القناصل فاستقووا بها على أبناء جنسهم.

يا رب أعرف أنك ضقت بما فعل الناس في شام شريفك فأريتهم بعضاً من غضبك.

قضى الليل وهو يجأر ويجعر والسقوف تَكِفُ والباحة مغمورة بمياه لم تعد البلاليع قادرة على تصريفها.

يا رب. كان يصرخ في شماتة – أرهم أنك الجبار. أرهم أنك من لا يستطيعون تجاهلك وإرضاءك بطجّتين وركعة. أرهم عظموتك. أرهم أنك سيد ملكوتك. أرهم جبروتك. كان يخترع كلمات لم يكن معتاداً على إطلاقها ولكنه شعر أنه يجب أن يقولها.

وكانت السماء تنسكب والبيوت الضعيفة تتهاوى، ولم يكن يشفق عليهم. هؤلاء الذين استدعوا الشيطان يمكّن لملكته بديلاً عن مملكة الله التي كانت الشام شريف نور عينها، فجاء الفاسق الأرناؤوطي...

وصل إلى السنجقدار وفوجئ بالحي التجاري الكبير وقد تحول إلى بركة يصطرع فيها السمك وتتلوى ثعابين الماء أضعفها البرد.. أدهشه المشهد. لقد انقلبت الدنيا. لقد انقلب كل شيء في يومين فقط، فبعد بردى متشقق القاع من

الجفاف هاهو النهر بكل عظمته لا يستطيع تصريف ما يرده من الماء فيصنع هذه البركة العجيبة. وشهق. الطوفان في السنجقدار؟ لابد أنه وصل إلى سوق ساروجة على الجانب الآخر ما الذي يجري.. أراد أن يخاطب الله ثانية، ولكن صراخاً وتهليلاً لفتا نظره. كانوا قد أتوا بقارب على طنبر. لم يصدق عينيه وهو يراهم ينزلون القارب في الماء... لقد تحول السنجقدار إلى بحيرة، وكان غير مصدق، وكانت دهشته تجعله يسأل الله مباشرة الجواب، أما الناس العاديون فقد جاؤوا بشباكهم وأخذوا يرمونها ثم يرجعون بها وقد امتلأت سمكاً وثعابين ويقهقهون في جذل، من أين جاءت كل هذه الأسماك والنهر كان ناشفاً وأرضه قد تشققت من العطش، من أين؟

وفجأة التفت إلى السماء في سعادة: يا رب. أنت القادر، فأرهم معجزاتك.

لم يستطع الوصول إلى الوالي، فالبركة كانت تحجز ما بين القلعة وبين الطرف الجاف من السنجقدار، ورأى الناس يهجمون على السمك بعد إخراجه من الشبك ويحملون، وكان الصيادون دون خبرة يبيعون بالفلوس النحاسية فالسمك كثير، وليس من شار له إلا هؤلاء الناس.

هتف الحجي: صحيح ما قالوا يا مولاي. مصائب قوم عند قوم فوائد. استدار ليعود إلى بيته وقد حلّ عليه شيء من هدوء أناس عرفوا كيف يفيدون حتى من مصائبهم.. والوالي؟ لنترك الأمر حتى يستقر العالم. وماذا إن تمكن الشيطان من الإمساك بمملكته..

وقال في استسلام: الله أدرى أين يضع سره.. امض يا حجي امض.

* * *

لم يستطع الطوفان الدخول إلى بيتها فقد كان البيت مبنياً أعلى من البيوت المجاورة جميعاً، ولم يستطع الدخول إلى غرفتها فقد كان المعمار والطيان اللذان

عملا على غرفتها ماهرين فلم يتأثر سطح الغرفة ولا جدرانها، ولم يستطع إرعابها أو تخويفها كما فعل بالكثيرين والكثيرات. نظرت إلى وجهها في المرآة الكبيرة المؤطرة بالموزاييك كان فيه شيء من جنون كما كانت نفيسة خانم تعلن دائماً، ولم يكن الآغا يوافق على ذلك وإن شكّ فيه بين الحين و الآخر. وربما كان هذا الشك ما جعله يغفر لها كثيراً من الشطط الذي كانت تفعله وما كان أكثره.

هذا الجنون هو الذي جعلها تقف على المشرقة عارية تماماً تعرض جسمها الغلامي للمطر الحاد ولحبّات البرد التي كانت تداعب جسدها الفتي في دغدغة لا تنتهي. كانت قد أشعلت المنقل وتركته يدفئ غرفتها وخلعت ثيابها كاملة، قالت أريد الطهارة من حماقات هذه البلاد، أنا أعرف أن هذا المطر بلا حدود هو محاولة من الأرض للتطهر من إثم الفاسدين الذين اعتلوها... قالت: وأنا واحدة من هؤلاء الأبناء الفاسدين.

وقفت تحت المزراب مباشرة تحس انهمار الماء القاسي على صدرها الأمسح وتصرخ: طهريني. طهريني يا أمي. – ولم تكن تعني نفيسة خانم – طهريني يا أم الطهر. طهريني. ثم انقلب الصراخ إلى: طهرني.. طهرني يا روح النقاء ووهج النور والنار. طهرني يا ضوء الليل. طهرني يا رعب القحط. طهرني.. وانتبهت إلى أنها تخاطب مذكراً، فتراجعت والتفتت، فجعلت قفاها للعالم ووجهها لجدار الغرفة تاركة ماء المزراب يلطم ظهرها: طهريني يا أم الطهر. طهريني يا فجر ما قبل الفجر. طهريني.. والتفتت ثانية جاعلة قفاها للجدار ووجهها للعالم لترى البرق يملأ السماء وترى ظلها وقد أطاله البرق عشرات الأذرع، فأفزعها الطول، وكادت تسأل من أنت؟ ولكنها على عادتها لم تكترث

للسؤال، فقد أخذت تغسل شعرها القصير، قصرته لحضور الكوميضا، وقصرته لتظهر أمام الناس الصبي الذي لا يخشى شيئاً.

أغمضت عينيها ولم يكن البرد ما يعنيها رغم أنّ ماء المزراب كان بارداً، ولم تعبأ باحمرار جسدها تحت وقع سياط المزراب فقد كانت مشغولة. بم...؟ لا تعرف، ولكنها كانت مشغولة، وكانت تعرف أنّ هذه فرصة ربما لن تتكرر، أن تغتسل بمطر لا ينقطع لساعات وربما لأيام، فقد أطلّت في الصباح على الحارة ورأت السيول تحيل الحارة إلى نهر حدوده جدران البيوت المحيطة، ثم اتجهت إلى الجانب الآخر للبيت، ورأت الحارة الأخرى وهي تحمل رؤوس القرنبيط والملفوف وتؤرجحهما لاعبة بهما كما يلعب الصبي بالكرة....

أغمضت عينيها لترى إن كان بإمكانها أن ترى البرق عبر جفونها المغلقة واندفق البرق، فامتلأ رأسها بالبياض. لا.. لم يكن البرق البارق فقط، فقد كانت عيناها مليئتين بالنور الأبيض الدائم. ارتعبت، ففتحت عينيها ورأته... نعم.. رأته ببساطة. كان يقف معلقاً في الهواء وقد نبت له جناحان نشرهما وإن لم يرفَّ بهما. أنزلت كفها بسرعة تستتر، وسمعت قهقهته: أروى.. أروى. أمِنّي تستترين؟ أروى.. أروى.. أنا صبي أحلامك حتى قبل أن يكون لك أحلام. أفتذكرين؟ وهزّت رأسها في إيجاب لم تسأله عن هويته، فقد كانت تعرفها، ولم تسأله عمّا جاء به إلى هنا فقد كانت تعرف الجواب قبل أن تسأل.

كان جناحاه مشدودين لا يرفان، وكان المطر ينزلق عنه كما ينزلق عن الزجاج...كانت تعرف أنه سيمضي ويختفي كما تفعل كل شخوص الأحلام. كانت تعرف ذلك بكامل وعيها، ولكنها كانت تأمل أن يكون مختلفاً بعض الشيء هذه المرة، وأخيراً فتحت عينيها على سعتهما ولدهشتها لم تطرف، ولم يدخل إليهما ماء المطر على غزارته. فتحت عينيها وواجهته: كم أنت جميل،

قالت في سرها، ولكنه صرخ من موقفه بصوت عال: أعرف. أعرف كم أنا جميل، وأعذرك إن فتنت بي وإن كنت لا أشتهي ذلك.. قالت: ألا تنزل إليَّ؟ قال: ولم أنزل إليك؟ قالت: لأراك عن قرب.. قال: ولكنك رأيتني وعرفتني، ورسمتني أنسيت؟

لم تكن واثقة أنها سمعت ما سمعته، ولم تكن ترغب في استعادته، فصمتت وعند صمتها. أخذ الجناحان يرفان في نعومة. فعرفت أنه ماض، فصرخت: ولكن... ما الذي يعجلك... قال: عالم كبير يحتاج إليَّ.. عالم يضج بالشهوات، ويضج بالرغبات، ويضج بالأحلام... لا تصدقي ما يقولون، فأنا المحبوب والمرغوب والمشتهى. أنا باعث الأحلام ومحرك الشهوات والإرادات. أنا من يجعل هذا العالم يخرج من نعاسه ويبدأ رحلة الصعود إلى غده... أنا من.. كان يبتعد والبرق يبرق. كان يبتعد والجناحان يرفان في انسياب هادئ، انسياب لا يشبه رفرفة الطير القلق يخاف السقوط إن لم يرفرف.. فهو لم يكن يخاف!

أحست بالبرد وتساءلت: أتراه من كان يدفئ المكان فلم تشعر بالبرد. برق البرق ولكنه كان قد اختفى تماماً فلم تر له أثراً، وأرعد الرعد فلم تسمع آخر نداءاته، وازداد البرد حتى بدأ الرعش، فانثنت إلى غرفتها وكان المنقل قد أدفأ جدرانها فتدحرجت على الفراش الممدود تتجفف وتبلله، وما إن جفت حتى لبست وأكملت دفئها، ونظرت إلى الجدار حيث الرسمة، فرأته يحدق فيها... تأملته طويلاً، ثم همست: لا. بل هو أجمل.

أمسكت الريشة وبدأت تعدل فيه، في الجبين، في بريق العينين، ومكر العينين وذكاء العينين.

كانت ترسم ولا يعجبها ما ترسم، فقد كانت في رسماتها الأولى تنسخ ما يرسم برناردو، وكانت من الذكاء بحيث ترى الاختلاف، فتعدل، ولكن النموذج الأمثل كان موجوداً، إنه ما أنتج برناردو، وكان برناردو يرسم من الذاكرة شيئاً لم يره، ولم يعرفه، ولم يؤمن بوجوده، بل كان شيئاً ربما مادة للتهريج. تماماً كما فعل لوسيان وهو يسخر من الدعوات الأفلاطونية لنبذ المرأة المخلوق الناقص، والذي لن يكتمل أبداً، وبما أنّ لوسيان كان عاشقاً كبيراً لكل أولئك الهلنستيين الظرفاء من الشوام والمشارقة والذين لم تضغط اليهودية المتشددة عليهم، فتشوّه دنيويتهم الجميلة، ثم كانت المسيحية عدوة الفلاسفة والآلهة الأرضيين الذي يستجيبون لكل دعاء فهم ليسوا مفارقين، وليسوا متعالين، بل كان كثير منهم يحب بنات البشر فينزل إليهن ويغازلهن ويحبِّلهن، وكثير من الإلاهات كن ينزلن إلى الأرض يطاردون الأبطال من الرجال، أو من أنصاف الآلهة. كان هنالك شيء حميمي في العلاقة بين السماء والأرض حتى جاءت الطهرانية في الدين الجديد، فكرهت العناية بالجسد، وكرهت عبادة الجسد، وكرهت الجنس ككل فهو لهو عن التعبد للسماء الكبرى...

كان برناردو الابن المتأخر للهيلينية والمعجب بها حتى الذوبان يقوم في رسمه بالدور نفسه الذي قام به لوسيان، فسخر من الأفلاطونية وازدرائها للمرأة. وكان لوسيان حين صور قلمياً ذلك المخلوق الكامل حامل الذكر والأنثى في جسد واحد يعرف أنَّ هذا مستحيل فجعل منه سخريته، وكان هذا هدفه الأساسي من رسمته التي أيقظت الشيطان في أروى، فلم تر السخرية فيه، ولما كانت ناقصة الأثداء، ناقصة الخصب إذ لم تحض قط، فقد كانت تعرف أنها قد رأته، ربما في أحلامها مرة، وربما في تشهيها لمثيلها مرة، ولكنها في هذه المرة

رأته. رأته وهو يحوم في العاصفة، ويضيء في البرق، ويحلّق دون رفرفة فوق بيتها، ورغم أنه لم يعلن لها هويته إلا أنها عرفته.

وهنا بدأت أزمتها إذ أنها ما إن طلع الصباح وصار بإمكانها أن ترى رسماتها السابقة التي كان معلمها فيها المخشخش حتى رفضتها جميعاً. أحسّت بسخفها وضعفها وعجزها عن التعبير عنه. فأدارتها إلى الجدار، ونصبت أقمشة جديدة وبدأت رسمها.

كانت المعضلة أمامها أنها رأته متحركاً، ورأته طائراً بلا أجنحة، ورأته يشعُّ دون نور. كانت تعرف ما رأته، ولكنها حين بدأت الرسم عرفت كم كانت أصابعها ضئيلة وعاجزة، ولكنها كانت مضطرة لتخليص روحها إلى أن ترسمه، كانت ترسم وتدير إلى الجدار وترسم ثم تغطي ما رسمت بالأبيض، ترسم وتعرف أنها لم تحظ بتثبيت ما رأت في تلك الليلة العجيبة.

فجأة تذكرت. تذكرت ذلك المجنون الذي رأته في التياترو والخرقة المقواة يحملها ويهزها ويهدِّد بها والناس تسخر وتضحك وتداعب، قالت: لابد أنَّه رآه، ويجب أن أسأله كي أرى، كيف يرون ما رأيت، وهل كان ما رأيت مصدره هو، أم كان المصدر أنا؟

انتظرت الغروب ولم تحاول التلصص على المخشخش ولا على ما يفعل فقد عرفت أنه صار خارج اهتماماتها، لم تحاول معرفة المشاكل التي يجابهها، وكان يجابه الكثير، ولكنها لم تكن ما يهمها. ولم تحاول التجسس على الآغا ومغامراته مع المخشخش فقد عرفت الطريق إلى التياترو.

مع العتمة الأولى وضعت الكوفية وثياب الصبي، وانسلت إلى السوق الطويل، ثم انقلبت إلى حارة النصارى، ثم إلى المدرسة العازارية، كانت قد حفظت العنوان تماماً لكثرة ما كررته منذ مغامرة مطاردة الآغا والمخشخش.

بحثت عن الإعلان والرسمة يعلنان عن الكوميضا الجديدة ولكنها لم تره. بحثت عن المهرج يقرع الجرس ويصرخ: شوف. شوف. ويشير إلى باب التياترو، ولكنها لم تجده.

وأخيراً اتجهت إلى مقهى قريب فسألت الخادم عن الكوميضا وأين تعرض اليوم، ولكن خادم المقهى نظر إليها جانبياً، وقال: بح.

- ماذا تعني بح؟
- سافروا. هربوا..
- لماذا؟
- هربوا فالفيضان، وغرق الأجهزة والثياب، وتهديد الحياة بالفيضان... تركوا كل شيء، وهربوا إلى بيروت.

قالها هو يستدير لمتابعة شغله غير مكترث بمزيد من الحديث عن الكوميضا ورجال الكوميضا ومهرج الكوميضا.

أحنت ظهرها مستسلمة وعادت، وعلى الطريق اكتشفت أنها لم تضع وقتها عبثاً، فلقد عرفت من خادم المقهى وإن لم يقصد أنَّ خمسة عشر يوماً انقضت عليها منذ محاولاتها لرسمه التي لم تنجح، وكانت تظن أنها قد بدأت بالأمس أو ما قبل الأمس فقط.

- 36 -

فزع الحجي للخبر، وإن كان قد توقعه كما قال فيما بعد بشكل غامض، فالكارثة التي حاقت بالمدينة، ومئات النعوش المحملة بالغرقى، والمدفونين تحت سقوف بيوتهم، وغير المحملة بشيء أصلاً، فالسيل حمل أصحابها إلى حيث لم يعثر عليها. أو إلى حيث أكلتها وحوش البر الجائعة. وكارثة كهذه لابد أن يتحمل أحد مسؤوليتها. ومن الأجدر بحمل هذه المسؤولية من الوالي الذي لم يستطع وقف الهيضة وقالوا إنها امتحان إلهي، ولم يستطع وقف الغلاء الشديد، وقالوا إنه نتيجة طبيعية للقحط، ولم يستطع التعامل مع القحط فتشققت أرض النهر، ثم.... كانت الكارثة العظمى... الآن فقط أدرك الحجي أنه كان يتمنى زوال هذا الوالي الغبي الذي لم يستقبله، ولم يستشره في الكيفية التي يمكن للمدينة التعامل بها مع الكوارث...وتساءل: لماذا لم يستشره؟ ألأنه كان مكشوفاً ومعرًّىً أمام الآخرين لهذه الدرجة..أفكانت أفكاره معلنة إلى هذه الدرجة؟ إزالة كل أثر لكل فعل أتاه الأرناؤوطي، وطرد الإفرنج من المدينة لتعود الشام شريف الطاهرة كما كانت؟ وتنهد في حزن: أهذا كثير؟ لقد عاشته المدينة مرتاحة لمئات السنين، فلماذا يفترضون أنها لا تستطيع أن تعيشه لبقية العمر؟

كان استدعاء الوالي تقليداً معروفاً. إنها طريقة كريمة للعزل فهم يستدعونه إلى استانبول ثم يهملونه، ويتركونه للترجي والتمني، وتقديم التنازلات والهدايا والرشى، ولكن لا... لقد جربوه وأخفق، فلينتقع في ماء خيبته.

وسأل الحجي الشاويش: ومن سيخلفه.. هل عرفتم؟ ونشر الشاويش ذراعيه في عجز وقال وإن لم يقل: وهل لمثلي أن يطَّلع على ما يمكن أن يكون الأسرار السلطانية.. وأخيراً قال: سيرسلون، لا تهتم يا حجي لا تهتم. سيرسلون باشا جديداً. سيرسلون.

لم يكن هذا هو الخبر المفزع الوحيد الذي وصل إلى المدينة في هذا اليوم، فمع الغروب وصل طظري الحج، وكان مصاحباً لقافلة حلب. ومع ذلك فقد أرسله الباشا الحلبي، فلا يمكن السكوت أو تأجيل مثل هذا الخبر... قافلة النسوان، أو قافلة حج الشام غرقت كلها، فاجأها السيل فسحب الجميع، الجمال والصناديق والحراس والخدم والمحارم و.... النساء.

كان السيل عنيفاً بحيث لم يعثروا على الصناديق الثقيلة جداً إلا قرب جدة أما الجمال الخفيفة والنساء الأخف، فقد جرَّها السيل وابتلعتها الرمال أو حيوانات البر.

استقبل الحجي والشيخ سليم الططري طالبين إليه الحديث بالتفصيل عما جرى، وأخذ الططري بالحديث في عادية من يحمل مثل هذا الخبر كل يوم، كان يتحدث بعادية عن السيل يغطي الأفق فجأة، وعن الحيوانات التي تبرك مفزوعة عند سماعها الدوي، فهي تعرف أنها لن تستطيع النجاة، فتبرك لتستقبله بشجاعة، أما النساء والأطفال والخدم وضعاف الرجال، فهم يحاولون النجاة بأنفسهم. إنهم يركضون ويركضون ويولولون ظانين أنّ ركضهم سيبعدهم عن مجرى السيل العرم، ولكن خطواتهم القصيرة أمام اندفاعته المرعبة لا تترك

لهارب منجى ولا لبارك مهرب، ويتوقف قليلاً: شهدت آثار سيول كثيرة، أما السيول نفسها فأحمد الله أني لم أشهدها، فسيول الصحراء نـدر أن ينجـو منهـا من اصطادته في واد، أي في طريق القوافل ففي دقائق يصبح حبيس المـاء مـن قبـل ومن بعد.

كان الحجي والشيخ سليم وعدد من الأعيان قد ناقشوا طويلاً مسألة السماح للآغا بحضور اللقاء مع الططري، ولكنهم أجمعوا أخيراً على عدم تبليغه، فربما لن يستطيع احتمال الخبر، وعلى من يبلغه إياه إبلاغه له بالتدريج. ولكنَّ خبراً بإرعاب وعظمة غرق قافلة النسوان لا يمكن كتمه عن الآغـا، وهكـذا في منتـصف لقاء الشيخين والكبراء مع الططري فوجئوا بالباب يطرق، وبالخادم تعلن وصول الآغا ولم يجدوا مفراً من إدخاله، ولكنهم طلبوا من الططري التلطـف بالحـديث عن الكارثة فالرجل فاقد لشابين هما وحيداه، والرجل طري عموماً ولـن يحتمـل مثل هذه المصيبة، ولا نريد فقده في مثل هذا الوقت.

- 37 -

نظرت أروى إليه في جمود وكان يتوقع انفجار البنت حزناً على أمها، ولكنها كانت تستمع وتنتظر أن ينتهي من حديثه لترجع إلى شغلها. حدَّثها مخففاً وملطِّفاً عن الحادث الفظيع الذي تعرضت له القافلة وأنّ المرحومة... قالها يمررها في حذر.. نفيسة خانم كانت بين من ابتلعهم الرمل والسيل.

كانت منهكة من عمل طويل وسهر متواصل ونهك عصبي شديد، فلم يهزّ الخبر فيها الجرس الذي كان الجميع يتوقعونه. واكتفت بالقول وهي تتنهد:

- طيب. الله يرحمها.

نظر إليها مدهوشاً ولكنها أشاحت بنظرها، تتململ تململ من يكاد يقول: وبعدين؟ أهناك شيء آخر.. أرجوك لدي شغل عليّ إنهاءه... واكتملت دهشته، ولكنه لم يعتد في علاقاته الأسرية على المكاشفات والتلاومات معها أو مع أمها المرحومة. انتصب وقال: على أية حال... لن أغيب طويلاً. شهراً وربما شهرين. سأمضي مع قافلة النجدة. ليس فيها نساء ولا حجاج. سأمضي معهم لاستكشاف ما جرى ولعلي أعثر على ما يفيد هناك.

هزَّت برأسها في ذهول موافقة أو مرددة، أو معترضة، فهو لم يفهم إلا أنها هزة الملل، فمضى ليفاجأ عند الباب بالحجي والشيخ سليم ومعهما الشاويش. قالوا: لنا إليك كلمة. هل تستقبلنا لدقائق؟

واضطر لاستقبالهم شاكراً أنهم جاؤوا، فقد كان ماضياً لإبلاغهم رغبته في الرحيل إلى الحجاز للبحث وربما الكشف عن معنى هذه الكارثة. كان يعرف أنَّه قرار سخيف فما مضى قد مضى، ورجال القافلة من العسكر الأشداء كافون لإبلاغه بما جرى بالضبط لو أعطيتهم قرشين، ولكنهم حين رأوا إصراره وإلحاحه على مرافقتهم واستعداده لدفع ما يتوجب عليه وزيادة، وافقوا، ولم لا. فنقود الآغا ليست أقل أصالة من نقود الآخرين.

لكن رسالة الكبراء لم تكن تتضمن هذا المعنى أصلاً، بل كانت رسالة أخرى. سنقيم للشهيدات *لقد صار اسمهن الشهيدات الآن* جنائز تليق بمن توفين في سبيل الله. جنائز تجبر كسر قلوب أحبائهن الذين فقدوهن.

- ولكن... اعترض الآغا. جنائز ولا جثث؟

فقال الشيخ سعيد: لديهن قبور جاهزة وعائلاتهن يتمنون إقامة جنائز لهن والمدينة كلها تريد هذا، أفنخالف المدينة؟ وهذا أقل ما يجب لهن علينا. لم تجر لهن الجنائز والصلوات الضرورية، ولم تقم القبور هناك في البرية والسيل، ونحن....

وفهم أنَّ المطلوب منه كان الموافقة على إجراء جنازة لنفيسة خانم تليق بالعائلة الكريمة.

- والجثة؟ قال معترضاً – الجثة. هل تقيمون جنازة بلا ميت؟

قالوا: الضرورات تبيح المحظورات. وبعد مداولات طويلة رأوا ملء الكفن الطاهر بالقماش والقطن الطاهر وحمله وكأنه جثة تلك الروح الطاهرة التي ضاعت في الأرض الطاهرة. تلفت من حوله حائراً ليجد أنهم قد اتخذوا قرارهم وانتهوا، وأنَّ اعتراضه لن يفيد في شيء، وحتى إعلانه أنه يريد السفر إلى الحجاز مع قافلة الجند المرسلة من باشا حلب بعد خلو باشوية الشام لسفر

الباشا إلى استنبول لن يفيد، فالجماعة اتخذوا قرارهم، وسيكون الشاذ البغيض الوحيد، والمعارض السيئ لمكرمة تريد المدينة إقامتها لشهدائها.

أرخى رأسه بين كتفيه واستسلم لرغباتهم موافقاً، وبدأت الاستعدادات لإقامة جنازة الطاهرات البيض فهكذا سيطلق عليهن من بعد.

كانت جنازة فخيمة تليق بالحارة، وتليق بالشهيدة نفيسة خانم، فلا يجوز أن يكون لحيٍّ الميدان طاهراته البيض، ولا يجوز أن يكون للشاغور ولحارة الجورة، وللعمارة وللقيمرية ولسوق ساروجة طاهراته البيض، ولا يكون للقنوات شهيدته الطاهرة حتى لو رفض زوجها ذلك. فرفضه لا يعني شيئاً، ثم... هو لم يعد زوجها منذ وفاتها. صرخ الشيخ سليم، فعقد الزواج ينقطع بوفاة أحد الزوجين، ربما سرَّب بعضهم ذلك الحديث إلى الآغا، فاحترم نفسه ووافق، وتخلى عن فكرة السفر، وربما لم يسربوا الفكرة إليه إذ يجب أن يكون قد عرفها من تلقاء نفسه، فهو المتعلم الذي مضى في شبابه يطلب العلم في الأزهر. صحيح أنَّه لم يكمل تعليمه هناك، ولكنَّ معلومة كهذه هي من البديهيات التي كان عليه أن يعرفها.

لم يفاجأوا بموافقته، كما لم تفاجأ أروى بعدم سفره إلى براري الحجاز يبحث عن جثة سحبها السيل وغطاها الرمل وانقضّت عليها وعلى ضحايا الرمل حيوانات البر.

كان حظ حي القنوات ضئيلاً إذ لم يكن لديهم من الشهداء سواها فقد كان المحرم الذي صحبها إلى الحج ابن نصف أخ لها أي ابن أخيها لأمها ولم يكن مقيماً في القنوات، بل كان مقيماً في قرية القدم الشريفة، ولذا كان المهتمون بتشهيده هم أهل القدم، و... لم يتبق لأهل القنوات إلا نفيسة خانم، وكان عليهم أن يبيِّضوا وجوههم ووجهها.

كانت الجنازة حافلة، وكان في مقدمة المودعين الحجي، والشيخ سليم، والشاويش، والآغا، وحتى عنيز الجحش، وكانت حبسة البول قد عادت إليه، فسعد بذلك إذ أنه لن يضطر إلى تغيير ثيابه كلما عنّ لمثانته أن تنفلت على كيفها، وهكذا عاد إلى الصلاة وراء الإمام، وعاد إلى قلع الأضراس ولم تعد رائحته تثير اشمئزازه فيبقى النهار كله في البيت عاري الأسفل، الأمر الذي جعل زوجه وأبناءه يلتفتون جانباً ويخفون ضحكتهم، فلقد رأوا أخيراً ذلك الشيء العجيب الذي جاءهم باسم بيت الجحش و... لم يكن شيئاً مهماً، كما قال ابنه الكبير، وإن أحس ابنه الأوسط أنَّ كلمة أخيه كانت تتضمن شيئاً من الشماتة و... الحسد.. المهم. هذا الضحك توقف أخيراً حين سقط البيت عليهم جميعاً على الزوجة والأولاد فتحرر من الخجل والتخفي كلما سمع حركة في البيت، ولكن هذا التحرر – اللعنة ما لبث أن حبس بوله وأفلت حزنه وغلّف عقله بشيء من الضياع، ولكن الحزن كما قالوا له مرة ليس كالشجرة التي تبدأ صغيرة وتنتهي كبيرة، فالحزن يبدأ كبيراً كالشجرة وينتهي صغيراً كعشبة على جانب الطريق.

المهم. كان في مقدمة المودعين عنيز الجحش والذي كان يتساءل وهو يرى النعش يسرع من أمامهم. هل يحق له الآن الإفصاح عن السر الذي جعلته يقسم بالطلاق وعلى المصحف على كتمانه.. وكان يمكن له الاستمرار في هذه المناجيات لو لم يتوقف النعش عند باب التربة فيتوقف المودعون حائرين فيسارع الحجي إلى القول إنَّ الشهيدة تتشهى الحضرة، وعليهم أن يقيموا لها حضرة الوداع.

التفَّ المودعون في حلقة إثر حلقة، وانطلق الشيخ سليم يطلق مدائح النبي وقصائد الوداع، وكان الجميع يرددون من ورائه لازمة: أحمد يا حبيبي سلام عليك. يا روحي وطيبي سلام عليك.

كان الآغا يتفرج وتنفرج ربطات، وعقد، وأحزان، واضطرابات، وهيجانات لم يكن يدري لها سبباً. وهاهو الآن مع الأناشيد والترديدات المنغمة يشاركهم فيها فيحسُّ بأنّ وحدته تذوب، وأنه يذوب ليدخل في مجموع كان قد أضاعه منذ زمن طويل، بحث وبحث، ولكنه كلما طال به الزمن أيقن أنه صار صعباً العثور عليه، وهاهو الآن وهو يسمع هذا الذوبان الجماعي يغني: سلام عليك سلام عليك فيحسُّ أنه المخاطب ويحسُّ أنَّ السلام يعود إليه....

أخرجه السعي الخفيف وراء النعش من نشوة الذوبان في الجموع، وتشهي التحولات الجديدة، فهو يسعى، ويلف معهم في حارات المقبرة التي يحفظونها جيداً ولا يخطئون.

كان المنشد ينشد، وكان المودعون ينشدون من ورائه. وأخيراً وصلوا إلى القبر، وقام الحجي كبير المودعين بإلقاء كلمة الوداع والحديث عن مناقب المرحومة التي انتهت شهيدة في أطهر أرض.

وعاد الآغا إلى هواجسه، وماذا عن طريد القارتين آويته مخاطراً بكل سمعة، مخاطراً حتى بأمني لو قرر الوالي أن يستجيب لنداءات الخديوي فعثر عليه... ولكن... وقف فجأة يواجه نفسه في غضب: حسن آغا إلى أين تمضي... أنسيت من أنت. أنسيت أنك كنت تقدم نفسك بأنك من رجال جان جاك روسو، وأنك الوقود الأول لثورة إنقاذ هذا البلد.. كيف تجرؤ على التفكير بأنَّ عمرك كله كان خطأ.. و... أحس يد الشاويش تلمس كتفه فيخرجه من تهويماته.

قال: القبر مفتوح، ويجب أن ينزل أحدهم الجثة إلى القبر.

وقال الآغا: لا بأس فلينزلها الحفار.

وصرخ الشيخ سليم: حرام. أجنبي. كيف؟

ونظر الجميع إلى الحجي وإلى الآغا ينتظرون الجواب، ولكن الحجي قال ببساطة: ولكن الآغا أيضاً أجنبي. عقد الزواج بينهما فسخ، وانقطع بالموت!

وبهت الجميع، وقال عنيز: ابناها ماتا، ولا إخوة لها، والقريب المحرم الوحيد ابن أخيها وقد استشهد في الحجاز أيضاً. أخذت الحيرة تطغى على الجميع، وكأن النسيان طغى على الجميع، فنسوا بأنَّ من في الكفن ليس نفيسة خانم، بل قماش في قماش، أو كأنهم الممثل يندمج في دوره فينسى أناه، ولكن خاطرة بعيدة كانت تنغل فيهم، وتقول ما دمنا قد قبلنا بالقماش شهيداً. وبالقماش نقيم له الحضرة، فقد صار القماش نفيسة خانم، فما الفرق بين اللحم الميت الذي كان اسمه نفيسة، وبين القماش الطاهر الذي صار اسمه نفيسة.

وفجأة، وكالمزاح أو كالنكتة السوداء قال الشاويش: نعقد للآغا عقداً جديداً فتحلُّ له، وينزلها إلى القبر. ورغم سخافة الرأي وسخافة العرض وسخف الفكرة، إلا أن الحجي أعجب بها، ولم يعترض الشيخ سليم، وحتى الكبراء وجدوا فيها المخرج، فالكفن يجب أن يدفن، وطاهرة القنوات البيضاء يجب أن تنال حقها من التكريم مثلها مثل كل الطاهرات البيض اللواتي انتشرن في أحياء المدينة.

وبسرعة عقد العقد، وكان الآغا الساخر مما يجري يساق، ولا يدري بما يجري،... دفعوه بلطف فنزل إلى القبر، وحين حملوا إليه الكفن واكتشف خفته الشديدة. تلمّسه في حنان، وكاد يضحك، كان الأمر جلي السخف. يدفنون قماشاً أبيض أسموه نفيسة خانم.

وانطلق المجتمعون البعيدون عن القبر في قراءة المدائح النبوية المنغمة، وكان الملقن يلقن الكفن الأبيض: إذا سألك الملكان مَنْ ربُّك، فقل...

وكان الآغا أبيض اللحية أحمر الشاربين الاستانبوليين ينظر إلى ما يجري في حيرة كاملة.. من أنا. ماذا أفعل.. ما الذي يجري...

وسَّد الكفن الأبيض التراب كما طلبوا إليه، وبينما كان يفعل ذلك حصل ما لم يكن يتصور حصوله قط، إذ أحس بحزن يعتصر قلبه، حزن لم يكن يتصور أن يحزنه، وعلى من؟ على عذابه التي كان اسمها نفيسة خانم.. اعتصر قلبه حزن جعله يجثو أمام الكفن الأبيض الذي وسَّده التراب، وفجأة يندفع ببكاء لم يبكه منذ عشرات السنين. من أين جاء هذا البكاء. أين كان كامناً؟ بل على من اندفقت كل هذه الدموع وهذا البكاء، وهذا الاعتصار...؟

توقفت الأناشيد وسمع دعواتهم له للقيام، ومدَّ الملقن يده لإخراجه من القبر ولكنه كان ينتفض بالبكاء.. هات يدك.. وأحسَّ بأنه لا يرغب في الخروج، فلماذا يخرج؟ ومن سيلقى؟ وماذا بعد؟ وما الذي يشدُّه إلى فوق؟ وقال الحجي: أخرجوه يا شباب،أخرجوه. لا يجوز.

كان قد أحسَّ بالقلق، فلقد مرَّت عليه مثل هذه الحالة من قبل، عن ذلك الذي ينزل للوداع والتوسيد ثم يرفض الخروج.. وقفز الحفار فأقامه على ركبتين لا تريدان الوقوف، ثم صرخ: أيديكم يا شباب أيديكم.

امتدت الأيدي وسحبت الآغا الذي تماسك قليلاً، ثم أخذ يزحف بقدميه واحدة تلو الأخرى إلى آخر المقبرة حيث أشجار السرو فيسند رأسه إلى واحدة منها ويترك لتشنجاته واختناقاته السبيل لتنطلق. أما الشيخ سليم فأشار إلى الحاضرين فمضوا إلى باب المقبرة حيث اصطفوا لتلقي العزاء عن شهيدة القنوات الطاهرة البيضاء.

- 38 -

كانت أياماً غريبة غرقت فيها أروى في حربها مع جزء من نفسها، مع جزء من توقها، جزء من عجبتها؟ هي لا تعرف، ولكنها وقد انغمست في تجربة لا سابقة لها معها، الرسم دون مثال سابق، الرسم ليس لتقليد ما رسم المخشخش من جنان عجيبة فيها نساء شديدات الجمال، ذوات أسافل من جذوع الشجر، ومن رسم لشاب.. شاب؟.. ولكنه، لكنها كان أمسح. إنه. فلنقل: كانت تقول وهي تظن أنها تشطح. إنه فلنقل الإنسان الكامل، إنسان ليس ذكراً، فالذكر في حاجة إلى أنثى لتكمل نقصه، وليس بالأنثى، فالأنثى بحاجة إلى ذكر ليكمل نقصها.

توقفت لهنيهة عن الرسم بينما كانت الأفكار الكبرى تصطدم في رأسها الصغير. وإذن. أهذا هو الإنسان الكامل قبل أن يشقوه إلى اثنين وإذن. فحين تخيله المخشخش وقد جمع الذكر والأنثى في ساقين يلطمهما حين يشاء فيخلق الإنسان الجديد.. الجنين، الوليد، الرضيع.. الـ...إنسان. إذن ربما كان على حق، وماذا عن الشجار الطويل بين أبويها، أكان السبب نقصهما، أم أنّ كل الرجال والنساء في نقصهم سواء..

أطلقت نفثة سخرية، ولكن.. هذا من شطحات المخشخش، ثم تساءلت لمَ لم تظهر لديه هذه الشطحات إلا بعد أن حقنته بمغلي الخشخاش؟ ونبتت على فمها ابتسامة شريرة. أنت من أطلق لديه هذا الجنون و... عاد إليك.. هل كانت

العدوى موجودة لديك، فنقلتها إليه على شكل سخونة خفيفة، فأعادها إليك حمى ها أنت تصارعينها حتى كدت تستهلكين معظم ما سرقت من الحجة من أقمشة بيض. تريدينه على جمال لم تريه، ولم تعرفيه من قبل. أنت رأيته مرة واحدة فقط يحوم فوق البيت، يحوم جمالاً مطلقاً، جمالاً غير مسبوق، جمالاً لم يستطع حتى المخشخش رغم كل ما وضعه فيه من جمال أصابك بالسحر الوصول إليه، وأنت.. أنت التي تخليت عن نماذج نسائه الجميلات متخشبات الأسافل، أنت التي تخليت عن شيطانه كامل الجنس إلى ذلك الحائم فوق البيت يطير ولا يرفرف. يبرق بنور يغطي البرق ولا يرمش.

كانت ترسم غير آبهة بما يجري في العالم خارج غرفتها، فمالها ولهذا العالم. حدثوها عن نفيسة خانم التي استشهدت مع جماعة الحجة رضية على طريق الحج فلم يؤثر فيها الموت عشر تأثير لمسة ريشة صائبة على القماش تقربها من ذلك الذي رأته يحوم فوق البيت في جناحين ساكنين لا يرفرفان.

حدثوها عن استدعاء والي الشام شريف إلى استانبول فلم يحرك فيها الأمر ساكناً. فما لها ولوالي الشام واستدعائه إلى استانبول، بل مالها وللشام كلها. كانت منغمسة في الافتتان بذلك الجمال الحائم فوق البيت ولا يرى.

رسمت على وجوه القماش الأبيض ولم تدرك غايتها، ثم قلبت الرسوم ترسم على قفاها، ولكنَّ ذلك الجمال الحائم لم يحلّ على قماشها الأبيض أبداً.

وحين حدثتها الخادم عن وال جديد قدم إلى الشام فأمر بهدم السوق الطويل حالما وصل، وأمر بنزع المظلات القبيحة من بقايا سجاد وبسط وقماش صلبَّتها الشمس فطقطقت، وبصنع مظلة من معدن تغطي الشارع بكامله فتحمي البائع والشاري، العابر والمتسكع، وأمر بتبليط الأرض بالحجر البازلتي وما

أكثره، ليصبح الشارع نظيفاً لا وحل فيه، ولا برك ماء تنزلق فيها الطنابر والعربات فترشق المارة بالوحل.

كانت الخادم وهي تضع الطعام أمامها متحمسة لهذا الوالي وكانت تعتقد أنها تسرُّ أروى، ولكن أروى كانت منصرفة عنها إلى الأبيض تلطخه بالألوان آملة أن ترى الجبين البارق والعينين المتوهجتين بالبياض الجميل فلم تأبه لثرثرات الخادم، ولم يعنها السوق الطويل، ولا البلاط البازلتي ولا السقف المعدني، فقد كان همَّها هو في هذه القماشة البيضاء طولها ذراع وعرضها أقل من ذراع.

ولما سئمت الخادم من انصراف أروى عنها، تركت الصينية وعليها الطعام ومضت، ولكنها بعد أيام وكانت أروى تجلس ضامَّة ركبتيها إلى صدرها الأمسح محمرَّة العينين ربما لقلة النوم، وربما لصداع شديد، وربما وهو الأكثر لخيبتها في أسر ذلك الجميل الذي حام مع العاصفة فوق البيت دون رفرفة، ففتنها وانصرف، ورغم دعائها الطويل له إلا أنَّه أبداً لم يتجلَّ لها.

فجأة أخرجها حديث الخادمة من توهانها الطويل، ومن حسها بالعجز عن أسر ذلك الجميل في رسمة من صنع يدها الضعيفة إذ حدثتها الخادمة عن الوالي العجيب الذي أعلن أنه يريد أن يصنع كوميضا في المدينة.

ورنَّت كلمة كوميضا مخيفة في أذن أروى، فالتفتت إليها، وفكَّت رباط ذراعيها عن ركبتيها، وأحسَّت الخادم بأن أروى قد خرجت عن صمتها الذي كانت تظن أنه الحزن على ما حدث لنفيسة خانم، فانطلقت تحدثها كيف دعا الوالي الشيخ أحمد إليه.

- الشيخ أحمد؟ وتعرفينه؟

- يعني... سمعته مرة يغني...
- وقاطعتها أروى: وما علاقة الكوميضا بالغناء يا جحشة..

ولكن الخادم لم تحزن لنعتها بالجحشة فأكملت: يبدو أنَّ هناك علاقة كبيرة، فالوالي سأل عنه، وعرف أنه مؤلف موسيقي، وعازف، ومغن، وراقص سماح و.... تصوري يا ستي أنه كتب واحدة من هذه التي كانوا يعرضونها في حارة النصارى. ماذا يسمونها. إه الكوميضا.

خرجت أروى الآن من سجنها السري الخاص، سجن البحث عن جمال لا يدرك فالتفتت إليها بكامل جسدها: وبعد؟

- اتفق الوالي معه على بناء مرسح، وعلى تأليف كوميضات وعلى جمع جوقته التي انحلّت قبل فترة، و... تصوري يا ستي تصوري...
- هه. ماذا أتصور؟
- أعطاه تسع مئة ليرة ذهب وقال له ابن مرسحاً فأنا أريد للشام ألا تكون كمصر فقط، بل أريدها أن تكون مثل مدينة الإفرنج.

صفرت أروى في دهشة في أعماقها، ولم تعلنها..

- كل هذا حدث وأنا لا أعرف به..؟
- تصوري..!
- ومتى تعتقدين أنهم سيعلنون هذه الكوميضات أمام الناس.
- لا أعرف. ولكني سمعت من مرجانة وعزيزة..

وعرفت أروى أنها تعني الجاريتين اللتين باعتهما أمها، فصرخت في قلة اصطبار: ماذا سمعت؟

- سمعت أن الشيخ أحمد مايزال يجمع الرجال الذين سيعملون معه.

انقضّت أروى على الأكل انقضاض من لم يأكل منذ دهور، وكانت لا تأكل منذ تجليه عليها إلا أقل القليل. فقد كانت محاولة أسره التي لمن تنجح شغلها الشاغل. انقضّت تأكل والأفكار تصطرع في داخلها... وأخيراً انفجرت.. ماذا.. ماذا.... لو مضيت فاشتغلت معه.

- 39 -

حين لاحظ الشاويش باب البيت المهجور ينشق ويخرج منه رجل أسمر لم يره من قبل يضع الكوفية ويلبس الشروال والميتان. تساءل: هل أجرّ الآغا بيت أمه؟

لكن شيئاً لا يستطيع تسميته جعله يمشي وراءه. قال: أتسلى. وكان منذ أن تخلى عن حراسة المقبرة، أو منذ تخلت المقبرة عن حراسته، أو منذ لم يبق في المقبرة ما يدل على أنها مقبرة بعد أن محا السيل كل ما فوق الأرض وربما ما تحت الأرض.

كان البيت والعينان المكروبتان اللائمتان سوطاً من الصعب احتماله فهي لا تشاجر، ولا تفتعل الشجار، ولا تحزن ولا تبدي أسفاً، بل كانت تقوم بواجباتها في البيت في آلية المروبص. كانت تطبخ فلا تفسد الطبخ، ولكنه بلا مذاق. وكان يفضل عليه في حالات كثيرة طعام السوق الرديء من كبد مشوية أو لحم رديء مفروم مقلي والمسمى بالقلينا، وأحياناً الفلافل، وكان يمشي ويمشي لا يبحث عن عمل، فهو لا يتقن أيَّ عمل إتقاناً يجعل الناس تقصده، وكان العاطلون قد زادوا بشكل فاحش بعد أن استطاعت الفابريقات الأوروبية الانتصار على الأنوال والنويلاتية، فتحولوا إلى عواطلية لا يعرفون لماذا، وقد صمد بعضهم ممن باعوا زباديَّهم وصحونهم الصينية والتي تربعت على رفوف الكتبيات لعقود، وثرياتهم الفضية الموروثة، وأحياناً الفرشات الصوفية

فاستبدلوها بالقطنية على أمل أن ينجو السوق من كارثته يوماً ويستطيعون بيع الألاجا والحرير والبروكار و الديما الذي تكوَّم لديهم ولا مشترين.

وكان الشاويش كلما مرَّ من باب الجابية ورأى أكوام العاطلين من أبناء المدينة، فقد اختفى الريفيون يستصلحون الأرض ثانية بعد السيل الذي روى الأرض وأجرى الجداول، وأعاد الحياة إلى مالم يمت، لكن أبناء المدينة ازدادوا ببوار مهنهم ازدياداً فاحشاً. كان كلما مرّ ورآهم يحس بأنه محظوظ إذ لا مهنة لديه فقدها بانتصار المهنيين والفابريقات الأجنبية، فمهنته الوحيدة التي يتقنها هي الحرب، ولابدَّ للسلطان من شنِّ حرب ما على الإفرنج يوماً ما، فكل ذكريات عائلته وعوائل الجيران التي لا تعرف خارج الزواج والموت والطلاق وحبس المطر والقحط والجراد إلا الاستدعاء للعسكرية، وعندها يغيب الرجال فيغيب عيبهم معهم إذ ما إن يغيبوا في جيوش السلطان حتى تنسى الزوجة يد الزوج الباطشة، ولؤمه وعودته سكران، فما تعود لتذكر إلا حنانه ولياليه الدافئة، وما إن يغيبوا في جيوش السلطان التي ندر أن يعود منها إلا طويل العمر حتى ينسى الوالدان أنَّ الولد كان مغضوباً وحشاشاً، أو سكيراً ومقامراً، وأحياناً اللص، أو ضارب الأبوين ليتحول إلى الحمل الوديع اللطيف مقبِّل يد الأم وربما لم يفعلها في حياته إلا مرة وفي العيد الكبير. وإذا بهؤلاء الرجال العاديين يتحولون إلى تنهدات وأحزان مغسولة من كل إثم.

كان يفكر في هذا حين عبر باب الجابية، ورأى صفوف العاطلين المستعدين لأي عمل، تعزيل البلاليع، وتفريغ الآبار المالحة، فهناك أطفال جياع في حاجة إلى الخبز، قال: مايزال لديَّ بعض المال ويمكن أن يكفينا لبعض الوقت فمن يدري. ربما شنّ السلطان الحرب، واحتاج إلى العسكر وعندئذ سيتجاهل رجاله أني كنت أحارب مع الباشا المصري فيستدعيني و... الله لا يقطع أحداً.

لاحظ أن المنسلَّ من بيت أم حسن آغا قد دخل في السوق الطويل الذي جدَّدوه وبلّطوه وسقفوه بالمعادن، فتساءل: أتراه يمضي إلى الشيخ رسلان؟ وتنهد. ولم لا.. أستطيع أن أدخن أركيلة أيضاً في الشيخ رسلان، ولكنه حين مال إلى حارة النصارى توتر فجأة. فما الذي يحمله إلى حارة النصارى؟ ما الذي يجري؟ قالها متوتراً. ولكنه وقد لاحقه من القنوات قرَّر أن يلاحقه ليعرف ما الذي يفعله في حارة النصارى.

فجأة انتبه إلى دخوله إلى دكان غير محكم الإغلاق، فاقترب وشمَّ الروائح الحامضة والدخان الكثيف الذي صدر عن الدكان حين فتح الباب، ثم حين انغلق. دفع الباب ونظر، وعرف أن ما كان يخاف منه قد وقع. فالدكان لم يكن إلا خمارة.

- تفضل. هتف صاحب الدكان والجالس وراء طاولة امتلأ جدارها الخلفي بالزجاجات الغريبة التي لم يرها في حياته.

- تفضل يا معلم.

ولكن الشاويش تراجع عن الدكان دون أن يردَّ، وتلفت حوله ليجد مقهى اتجه إليها وطلب أركيلة وفنجان قهوة، وأخذ يراقب باب الدكان متسائلاً: ما الذي جاء بهذا الرجل الساكن في بيت أم حسن آغا إلى خمارة في حارة النصارى. سحب نفساً قوياً من الأركيلة وأخذ يتأمل الناس من حوله.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها إلى حي النصارى. أراد أن يشعر أنه في بيئة أخرى، بين أناس آخرين، ولكنهم كانوا يشبهونه في كل شيء، في الشوارب، في اللباس، بل حتى في مطّة الحنك وهم يتكلمون لكنتهم الشامية. وتذكر، لم يسمع أحداً حتى — الحجي — يمنعهم من دخول هنا الحارة، فلماذا كان متوتراً وهو يدخلها، هل توقع شيئاً غريباً.

انفتح باب الدكان وخرج الرجل الأسمر يمسح فمه لا شك من الشراب، وقبل أن يمضي لحق به رجل أقل منه سمرة ويشبهه في اللباس، فوضع ذراعه في ذراعه ومضيا معاً. دفع الحساب بسرعة، ولحق بهما، وأحس الدماء تغلي فيه: أبو حسان ما الذي يهيجك؟ المغامرة؟ معرفة حقيقة الرجل؟ وما الغريب في رجل يحب الشراب ولم يجده إلا في هذه الحارة.. رجال كثيرون يفعلونها. أنت تعرف ذلك جيداً وإن لم تفعلها.. ولكن.. راجع نفسه. يخرج من بيت مهجور ليأتي إلى هذه الحارة، وهذه الخمارة؟ ثم يلحق به صاحب الخمارة تاركاً خمارته. لماذا؟

دخلا السوق الطويل ثانية وأسرع الشاويش يلحق بهما، كانا يشيران بيديهما في حماس وهما يمشيان بسرعة، وفجأة توقف صاحب الخمارة، وأشار إلى بوابة خان مفتوح، ثم تصافحا مودعين، ومضى صاحب الخمارة.

دخل الرجل معتمر الكوفية المنقطة بالأسود إلى الخان، فسارع الشاويش خطواته حتى وصل إلى باب الخان، ولكن دهليز الباب العريض كان مسدوداً بستارة تحجب الداخل عن الخارج، ولم ير الشاويش معتمر الكوفية، فلحق به، وفتح الستارة قليلاً فرأى شاباً يلبس ثياب المشايخ والعمامة الأغبانية المطرزة وإلى جانبه شيخان أكبر منه سناً، بل ربما كانا أقرب إلى الكهولة منهما إلى الشباب كما كانا يبدوان، ورأى معتمر الكوفية يجلس جانباً يراقب، ورأى شاباً يجيب على أسئلة يوجهها الرجال الثلاثة كل بدوره إلى الشاب. طلب العجوز من الشاب المسؤول الغناء، فغنى. كان الصوت بديعاً، أو هذا ما استطاع الشاويش إدراكه بحسه الضعيف في الموسيقى، ولكنهم أعجبوا به، وأشار الشيخ في العمامة الأغبانية له بالقبول، فجلس جانباً. وتساءل الشاويش: ما الوظيفة أو ما العمل الذي يمتحنون الناس للقيام به؟ ولكن شاباً آخر اقترب ووقف

أمامه، فأعطاه الكهل الثاني وريقات وطلب منه قراءتها.. ما هذا؟ كان الشاويش يتساءل حين أحس بخطوات تنسلُّ من ورائه، فالتفت في توتر. كان الداخل شاباً أمرد أقرب إلى الغلام منه إلى الشاب أو الرجل. كان الداخل مرتبكاً، فانسحب الشاويش جانباً لا يريد حديثاً أو سؤالاً لا يعرف الإجابة عنه، ورأى الشاب يقترب من الستارة ثم يزيحها جانباً ليرى ما يجري في الداخل.

كان الشاويش يراقب الفتى، والفتى يراقب ما يجري في الداخل، كان الغلام وسيماً كما لاحظ الشاويش، وكان أنيق الثياب ومن الواضح أنه من أسرة حسنة الحال. هل يبحث أمثاله عن عمل؟ إنَّ ثمن شاله فقط يكفي لنفقة شهر لعائلة عادية، و... مع هؤلاء الناس الذين لا يعرف الشاويش عملهم أصلاً.

سمع ضجة من وراء الستارة، ففتح جانباً منها ليرى ما يجري. كان الرجال الثلاثة قد وقفوا، وكأنهم يعلنون انتهاء العمل، وفجأة رأى الرجل الأسمر في الكوفية المنقطة بالأسود يقترب ويقول كلاماً لم يسمعه الشاويش، ولكنهم يضحكون ويستديرون لينصرفوا، ولاحظ إصرار رجل الكوفية المنقطة وهو يحلُّ حزاماً، فيندفع منه خرقة مقواة لتبدو كقضيب، وهاجم فيها الشبان والرجال الثلاثة، فانطلقوا في القهقهة وسمع الشاويش الرجل يغني:

عمي يا بياع الخس، فانطلق الشبان الجالسون يقهقهون وهم يغنون:

الله الدايم. وشهق الشاويش. ما الذي يجري. ما الذي ذكَّرهم بهذه الأغنية الماجنة أمام هؤلاء المشايخ الآن.

وتابع الرجل يغني وهو يلوح بقضيب الخرق.

وانطلقوا يقهقهون، ولكن الرجل في العمامة الأغبانية وقف وأشار بيده يمنعه من الإكمال، وحين احتج رجل الكوفية المنقطة بالأسود سمع الشاويش رجل العمامة الأغبانية يقول بصوت سمعه الشاويش: لا يا أخي. لا. أرجوك،

نحن نحاول إنشاء كوميضا راقية. نحن نحاول إيقاظ التاريخ والهمم العلية. أما هذا الإسفاف... واحتج رجل الكوفية المنقطة بالأسود: بس ده بيضحك، ما شفتش بيضحكوا ازاي. أصلاً ما فيش تعارض بين الكوميضا الراقية وبين ده إذا كان بيضحك، ولكن رجل العمامة الأغبانية اعتذر في صرامة، وخجل رجل الكوفية، فلملم نفسه استعداداً للمضي حين دخل الشاب في الثياب الأنيقة..

ونظر إليه رجل العمامة الأغبانية: نعم.

وقال الشاب: أريد أن أشخص.

تبادل رجل العمامة الأغبانية مع الكهلين النظرات، ثم التفت إلى الشاب:

- نحن في حاجة إلى من يمثل أدوار النساء. أتستطيع فعل ذلك؟

وحار الشاب قليلاً، فاتجه رجل العمامة الأغبانية إلى الانصراف، وكأنه كان يعرف جوابه قبل قوله، ولكن الشاب لحق به وقال: نعم. نعم.. سأمثل أدوار النساء.

وتهللت وجوه الرجال الثلاثة، فمن الواضح أنهم كانوا في حاجة إلى شاب يمثل أدوار النساء ويقنع بأنه شبيه بالنساء.

* * *

لم تلمس الفرشاة في تلك الليلة. ولم تقف أمام القماشة البيضاء، ولم تحلم بذلك الفتى الجميل الواقف في الفضاء لا يرفرف كالطير ولا يسقط كالإنسان، بل يقف يتفرج ويسخر ويثير الشهوة في التقليد.

كان الشكل الجديد من المغامرة يغريها، وكان طلب القائمين على الفرقة أن تقوم بتشخيص دور المرأة أشبه بالنكتة، فهي أصلاً لم تكن تعرف كيف تشخص كالرجل، وكان عليهم أن يتعبوا عليها كثيراً لتتشخص كالرجل، ولكن

كالمرأة؟ وشهقت: هل عاشت أو شخصت يوماً كالمرأة، وكيف تعيش المـرأة. مثـل نفيسة خانم مثلاً؟

نظرت إلى محاولاتها المخفقة الكـثيرة والـتي تحـيط بجـدران الغرفـة مـن الداخل، وكانت كلها تنقص شيئاً ما، وربما لو رآها غريب لرآها كاملة. أما هي فقد كانت تعرف أنَّ محاولاتها كلها كانت ناقصة، فهي تنقص شيئاً ما عن ذلـك الجميل الحائم بلا رفرفة يحدق فيها وتحدق فيه وتعرف أنه الكامل، ولكن...

كان طلب الشيخ أحمد لها لتمثيل دور المرأة وهو يعتقد أنهـا الرجـل فيـه إغراء لتحقيق الكمال الذي أخفقت فيه مع الحائم دون رفرفة.

- 40 -

مولاي خليفة الزمان، وخاقان البرين، وسيد البحرين، وخادم الحرمين الشريفين.

توقف قليلاً يفكر: هل يجب إضافة ألقاب أخرى، فهو يخاطب إنساناً ليس عادياً يمكن لك أن تصفه بصفتين طيبتين وانتهينا. إنه سلطان الزمان، وخليفة الله على أرضه. فكر طويلاً، ولم يكن قادراً على التوجه إلى قصر الوالي يسأله عن الديباجة السلطانية التي اعتادوا وضعها في مقدمة الرسالة الموجهة إلى السلطان، ولكنه كان يعرف في الآن نفسه أنَّ سؤاله سيثير الريب، وسيصبح مشبوهاً لدى الوالي ورجاله في أنه يخاطب الحضرة السلطانية دون أن تمرَّ رسالته عن طريق ولي النعم باشا الشام وواليها...

وأخيراً فكر. أنا الحاج سعيد حامل شهادة العالمية من الأزهر الشريف وليس من الضروري أن أكون مماثلاً لهؤلاء العوام الذين يخاطبون سلطاننا بهذه الاحترامات العامية.. وأشرق ذهنه.. أستطيع العودة إلى القلقشندي فهو المرجع الأكبر في مخاطبات الرؤساء والملوك والسلاطين.. وسلطان زماننا سيدهم جميعاً. نعم.. سأرجع إلى القلقشندي، فيعرف سلطاننا أنَّ من يتشرف بالكتابة إليه عالم من علماء الزمان.

فكر... سأؤجل الديباجة الآن.

مولاي.. إنّ الشام شريف التي ظلّت قلب الإسلام وجوهر عينه منذ أن منّ الله على هذه البلاد بالإسلام. وقد زاد شرفها وتشريفها منذ أن صارت أول المدن التي يمرُّ بها الحاج في طريقه إلى أداء الفرض العظيم، وأول المدن المقدسة التي ينطلق منها الحجيج.

مولانا وسيدنا وقطب أقطابنا. هذه المدينة تعرضت للخراب منذ أن غزاها الأرناؤوطي الفاسق السكير إبراهيم باشا، فأسقط عنها شرفها، وجعل الإفرنج يدخلون إليها، والقناصل الإفرنج يتحكمون في مصائرها.

مولاي. الشام شريف مدينة عاشت القرون وهي مدينة البروكار والموسلين والألاجا والديما ينسجها نساجون مخلصون لنولهم، ولطائفتهم لا يدخل بينهم غريب ولا ينسلُّ إليهم منسلٌّ لم يشدَّه شيخ الطائفة ويضمنه..

مولاي. مولاي. إني أختنق، فهؤلاء العاملون الشرفاء تحولوا إلى عاطلين عن العمل منذ غزوة الأرناؤوطي المجرمة إلى المدينة... مولاي.. الأرناؤوطي جاء وجاءت معه أقمشة الفابريقات الإفرنجية الرخيصة، فأفقدت النويلاتية عملهم.. مولاي. الشام شريف تستصرخك لإنقاذها وإعادتها إلى السلام الذي عاشته منذ أن وعت ذاكرة الناس كيف عاشت هذه المدينة.

أعاد قراءة الرسالة... ثم وضعها جانباً. قال: لا.. إنها لا تفي بالغرض، ولكنه في اليوم التالي كتب:

مولاي، خليفةَ الله على أرضه، مولاي، مولانا، مولى الزمان وقطب الأرض. إليك فقط أبثُّ شكواي والتي لا يستطيع فانٍ أن يجد لها شفاء سواكم يا مولاي. فهاهو ابن الأصفر يقلد الإفرنج عليهم لعنة الله فيستقدم كرخانات تصنع الألاجه، ولكن على الأنوال تديرها المياه، مولاي. إن هذا المرتدّ بفعلته هذه قد قتل مئات الأنوال وعطّل مئات النويلاتية، فقد أسرع الناس إلى شراء منتجاته

الأرخص من الألاجه اليدوية والتي تشبهها بالمظهر والملمس، ولكن أين لمسة يد النويلاتي وصبره على المكوك والسداة وتحسسه للقماش يبثُّ فيه روحه... مولاي. الشام شريف تفقد شرفها مع فقدها لسمعتها وصناعاتها وصانعيها.... وطائفة النويلاتية ستموت بموت مهنتهم.. مولاي أنجدنا.

وضع الرسالة جانباً، ولكنه حين سيراجع ما كتب فيما بعد سيكتشف أنه لم يشف غليله، ولم يقل ما لديه، فأمسك ورقة جديدة وبرى الريشة القصبية جيداً وبدأ بالكتابة.

مولانا ونور عيوننا، ووليّ نعمتنا صاحب..... وصاحب....

الشام شريف تضيع فلقد أدخلوا إليها شيئاً لم تعرفه المدينة، والله وحده يعلم أية مصائب ستحمله هذه الجرانيل التي أدخلوها من بلاد الإفرنج، وهاهم ينسجون على منوالها في الشام شريف جرائد مثل (*سورية، ودمشق، والشام*) ولست أدري أية أسماء أخرى سيخترعون، جرائد لا تتقي الله، ولاتحسب للسلطان حساباً، بل الأنكى من ذلك أنها تطلب أن يكون للناس رأي في الحكم، وكأنّ ما أنزله الله على نبيه في قوله: (وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم) لا يكفي إلى أبد الآبدين.

مولاي... مولاي.. أنجدنا.

وفي اليوم التالي حين أخبره عنيز الجحش كيف غمزه الشيطان اكتملت الرؤية لديه، فالشيطان قد عرف طريقه أخيراً إلى الناس، وهاهو ينزل إلى الأرض غير خائف من العلماء والأقطاب والمشايخ.. لقد وثّق لنفسه. فهاهي الفابريقات الإفرنجية والكرخانات الوطنية تساهم في قتل الحرفيين، وهاهي الصناعات تموت والعواطلية يتزايدون، والعواطلية هم جند الشيطان، فالمثل

يقول: اليد العاطلة نجسة، وهاهي النجاسة تزداد، والشيطان يلعب بهم كيف يشاء.

لكنَّ الطامة الكبرى حين عرف أنّ الوالي، والي السلطان، ورجل استانبول في المدينة يعطي واحداً من العواطلية ألف ليرة ذهبية ويطلب إليه أن ينشئ كوميضا وتياترو.

وكتب:

تصور يا مولاي. تصور. هارون الرشيد، عظيم التاريخ والأمة، هارون الرشيد الذي كان يغزو الروم سنة، ويحج سنة، هارون الرشيد ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي رقيع من هؤلاء العواطلية الذين حوّلهم الشيطان الأرناؤوطي بإدخاله الفابريقات والكرخانات إلى الشام شريف إلى مشخصاتية. مولاي. مولاي. أنا أختنق. أقسم بالله العظيم إني أختنق حين أتخيل كيف يقوم واحد من هؤلاء العواطلية الفاسدين بلبس ثياب. ثياب من؟ سيد بني العباس وخليفة الله على أرضه. ويقف أمام الناس يغني ويرقص، بل يتفوق أبله يسمونه أبو الحسن المغفل على مولانا هارون الرشيد نفسه في حكمه وحكمته. مولاي...مولاي.. إن كنتم تريدون حماية الشام شريف أول مدن الحج الشريف، فأنقذونا من هذا الوالي ومن كوميضاه ومدارسه التي صارت تعلم العلوم الوضعية من كيمياء وفيزياء ولغات الأفرنج بديلاً عن العلم الشريف.. ولم يكتف بهذا، بل يريد معارضة إرادة الله الذي قال: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات)، فأنشأ الخستاخانة يقصدها المرضى، فيقاومون ويقاوم أطباؤه إرادة الله فيعالجونهم، ويحرمونهم من فرح الشهادة والأجر مكافأة لهم على رضاهم بما اختاره الله لهم بإمراضهم ابتلاء واختبارا لحسن عبوديتهم وتقاهم.

مولاي. مولانـا. مـولى الأرض.. الكوميـضا.. اللعنـة.. الـصبيان يشخـصون النساء ويلبـسون ثيـاب النـساء ويتغنجـون ويتعطفـون. مـولاي. هـذه الكوميـضا تحض على الفاحشة التي نهى الله عنها، والتي أهلكت قوم لوط الذين أفـسدوا في الأرض.

مولاي أنا خائف على هذه المدينة من أن يصيبها ما أصاب سودوم وعمـورة بعد هذه اللعنة المسماة بالكوميضا.

مولاي. أنجدنا.

كانت رسائل ليست بالرسائل، فحين قرأها مجموعة للمرة العاشرة أحـس أنَّها ليست بالرسائل، فالرسائل الموجهة للسلطان لا تكون بهذه الطريقـة، كـان ذكياً بما فيه الكفاية ليعرف أنَّ هذه الرسائل لن تجلب له رضا السلطان، وحتى لو لم يغضب عليه السلطان لجرأته على الوالي الـذي اختـاره، فقد كـان يعـرف وإن حاول التجاهل أنَّ السلطان نفـسه مغلـوب علـى أمـره، فـالإفرنج لعـنهم الله فرضـوا عليـه المشروطية، وفرضـوا عليـه مجلـس المبعوثـان، وفرضـوا الـسماح للقناصل بدخول الـشام شريف، وكـان يعـرف أنَّ رسـائله إلى الـسلطان ستكون التدخل فيما لا يعنيه، وربما جلبت عليه نقمة هو في غنى عنها، ولكنَّ الرسائل الكثيرة التي كتبها والتي تحدث فيها عن ما يؤرقه ويريـه أنّ مملكـة الـشيطان صارت أقرب حتى مما يمكن للسلطان معرفته.

في هذه الرسائل تحدث عن الفيضان الذي كـشف شـعور النـساء، فلـم تـعـد هناك حرمة للانكـشاف والـسفور. صـحيح أنّ حملتـه وحملـة أصدقائه أعـادت النساء إلى حضن الفضيلة، ولكن.... ثـم تحـدث عـن القحـط الـذي جعـل النـساء الفقيرات والجواري يخرجن لتسول اللقمة في الشوارع. وما جلـب هـذا الخـروج من اعتداء على شرفهن وفضيلتهن. تحدث عن الهيـضة الـتي اخترمـت الرجـال

أكثر مما اخترمت النساء، فكثر الأرامل.. والثكالى، وندر الرجال، ثم تحدث إلى السلطان عن الخبازين وتجار الطحين عليهم لعنة الله وكيف استغلوا حاجة الأمهات والأرامل، فاعتدوا عليهن بأرخص الأثمان، بالرغيف والرغيفين.

تحدث عن القناصل وتكرمهم بمنح الحماية والجنسية لمن أراد الالتحاق بهم، فصار في الشام شامين، شاميون محميون بالقناصل ولا قضاء ولا شرع شريف يطالهم، وشاميون مباحو الدم والمال والعرض، وكان يختم كل رسالة بصرخة لو قرئت لسمع صوته المتكسر يصرخ: أنجدنا يا مولاي.

أعاد قراءة الرسائل وقراءتها وتنقيحها حتى لم يعد يخاف مافيها من تهجم على تقصير الوالي، وإهمال من السلطان. ولكن الرسائل غير المرسلة إلى المعنيين تصبح كالسر الذي لا تستطيع كتمانه. إنه حجر على القلب، عليك التشارك فيه مع آخرين وإلا قتلك.

تفحص من حوله. الشيخ سليم؟ لا...فهذا رجل ضعيف، صحيح أنه تقي وورع، ولكنه لا يقبل انتقاد ولاة الأمر مهما أخطأوا، بل كانت كلمته الدائمة — سلطان جائر خير من فتنة تحرق الأخضرين — استدعى في ذهنه الشيخ مصباح، ولكنه تراجع بسرعة، فهذا رجل يقال الكثير عن تعشيه على مائدة الوالي، والعشاء على مائدة الوالي يعني الثرثرة، والثرثرة تعني فضح الأسرار، عنيز الجحش؟ وانتفض. هذا الحلاق المسكين والذي غمزه الشيطان، فلم يستطع الأخذ على يده، الشاويش..؟ لا فهذا رجل رغم قبوله المنح واستماتته للعودة إلى العمل مع عسكر مولانا لإعادة الحق إلى نصابه. إلا أنه كان أصلاً من رجال الفاسق الأرناؤوطي.. وبعد... وبعد.

فجأة تذكر الآغا. حسن آغا وتوقف يفكر... ولم لا..

- 41 -

حسن آغا رجل العقد الاجتماعي، وتلميذ الثورة الفرنسية ولو من بعيد والذي أحبها لا لشيء إلا لكثرة ما لعنها خطباء الجوامع، ومشايخ الدروس الدينية، والحجة رضية حسب ما وصله من المرحومة نفيسة خانم، الذي صحب معه من مصر عدداً من الكتب الفرنسية كان يخلو إليها قبل أن تولد أروى وتتعلم الدخول إلى المكتبة، كتب كان يقرأ فيها لفولتير وديدرو ومونتسكيو. صحيح أنَّه لم يكن يفهم الكثير مما يقال، ولكنَّ الحماسة التي كانت تثيرها فيه في هجومها على الملك الطاغية، والكنيسة الطاغية ومن إلحاد مضمر كان يشعره بأنه أكبر من كل هؤلاء الذين حطَّ عليهم الزمان، فحوَّلهم إلى ما يرى... حسن آغا الذي استضاف طريد القارتين، ففعل مالم يجرؤ رجل حسب علمه من الشام شريف على فعلها. فبرناردو الذي هاجم ملكاً وأحرق كنيسة، وبنى قرية من تشاركية وعدالة حتى اكتشف الخديوي ما فعل، فصار طريد الخديوي، ورجال الخديوي، ومشايخ الخديوي، ففر يحفظ دمه من مطارديه، ولم يجد إلا حسن آغا يلجئه، فاختفى.

حسن آغا الذي كان ينظر إلى الجموع تحمل سجاجيد صلاة، ثم تنشرها في الشوارع قريباً من الجامع، فالجامع امتلأ، وعليك أن تجد مكاناً تصلي فيه صلاة الجمعة، صحيح أنك لن ترى الخطيب، ولن تسمع الموعظة، ولكنك تؤدي الفرض، وهاهو المبلِّغ ينقل إلى المصلين في الخارج نداءات الركوع والسجود في

الصلاة، حسن آغا الذي كان ينظر إليهم مزدرياً في أعماقه، ولكنه أبداً لـن يقبـل أن يمدَّ سجادة في الشارع مثلهم، وهو يعرف أن هناك من حفظ له مكانـاً للـصلاة في الصفوف الأولى، فهو حسن آغا! !

حسن آغا هذا انقلب شيء فيه، بل يمكن القول إن شيئاً فيه قد انكسر منذ أن نزل إلى القبر ليوسِّد نفيسة خـانم، يوسِّـدها؟ لقـد كـان مـا وسَّـده قماشـاً في قماش، في قماش. ولكنه كان قـد حـلّ هـذه المسألة أثنـاء نقاشـاته الطويلـة مـع نفسه، ولنفرض أني وسَّدت لحمها الميـت الـذي كـان اسمـه نفيـسة خـانم، فمـا الفارق؟ المهم أنك وسدت ما سميته نفيسة خانم في مثواهـا الأخـير.. حـسن آغـا الذي اندفقت منه دموع لم يكن يؤمن أو يعتقد أنه يملكهـا. أو بإمكانـه ذرفهـا. حسن آغا هذا أصبح مرة ثانية في مواجهة مع نفسه. حسن آغا. أأنـت واثـق ممـا تفعل وفعلـت؟ أأنـت واثـق كيـف تمـوت. وأيـن. ومـن ستلقى بعـد أن يفارقـك المودعون لحماً ميتاً في القبر.

كان هذا هو السؤال الذي ما انفك يلحُّ عليه، ويلحُّ حتى صار أرقه، وجعله يدير ظهره لماضيه كلـه، فـأدار ظهـره لمكتبـة الفسق كمـا كانـت نفيـسة خـانم تسميها، وأدار ظهره لبرنـاردو وأحلامـه، وكوميـضاه، ومجتمعـه العـادل ممـا اضطر برناردو بعد هجره الطويل للبيت إلى الخروج إلى الأسـواق وشـراء طعامـه وشرابه ينتظر تفسيراً من حسن آغا لم يصله.

حسن آغـا محـبُّ الفوضـوية، ومتـبني الإلحـاد الـسري أخـذ يـتردد علـى الجامع في الحارة المجاورة على استحياء. كان لا يريد للحجي والشيخ سليم أن يكتشفوا انقلابه المفاجئ، فصار يتردد على جامع الـسباهية البعيـد عـن بيتـه، ويختار ركناً ظليلاً أو معتماً، فيصلي ويستمع لحديث الشيخ بعد الصلاة، حديثاً لم يعـد يـسمح للعقـل بمناقـشته ومقارعتـه بالتـاريخ بـل صـار إنـاء يـستقبل في

استسلام، وكان الحجي الذي يعرف بأن الآغا لا يصلي في الجامع إلا صلاة الجمعة والعيدين فيتسامح معه، فمثل هذا المتعلم لو شاء لغطى عليه وعلى الشيخ سليم معاً، ولكنه.. الآن وقد عرف بأنه يصلي سراً في جامع السباهية، الآن فقط فهم تواضعه، فهو لا يريد رضا من الناس، بل يريده من الله، وكان قد شاهد الجاريتين المبيعتين، وهما تنسلّان من بيته محملتين بالطعام والثياب. فصار شكه يقيناً.

ولذا فحين استعرض من يمكن له قراءة رسائله غير المرسلة إلى السلطان عرف أنه سيجد فيه المتفهم، وربما المساعد، وربما من يرسل الرسائل بنفسه إلى السلطان، فهمُّ المدينة همٌّ للجميع، وتهديد الشيطان بالاستيلاء على المدينة، وإطلاق مملكته منها صار واضحاً للجميع.

تسلل وراءه إلى جامع السباهية ورأى انعزاله، ورأى تهجدَّه وبكاءه أثناء صلاته، فتساءل: ولكن لم يبكي؟ أهو الندم على ما فات.

أهو الاعتذار عن سوء التفاهم الطويل مع نفيسة خانم والذي يعرف عنه الكثير، فطالما شكت إليه نفيسة خانم عذابها معه...

في تلك الليلة زاره في البيت، ولما لاحظ عدم تفاجئه بزيارته اطمأن، وما إن شرب فنجان قهوته الأول حتى صارحه بحزنه، وخوفه من اقتراب مملكة الشيطان، وأخذ يعدِّد له مظاهر قرب استيلاء الشيطان على الشام شريف.

كان الآغا يصغي ولاحظ الكيس القطني الأبيض الذي وضعه الحجي على منضدة صغيرة قريبة، وكان يعرف أنّ هذا الكيس يحتوي عادة على الكتب التي يحتاج إليها الحجي في دروسه الدينية، وكان يصغي ويتساءل: ما الذي جاء بالحجي الآن؟ أليقول له ما يعرف أنَّ الحجي يقوله في كل مناسبة، بل يقوله في خطبه في الجامع، وفي دروسه الدينية، والغريب أنّ كثرة إلحاح الحجي على

قرب نزول الشيطان للاستيلاء على مملكته لم يجعله قريباً من الآغا الذي ظلَّ رجل الثورة الفرنسية حياً في أعماقه لم يمت رغم إدمانه زيارة الجوامع والصلوات والتبرعات إلا أنه ظل يحمل الشكاك والريبي التاريخي في قلبه.

وقال الحجي: هل أقرأ واحدة منها عليك. وكان الآغا قد عرف محتوياتها جميعاً، وقبل قراءة الحجي لها، فقال في لطف: لم لا تتركها لديَّ أقرأها بهدوء.

- ولديك الوقت؟
- سنجد لها الوقت الكافي.
- وستخبرني بما يجب أن نفعل لإيقاف هجمة الملعون على بلدنا.

وقال الآغا وقد استيقظ الشيطان الشكاك الأبدي فيه: أرجو أن أستطيع ذلك.

اصطحب الحجي إلى الباب ولما عاد إلى غرفة استقبال الضيوف حدّق طويلاً في الكيس القطني الأبيض وتساءل: ما الذي سيصنعه هذا الحجي لو عرف أني أؤوي رسول الشيطان في البيت المجاور على مبعدة أذرع قليلة فقط.

- 42 -

كان حلماً، لا. ربما لم يكن حلماً، بل كان الكابوس، فقد تقلب وتقلّب، وكان في جزء منه يعرف أنَّه ليس وحيداً في البيت، ولكنه كان عاري الأسفل والبول يندفع منه ويندفع حتى يغرق الباحة، وكان يشعر أنّ العيون تحاصره في سخرية وهزء. أهو أنت إذن يا عنيز الجحش؟ أنت من كان يقتلع جذر الكرنب بربطه بقضيبه، هه ها أنت لا تستطيع منعه من البول، كان الحس بالخزي هذه المرة أكبر من الحس بالراحة الذي أحسه يوم طارده الشيطان مشرعاً قضيباً من خرق، أو هذا ما تبدّى له، فهرب وهو يعرف أنه إن لم يهرب، فسوف يلحق به العتال العتلّ، والله وحده يعلم ما سيفعل به. أعوذ بالله كم تسبب له هذا الشيء الذي سموه بالجحش من غيرة وحسد، وعداوات، وتحرشات من نساء عقيمات كن يظننَّ أنه الأكثر فحولة، ولكنه كان يخشى الله ويهرب منهن.

لم يعد يشعر بالبول المحيط به في باحة كانت غارقة بالبول، بل كان في دكانه ورآها تدخل إلى الدكان، وارتبك، فلم يكن معتاداً على دخول النساء وحيدات إلى دكانه. رفعت حجابها عن وجهها، فرأى وصدم. كان قد رآها منذ أيام تطل من باب البيت وهي ترمي بالزبالة، فشهق وتجمد في الأرض. كان وجهاً نادر الجمال. لم يكن وجهاً محتاجاً إلى تذويق وألوان وزينة، بل كان جمالاً صرفاً، ورآها تبتسم في غموض وتنسحب.

وها هي تقول دون تمهيد:

- أريد ولداً. زوجي يريد أن يطلقني.

وتأوه وإن لم يعلنها. أمثل هذا الحسن يطلّق؟ وتابعت:

- أهلي فقراء، ولو أعادني إليهم، فسيزوجونني إلى ابن خالي وهو عتال، بغل، يده لا تتوقف عن ضرب نسائه، وهو ما ينفك يطلب إلى أمي أن تطلقني ليتزوجني.

ورنّت كلمة عتال. أتراها كانت تعني ذلك العتال الذي أمسك بقضيب الشيطان وجرَّه حتى اضطره إلى الولولة وطلب النجدة، تابعت وهي تقترب منه متوسلة وهي تنشر منديلاً كان فيه صيغتها:

- خذ ما تشاء منها. بل خذها كلها. ولكني أريد طفلاً يعيد إلي كرامتي.

وتقلَّب في نومته في عنف، ورآها تبصق في أرض الدكان وتمضي وهي تصرخ: الله يفضحك كما فضحتني. ويذلك كما أذللتني.

فتح عينيه مذعوراً. وكانت العتمة ما تزال تملأ الغرفة وصوتها يصدي في أذنيه: يفضحك كما فضحتني. ظل يحملق في ما حوله لا يفهم ما يجري، ولا أين هو حتى انتبه إلى أنَّه في فراشه الوحيد، في الغرفة المستأجرة فوق الدكان، والتي اضطر إلى استئجارها حين ذاب البيت فوق أهله، فكأنه ما يزال الشاب الوحيد، وعليه أن يبدأ حياته، ولكن كهلاً من جديد، فهاهو ولا بيت ولا زوجة، ولا أولاد!

جلس من رقدته، وتساءل: أترى دعاؤها يطاردني فيعثرني. وتذكر، فمدَّ يده يتحسس نفسه: لا. ما يزال جافاً لم تغرق الباحة ببولي كما رأيت.. ولكن لماذا؟.. لماذا؟

سمع أذان الفجر، فانسلَّ من الفراش. قال: لا مزيد من النوم.. هه. وربما كان هذا أفضل، فسأصلي الفجر جماعة.. خرج من الغرفة وتوضأ.. وعلى الطريق

انتبه إلى أنه لم يمض إلى جامع كفر سوسة، بل هاهو ينزل إلى الشام ولكن. لماذا.. لم يعرف لماذا. ولكنه كان مسوقاً، كان يمشي والعتمة محيطة به وفي الجو بعض دفء ينعش الجسد والروح.

فجأة سمع خطوات تسرع من ورائه، فارتعد. من يلاحقه في هذه العتمة. كانت هناك شجرة توت متروكة لطارقي السبيل، فاتجه إليها يلتجئ ويختبئ من ذلك المطارد، ولكنه ما كاد يتلطى وراء الشجرة حتى رآه، وكان الشاويش الذي صرخ ومايزال يسرع: هل خفت حتى اختبأت؟ هيا. يجب أن تلحق صلاة الصبح، وبخجل خرج من مخبئه، وانضم إليه يسرعان ليلحقا بصلاة الصبح.

كان قد صلّى فروضاً كثيرة وراء الحجي، ولكنها المرة الأولى يصلي وراءه الصبح. وضحك في سره، فما الذي يلجئ الإنسان إلى مشي كل هذه المسافة ليصلي وراء الحجي. يكفي أن يصليها جماعة في أي جامع حتى يحصل الأجر.

ولكن الأجر كان في أنّ الحجي لم يكتف بصلاة الفرض والسنة، بل انثنى ليقدم درساً دينياً للمصلين الذين اكتشف عنيز أنهم لم يكونوا قليلين. تعوّذ الحجي وبسمل، وحدّث ولكن ذهن عنيز كان منصرفاً إلى تذكر ذلك الوجه الجميل الذي طلب منه منذ سنين غلاماً وفكّر: ترى هل طلقها زوجها، وهل تزوجت من العتال. وتنهد: هل أنجبت منه؟ ورنَّ صوتها فجأة: الله يفضحك كما فضحتني. وتساءل: وهناك فضيحة أكبر من احتباس البول هذا الذي لا تعرف متى يندفق فينجس كل ما عليك.

فجأة سمع الحجي وكان يقول ويقول وعنيز لا يسمع، سمعه يقول: لن تنجو الشام شريف إلا إن تاب كل منا، وأكرر كل منا عن ذنب فظيع ارتكبه. فليذكر كل منا ما مضى من عمره، وليعرف ذنبه، وليكفِّر عنه، فيغفر الله لنا ذنوبنا ويعيد إلينا شامنا.

وصدم عنيز: ما معنى هذا. ما معنى هذا. أهي رسالة له: هل جيء به من كفرسوسة إلى باب سريجة مشياً ليسمع هذه الجملة. أهو التحذير والنذير بما يجب عليه أن يسمعه.

انصرف المصلون، وانصرف الحجي، ووجد الصديقان نفسيهما يخرجان من الجامع. مشيا صامتين وكان عنيز يفكر في إفطار من فتة حمص، وأخذ يصوِّر لنفسه تفاصيل الفطور، ولكن صورتها عادت إلى الإلحاح: الله يفضحك كما فضحتني، ووضع كفه على سرواله متفحصاً خائفاً من الفضيحة، وعندئذ التفت الشاويش إليه في عطف: ألم تتحسن حالتك؟

وارتبك عنيز لهذا السؤال، وحار في الجواب حين رأيا شاباً يعبر من أمامهما مسرعاً، ثم ينسلُّ إلى بيت حسن آغا فيفتحه بمفتاحه الخاص وينزلق إلى البيت، وقال عنيز للشاويش: وهل للآغا أبناء؟ ولكنَّ الشاويش الذي حيَّره المشهد، فهو يعرف أن ليس للآغا من صبيان بعد مقتل ولديه، لم يعرف كيف يجيب، واكتفى بالقول: تعال نفطر، فأنا أشمُّ رائحة الحمص المسلوق.

بعد أن أنهيا إفطارهما وقد اختارا فتة الحمص بالسمنة واللحمة المفرومة المقلية فوقها وحب الرمان الحامض المنثور فوق اللحم المقلي. كانا يأكلان متلذذين صامتين، وكأن كل همِّهما في هذه الحياة كان الأكل،.. ابتلع عنيز لقمته الأخيرة ونظَّف فمه بلسانه، وقال: ما الذي عناه الحجي حين قال فليعرف كل واحد ذنبه، وليكفر عنه ليعيد الله إلينا شامنا شريفة كما كانت.

رشف الشاويش رشفة كبيرة من كأس شايه وهو يرمق صحن التسقية نصف المليء في أسف وإن عرف أنه لن يتخلى عنه، وألحَّ عنيز: هه. لابد أنك تعرف ما يعني.

شرد الشاويش قليلاً وقال: منذ زمان وأنا أسمعه يتحدث عن الشيطان الذي يريد أن يؤسس لملكته في شامنا بعد أن تتدمر مدينة الله فيها.

وهزَّ عنيز رأسه موافقاً: القحط، الهيضة، الجوع، الفيضان، الجراد. كلها... وقاطعه الشاويش: نسيت الأطفال العجبة.

ازرقَّ وجه عنيز فجأة، ونظر إلى صحنه الخالي في صمت، وأراد أن يقوم حين أحس بدفق البول يسبقه فلم يستطع القيام للمغادرة كما انتوى منذ أن سمع كلمة الأطفال العجبة.

نظر إلى الشاويش في ألم وقال: وهل تؤمن بوجود الأطفال العجبة؟ كان يعرف أنه بسؤاله هذا إنما كان يهرب من مواجهة ذنبه الذي تحدث عنه الحجي.

قال الشاويش: بالطبع.

وقال عنيز: هل رأيت أياً منهم؟

وأحنى الشاويش رأسه في ألم: أكثر من مرة.

وقال عنيز في لهفة: أين؟ كيف؟

وفحّ الشاويش في انكسار: في المقبرة.

قال عنيز مكرراً: في المقبرة؟

وفحّ الشاويش ثانية: نعم. كانوا بأذرع ثلاثة، أو بعيون ثلاثة أو بأصابع زائدة.

وصرخ عنيز: أحياء؟

وقال الشاويش: بل مشذبين مبتوري الزوائد، ومسمولي العيون.

ثم انتتر واقفاً وقد غصّ: ما الذي ذكرك بهذا الآن؟

مضى إلى الحمصاني، فرمى إليه بقطعة فضة ثمناً للصحنين وابتعد، ولكن عنيز لم يصبر، بل سارع إلى اللحاق به يخبُّ في شرواله المبتل ونقاط البول تصنع درباً من خلفه.

كانت مطاردة غير عادلة، فعنيز كان مثقلاً ومخزياً بسرواله المبتل والذي حرص منذ فضيحة الشيطان ذي القضيب من خرق على أن يكون أسود اللون. صحيح أنه لا يحب هذا اللون لضعفه أمام الغبار والوحل وأوساخ الطريق إلا أنَّ له مزية أن لا يبدي البلل، ولكنه مع ذلك لم يكن قادراً على اللحاق بالشاويش الغاضب. لماذا؟ وما الذي أغضبه، وقد صرت مثله مقطوعاً من شجرة، بل ربما كان وضعه خيراً من وضعي، فبيته لم تذبه السيول، ولم تقتل زوجته... وتوقف... ولكن ما الذي أغضبه.. ما الذي أغضبه.

وتوقف الشاويش يستدير مع الحارة التالية، فربَّما تاه منه رغم الصبح المبكر، وصرخ عنيز: أبو حسان، أبو حسان. إكراماً لله توقف.

وتوقف الشاويش. والتفت إليه متفضلاً، ثم انتظر.. وصل عنيز إليه... ربما غلطت معك.. ولكن.. أنت تعرف. نحن الحلاقين فمنا لا يعرف الإغلاق.. سامحني..

ومدّ الشاويش يده فشدَّ على عضد عنيز، وقال: لا.. ليس في الأمر شيء. تعال نجد مقهى نشرب الشاي ونثرثر.

مضيا، وكان الشاويش قد اعتدل مزاجه قليلاً، فأضاف: يحتاج المرء إلى الثرثرة. أليس كذلك. ثم لم ينتظر جوابه: في القلب أشياء كثيرة أتمنى لو أقولها، ولكن. لست أدري ما الذي يمسك بلساني فيمنعني.. ثم.. هذا البلد العجيب ما أقل ما يتيح للمرء من زمن للثرثرة. وصلا إلى المقهى، فاختارا ركناً قصياً، وتابع الشاويش وكأنه لم ينقطع عن الحديث أثناء الجلوس في المقهى..:

الحجي والموت، وجهنم والعذاب، وما بعد الموت.. وتنهد: هل الحياة إعداد للموت فقط، أليس فيها فسحة صغيرة للعيش الصغير.

وقال عنيز وكأنه يردِّد محفوظات: الشام شريف واحدة في العالم. ليس كمثلها مدينة. إنها أول الطريق إلى الفرض العظيم. الحج. أنسيت؟ ونحن المحظوظين في سكناها، علينا واجب الحفاظ عليها.

وصرخ الشاويش هامساً: لماذا.. لماذا.. وما المتميز فيها عن حلب وقونية وكوتاهيه وأنقرة.. لقد رأيت مدناً أجمل، وأنهاراً أكبر، وخضرة أشد، وسكاناً أكثر، ولكنهم لم يكن لديهم هذا الجنون وتوقف محرجاً خيفة أن يغضب عنيز.. اعذرني. لم أعن الجنون، ولكن – وانزلق ثانية إلى توتره – هذا التشدد. شام شريف، شام شريف. لا يجب للفرنج أن يدخلوا إليها.. وهاهم دخلوا.. ما الذي حصل.

كان عنيز يحدِّق فيه وقد اتسعت عيناه دهشة. أهذا هو الشاويش زيدان؟..صديق الصبا.. الصامت..أكان يخفي كل هذا في قلبه، وبهدوء أخذ يفكر.. لقد حارب مع الأرناؤوطي الفاسق و... لعله من رجاله، لعله من رجال الشيطان الذين يهيئون لإعلان مملكته على الأرض بدءاً من شام شريف.

لاحظ الشاويش الصمت الثقيل الذي حطَّ على عنيز، فرأى التراجع، وندم على أنه فتح قلبه ولو لصديقه الأقرب بهذا الوضوح، ورأى أن يغيِّر محور الحديث بسرعة، فقال متظاهراً بأنه لم يلحظ صمت عنيز: أتعرف البيت المجاور لبيت حسن آغا...

- ما به.. قال عنيز بصوت أجش.
- البيت الذي جعل من إحدى غرفه قفصاً للضبع التي اصطدتها في المقبرة.

- صحيح. الآن عرفته، ثم استدرك.. ولم لا يجعل غرفة فيها قفصاً. ما المانع؟ إنه مهجور منذ وفاة الأم.

- وهذا ما أثار فضولي.

- فضولك.. ما الذي تتحدث عنه؟

وفكر الشاويش: لقد تجاوز بوحي الحدود.. اللعنة. ما الذي أغراني بإخراج كل هذا من قلبي ولاحظ الصمت المتسائل، فقال وقد قرر أن يفجِّر كل ما في قلبه مرة واحدة: منذ أيام.. منذ فترة وكنت ماراً من هناك بالصدفة رأيت الباب ينفتح، ورجلاً يخرج منه وقد وضع كوفية على رأسه.

- بيت أم الآغا؟

- نعم. قال الشاويش في تأكيد.

- ربما كان الآغا، أو ربما كان عاملاً يقوم ببعض الإصلاحات.

- لقد تبعته. قال الشاويش.

- تبعته؟ إلى أين؟

- إلى حارة النصارى.

- ماذا؟ حارة النصارى؟ لا. أنت تتوهم.

- أنا لا أتوهم. ودخل إلى خمارة في حارة النصارى.

- أستغفر الله العظيم.. ما الذي تقول؟ من هذا الرجل؟

- دعك من معرفة من هذا الرجل. وأكمل في إصرار. كان عليه أن يعيد تبييض صورته أمام عنيز، فربما نقل الحديث إلى الحجي.. هووه، وستكبر الحكاية وأنا لا أحتاج إلى مزيد من الأعداء والخصوم.. وتابع: ثم خرج ولحق به صاحب الخمارة.

- لا. قالها عنيز في صدمة.

- ومضيا فلحقت بهما إلى خان الجمرك.

- لماذا؟

- هاه هاه. الآن بدأت تفهم ما الذي يجري؟

- ما الذي يجري؟

- الرجل الذي خرج من بيت الآغا تقدم إلى رجل اسمه الشيخ أحمد وكان واضحاً أن الشيخ أحمد يريد أن يعيد إنشاء الكوميضا في البلد.

وقال عنيز في حزن: سمعت أن الوالي هو من يريد ذلك.

- اسمع... اسمع.. هناك ما هو أهم من الكوميضا.

- أهمُّ؟

- الرجل نشر عن خصره خرقة ملفوفة.

واقشعر عنيز من التوتر، وتابع الشاويش:

- ثم شدَّها فإذا بها تتبدى وكأنها قضيب ضخم من خرق.

وهمس عنيز في رعب: ظهر ثانية.

- من؟

- الشيطان. الشيطان. رأيته مرة وكان يتبدَّى وكأنه مهرج، ولكن الحجي عرفه وقال إنه الشيطان. وسألني إن كان قد دعاني للالتحاق به.

- دعاك؟

- لم أمكنه.

- وإذن؟

- غمزني. غمزني. أليست الغمزة دعوة، ولكن العتال أفسد عليه خطته.

- أي عتال؟

وكان على عنيز أن يقص على الشاويش ما رآه وعرفه عن ذلك الشيطان المسلح بقضيب من خرق.

- 43 -

تساءلت أروى وهي تسمع صرخات الإعجاب القادمة من الجمهور، وكان منهم من يطلق تعبيرات غزل صريحة بأدائها لدور أنس الجليس، كان جمهوراً لم ير امرأة تقف على مقربة منهم على هذا السفور، امرأة في المتناول فهي تلقي بالشعر الجميل والحوار المغري، وفي الوقت نفسه كانت بعيدة، فهم يعرفون أنها ليست امرأة أصلاً، فما هي إلا رجل يؤدي دور امرأة، ولكنهم مع معرفتهم الأكيدة بهذا كانوا يلقون غزلاً لم يعتادوا إلقاءه، وجرأة في التعبير لا يستخدمونها مع حليلاتهم.

وكانت تتساءل حائرة حين تخلو بنفسها وراء الستارة. ترى من الذي يتوجهون إليه بإعجابهم هذا.. أنس الجليل التي تتعطّف أمامهم، أم أروى الأنثى المختفية وراء أنور الذي يتنكر ويتقنع بأنس الجليس؟ كانت وهي تسمع صرخات الاستحسان وآهات الافتتان تتمنى لو كانت موجهة إليها حقيقة، إلى أروى المشتاقة إلى الإعجاب مثل كل النساء.. ولكن... أهي فعلاً نساء...؟ كان السؤال يحرجها. وكانت تجيب نفسها: حسن. فإن لم أكن نساء، فمن أنا؟ أنا طبعاً لست رجال. ولست أنور.

كان زملاؤها في الغرفة ما إن تضع عنها ثياب وزينة أنس الجليس حتى تعود إليهم على أنها أنور، فيأخذون في الحديث عن ظروف الفرقة وكرم الوالي، وإعجاب الوالي ورجاله بالعروض، وكانوا يدعونها، نه، إلى صحبتهم

في نزهاتهم وسيارينهم حيث يشوون اللحم ويشربون العرق خفية عن الشيخ أحمد وصديقيه الحلبيين المتزمتين، وكانوا يغضون النظر متظاهرين بأنهم لا يرون ولا يعرفون ما يجري، وكانت تعتذر بهذا الظرف أو ذاك عن مرافقتهم حتى لاحظت ضيقهم باعتذاراتها، فلم ترد القطيعة معهم، فصحبتهم مرة، ولكن نكاتهم البذيئة وتدافعاتهم الغليظة وتلميحاتهم الجنسية كانت تبدو لها مبتذلة رخيصة، ولم تكن تستطيع تركهم والانضمام إلى الشيخ أحمد وصديقيه الكهلين فقد كانوا بعيدين في همومهم واهتماماتهم، وأخذت الغربة التي لم تعرفها في غرفتها المعتزل حيث كانت تنسج البسط وترسم الجميل الذي لم تستطع أبداً حبسه على الورق. أخذت الغربة تغزوها، لكن شيئاً مهماً بدأ يسيطر عليها. إذ أنها حين تضع ثوب المرأة الذي تتقنع به كانت تعرف أنها لا تضع الثوب فقط، بل تبدأ بصنع المرأة الجديدة، فمرة تصنع عبلة، وكانت تستنجد بمدخراتها ومخزوناتها من مكتبة الآغا لترسم المرأة الجديدة، فإذا بها تصبح عبلة، وتفتن الحاضرين بعبلة، وحين تضع ثوب أنس الجليس فقد كانت تخرج من خزانتها السرية كل خلاعة وعفرتة وغنج تقوم به المرأة القارحة في الزمن العباسي. ليس هذا فحسب، بل كانت تدفئ أنس الجليس أثناء احتضانها لها حتى تحيلها إلى العاشقة الحقيقية، وترى افتتان كل واحد من الجمهور بأنس جليسه، ومحلومة ليله، والمرأة التي لم يرها ويعرفها في حياته، فنساؤهن رُبّين المتزنات الفاضلات: كانت تعرف ذلك من نفيسة خانم ومن صديقات الحجة رضية وكيف كنَّ يستنكرن حفلات النساء السرية تلك التي كن يغنين فيها عمي يا بياع الخس.. الله الدايم، وكن يصررن على الابتعاد عن أولئك الفاسقات.. ولم تحاول أبداً تقصي هذا الحفل السري، ولم تكن مرة على

مقربة من أولئك النساء اللواتي كانت الحجة رضية ومجموعتها يطلقن عليهن اسم الدونيات.

كان زملاؤها في الفرقة يتساءلون: من أين لها كل هذه القراحة وهذه الخبرة النسائية، فقد كانت نظرة مائلة واحدة منها كافية لإثارة جنون الجالسين في القاعة، لم تكن في حاجة حقيقية للكلام، فقد كان الجسد معبراً دون حاجة إلى عون من كلام، وكان الشيخ أحمد مذهولاً بهذه النسائية المبالغ فيها من فتى يعرفه المهذب، الصامت، اللطيف، الحيي، ولعدة مرات فكر في نقاشه مع الشيخين الحلبيين في التخلص من أنور — أروى، فقد كان أداؤه خليعاً أكثر مما يجب لفرقة تؤسس للفن الجميل، ولكن الإعجاب الهائل الذي كان — كانت تناله بعد كل عرض سواء في دور عبلة أو في دور أنس الجليس، أو قوت القلوب كان يجعله يتروى. وكان الشيخ أحمد يتساءل: ولكن من دربه على كل هذا؟ وأخذ في مراقبته يريد معرفة أين يعيش، وكيف. وهل في حياته من الأسرار ما يعطيه كل هذا المخزون الرائع والمخيف عن المرأة، ولكنَّ صدمته كانت في أنَّ أنور كان دائماً يختفي حالما يخرج من المرسح. أين ينام؟ من أهله؟.. كيف يتنكر؟ لم يكن أحد من الفرقة يعرف عنه شيئاً، فقد استطاع الحفاظ على سريته.

وأخيراً وفي الربيع وحين كانوا يستعدون لسيران الربيع الأول أوحى لعبود وكان المشاغب الأكبر في الفرقة أن يدعوه إلى صحبتهم إلى النزهة، وطلب من عبود مراقبته، وراقبه، ولكن الغريب أنه كان الحيي الخجول لا يحفظ النكات البذيئة ولا يلقيها بل ولا يضحك منها.

وحين عرف الشيخ أحمد من عبود أنَّ بعض شبان الفرقة كانوا يترددون إلى بيت منكو في حارة اليهود وكان في هذا البيت عدد من بنات الخطا، فطلب

من عبود أن يجرّه إلى هذا البيت ليعرف كيف يتصرف. كان يريد معرفة من هذا الغامض المسمى بأنور، ولكنّ زهد أنور بالبنات أدهشه، فلم يثرنه، ولم يهيجنه، ولم يقبل حتى مغازلتهن.

وفي مرة تالية طلب عبود من واحد من قوادي بيت منكو أن يتحرش بأروى – أنور لمعرفة إن كانوا ممن يشتهون ربما الرجال وكانت الكارثة.

أروى لا تعرف ما الذي غرّر بها وخدعها، وجعلها منذ البداية تقبل الانضمام إليهم في بيت منكو، أهو الفضول؟ ربما.. أهو اكتشاف النفس؟ ربما.. أهو إقناع الزملاء في الفرقة بأنه أنور حقيقي، وأنه ممثل حقيقي، ولو اقتنع الشيخ أحمد ووافق على أن تشخّص دور هارون الرشيد لشخّصت، أو لو وافق على تشخيصها دور علي نور الدين لشخصت وأرته أنها ممثل يستطيع صنع ولبس وأداء كل الشخوص التي يقتنع بها، ولكنه كان في حاجة إليه ليقوم بدور المرأة إلى جانب شابين أمردين كانا يتصنعان فيبدوان رجلين يشخصان امرأة، أما أروى فكانت ما إن تلبس ثوب عبلة، أو أنس الجليس، أو قوت القلوب حتى لا تترك مجالاً للمتفرجين في الشك بأنها امرأة تتفوق على نسائهم في الأنوثة، فهي لم تربَّ على كذب، أو تظاهر أو خجل، بل كانت تستمد أنوثتها من ذاكرتها الكتابية، وكان في ذاكرتها جنان، وقوت القلوب، وولادة، وكانت حين قرأت عنهن قد افتتنت بهن فرأت أنهن المرأة التي يستطيع جسدها القاصر الوصول بها إليهن لذلك حين كانت تتقمصهن كانت ولا تعرف أنها تفعل إنما كانت توقظ في أولئك المتبلدين بلّدتهم قرون من القمع الآسيوي البعيد حتى لم يعودوا يعرفون أنفسهم، كانت توقظ فيهم الشهوة العميقة، والحبَّ العميق، والاستسلام العميق للطبيعة، ولكن ما لم يدركه من حولها هو أنّ أنوثتها الصارخة المتحدية المغرية الشهوية لم تكن إلا أنوثة كتابية، أنوثة انتزعت من

القراءات وليس من الحياة، وهكذا حين تحداها عبود شبه الأمي، فهو لم يقرأ الأغاني ولم يقرأ نفح الطيب، ولم يقرأ مكتبة الآغا فيتوحد مع مخلوقاتها، ولأنه لم يقرأ ظنَّ فيها الظنون، فرأى تحديها بالقواد المدرب في بيت منكو وكانت الكارثة.

تقدم حليم وكان هذا اسم القواد، وكان فتى بارع الجمال، فعرض على أروى أن يريها بنتاً جديدة قد جاؤوا بها أخيراً إلى البيت، نظرت أروى من حولها حائرة، وكادت ترفض على عادتها، ولكنَّ نظرات التشجيع والتساؤل والإلحاح جعلتها تمضي معه، وكانت قد قررت أن تفعل كما فعلت في المرة الماضية تتأمل، وتضع بعض النقود، وتعتذر، فالمزاج ليس رائقاً اليوم، ولكنها ما إن دخلت معه الغرفة البعيدة التي لاحظت في شك أنها معزولة عن البيت، حتى أخذ قلبها في الخفقان، وتوقعت الأسوأ، ولكنها كانت على المحكّ، كانت تعرف أنهم ينتظرون ردة فعلها، وعرفت أنها كانت مؤامرة عليها منذ تقدم حليم إليها بكل هذا اللطف.

دخلت وراءه الغرفة الوحيدة المعتزلة لتكتشف أنَّها كانت خالية، وليس فيها إلا فراش ممدود، ومائدة فواكه وشراب، وعدد من الشموع ما صنع مشهداً معّداً لارتكاب كل الملذات.

تأملت أروى — أنور كلّ ما حولها، وكان حليم قد انسلَّ إلى غرفة جانبية قبل أن تشعر بانسلاله، فخمَّنت أنه قد مضى لإحضار الصبية الجديدة والتي وفرها كما قال لأحب الناس إليه — أنور.

سمعت أزيز الباب الجانبي يفتح، ورأت في النور غير الواضح تماماً شبحاً كامل العري، وفجأة ذكرته ذلك الذي قضت الأسابيع والشهور في محاولة أسره

على القماش، ذلك الكامل الذي رسمه المخشخش ولم تستطع رسمه والذي رأته مرة معلقاً وجناحاه لا يرفرفان، والذي كان الجمال الذي لم تستطع أبداً أسره.

كان الشبح واقفاً بالباب وكان تذويقه الصارخ من حمرة وكحل وشعر منشور على الكتفين وثديين صغيرين. لم يكن واضح التفاصيل فلم يكن النور قوياً بما فيه الكفاية. كانت تتأمل ليس الشبح الواقف أمامها، بل الشبح المعلق تحت البرق والرعد، وسؤال خفي يستيقظ فيها: أتراه هو ذلك المعلق بلا رفرفة، وهل يمكن لمثل هذا المستحيل ألّا تراه على الأرض، ثم تراه في ماخور.كانت قدماها تأمرانها بالابتعاد، ولكنه خرج من مستطيل الباب نصف المظلل لتراه وقضيبه المنتصب أمامه شيئاً مستحيلاً. الشعر والثديان الصغيران والقضيب. أعوذ بالله. أهو الكمال الذي كانت تظنه لن يوجد إلا لديه.. فما الذي جاء به إلى الأرض. ولكنها تذكرت فجأة أنَّ ذلك الكامل كان كماله في ساقيه، فهو يستطيع إكمال نقصه والتناسل حين يقرر وحيداً كاملاً لا حاجة به إلى آخر. أما هذا، فكماله عاجز، فالأثداء لن تكمله والشعر الجميل وحمرة الشفاه وكحل العيون لن يكملاه وإذن؟

اقترب الشبح ليظهر تحت النور وقد بولغ في جماله، وكان القضيب منتصباً، وتساءلت في سذاجة محايدة: ما الذي يريد الآن.. اقترب الشبح كامل العري يتمسح بأنور، لم يعد أروى الآن أبداً. لقد أصبح أنور كاملاً خالصاً. وفجأة شعرت أروى بالخوف. هل كشف سرها، فقد كان تحديه الجنسي واضحاً، تراجعت خطوتين، ولكن الآخر، الكامل في سلبيته اقترب منها، وكان اقترابه واضحاً، فقد أمسك بقضيبه وكأنه يعرضه عليه – عليها.

فجأة فعلت أروى ما لم تكن تتصور فعله ولو في أبعد أحلامها، أو في أشد خيالاتها شذوذاً، فقد مدت يدها. وفعلت ما لم تكن تتصور أنها تفعله، فقد

أمسكت بشعره الطويل وأخذت تشده خارج الغرفة – المشهد المعد – الإغراء. وفوجئ الشبح فصرخ، ولكنها لم ترحمه، فقد أخذت تشده إلى الخارج، ولم يستطع المقاومة والامتناع، فقد كان الألم أكبر من الاحتمال والممانعة. كان يصرخ، وكانت تشده خارجاً.

فجأة وجدت نفسها في القاعة المضاءة الكبيرة وكانت الفرقة كلها مجتمعة هناك. وكأنها كانت تنتظر نتيجة اللقاء ... لتراه هو يشده من شعره، ثم يدفعه عارياً مزيناً معطراً باكياً إلى منتصف القاعة، ليقع على الأرض يبكي.

تأملتهم طويلاً، ثم نظرت إليه في ذلته مستلقياً لا يجرؤ على الوقوف ولا الاستتار حتى تقدمت سلوى كبرى بنات منكو فألقت عليه شرشفاً سترت عريه، وتساءلت أروى قبل أن تنصرف. أكانت تستر عريه، أم عريها، أم العري الذي أرادوه لها.

تركت البيت ولم يلحق بها أحد، ومضت تضرب في الحارات، وكان التساؤل الشديد: أروى. من أنت. ما الذي يريده العالم منك؟ أو ما الذي تريدينه من العالم؟

كانت الكوميضا الباب السري الذي دخلت منه لمواجهة نفسها حين شخصت أجمل التشخيصات النسائية، ولكن. أهي امرأة؟ فإن كانت امرأة، فلم كانت تتدرب في غرفتها وحيدة على دور علي نور الدين، ولم كانت تحب أن تكون علي نور الدين أكثر مما كانت تحب أن تكون أنس الجليس.

خرجت من السوق الطويل، ودخلت في القنوات وكان السؤال مايزال ملحاً: أروى من أنت؟ أأنت ذلك الجمال المعلق لا يرفرف أم أنت ابنة نفيسة خانم ولن تكوني إلا ابنة نفيسة خانم... هذا السؤال الحائر المحيِّر كان يرنُّ في الآن نفسه في ذهن حسن آغا المرعشلي قارئ روسو، ومونتسكيو ومعلن أنه تلميذ

الثورة الفرنسية و كانز حلمها في العدالة، و.. مصلي الجمعة وراء الحجي ومقبِّل يد الشيخ الاستانبولي تماماً كما كانت الجموع تفعل متبركة بهذا العالم الحاج ممسك خزائن المعرفة. ثم اكتملت حيرته حين قرأ رسائل الحجي غير المرسلة إلى السلطان.

- 44 -

جاء الليل، ولم يخرج برناردو من بيت حسن آغا، ولكنَّ الأمر لم يعد محتملاً، فلقد نفد كل ما اشتراه من طعام وشراب، وحتى الأصباغ نفذت، ولم يعد ممكناً الصبر، فلقد أتضح دون لبس أن الآغا قد تخلى عنه وأنَّ بقية من خجل تمنعه من مطالبته بالمغادرة، وكان لدى برناردو بعض مال مدَّخر منذ أيام مصر والمشروع الجميل الذي لم يتمَّ في مصر.

فكَّر: أخرج فآتي ببعض طعام وشراب وأجعل غسان يشتري لي الأصباغ التي تلزمني.

شقَّ باب البيت، كانت الحارة خالية، فاطمأن وارتدى كوفيته وانسلَّ.

فكر: يجب أن أجد مصدراً للمال إن كنت سأبقى في هذه المدينة، ولكن من أين آتي بالمال... فكر.. لم لا أمضي إلى الوالي وأعرض عليه رسم صورة له، فإن وافق ورسمتها كان المال الذي سيعطيه لي كافياً لاستئجار بيت والعيش فيه بعيداً عن الآغا والتهديدات التي حدثني عنها من جاره الحجي ورجاله...

ولكنه في مشيه الطويل يشق الطرقات نصف العتمة لم يلحظ ذلك المتسلل من ورائه، ولم يهتم فاخترق السوق الطويل، وكان المتسلل يلحق به متلثماً عن بعد، وحين وصل إلى حارة النصارى مال إليها ببساطة من اعتاد ذلك، فهناك سيجد بغيته كاملة، ولكن المتسلل ملثماً من بعيد توقف لهنيهة عند مدخل

حارة النصارى. ثم لم يستطع التصبر، فلحق به، ولم يهتم للفوانيس المضاءة، ولا إلى الدكاكين المفتوحة الكثيرة، بل جعل من برناردو هدفاً تعلق به.

رآه يدخل إلى خمارة غسان، ولما اشتمَّ الرائحة الخارجة منها لم يجرؤ على الدخول، بل توقف، وتأمل ما حوله حتى رأى مقهى قريباً فاتجه إليه، ونظر إلى الجالسين من حوله ولم يرد إثارة ريبتهم، فرفع اللثام عن وجهه ليتبدى عنيز الجحش.

لم يكن عنيز يفكر في شيء في تلك الليلة الطويلة التي انتظر فيها الشيطان المقيم في بيت أم الآغا، ولم يسأل نفسه إن كانت إقامته في ذلك البيت بإذن من الآغا، أم أنه كان يغتنم فرصة البيت المهجور فيسكنه على عادة المردة والشياطين. ترى ما الذي يفعله في البيت المهجور كان يسأل، ولم اختار هذا البيت وبيوت كثيرة مهجورة لا لشيء إلا لأن أصحابها قد قضت عليهم الهيضة، وليس لهم من وارث يحتلُ البيت. كان يعرف ذلك، ولكنه كان يعرف أنّ الجان تحب سكنى الخرابات. وتساءل: وهل الشيطان من الجان؟ ولكنني رأيته وتبعته، وهاهو في الخمارة على بعد أمتار مني ولو شئت للمسته ولكنك.. لم تلمسه. و... طلب كأس شاي كبيراً، وأركيلة.

وانشغل في التدخين. كان الحديث مع النفس يتعبه، وكان يفضل عليه الحديث مع الآخرين، وربما كان هذا من آثار المهنة. نظر من حوله، كانوا زمراً مجتمعة حول لاعبي طاولة، أو لاعبي ورق، وكان آخرون يدخنون ويثرثرون، ومن الواضح أنهم ليسوا في حاجة إليه، وانتبه فجأة متراجعاً، فعمَّ يحدثهم. عن مطاردته للشيطان... وهل سيصدقونه، أم سيعتبرونه المجنون.

دخن أركيلته الثانية، ولم يخرج الشيطان من الخمارة، وقد منع نفسه أكثر من مرة من اقتحام الخمارة والتأكد أنه ما يزال في الداخل، ولكنَّ حذراً

غير مألوف لديه منعه. لا يجب أن يراك، ولا يجب أن يـراك رواد الخمـارة إن أردت معرفة غرضه، وماذا سيفعل بعد مغادرته الخمارة، حافظ على سريتك.

وضع المبسم من يده، فسمع دعاءها: الله يفضحك كما فـضحتني. وغـرق في الذنب فجأة: لـماذا حـدق بهـا في افتتـان. ألعـلَّ تحديقـه بهـا ما جعلـها تقـرر زيارته، أم لعله الذنب الذي أعلن الحجي أنّ عليـه أن يتـوب عنـه حتـى تعـود المدينة إلى ما كانت عليه. ولكن... لا....ليس ما تفكر فيه هو الذنب، فـالحجي نفسه هو من كان يطلب إليك القيام به، وإذن...

انتبـه إلى أنَّ بـاب الخمـارة يفـتح، ورأى برنـاردو يخـرج حـاملاً رزمـة ويمضي متمايلاً بعض الشيء، وفكر ساخراً: وهل يسكر الشيطان...

دفع ما عليه وانطلق يلاحقه. خرج برناردو من حارة النصارى، فلحق بـه عنيز إلى السوق الطويل. كان الـسوق الطويـل قـد غلبـت عليـه العتمـة مـع تقـدم الليل، وأخذ عنيز يراقبه يمشي متمايلاً، وفجـأة رآه يقـف عنـد مـدخل تيـاترو الشيخ أحمد. فتساءل: لماذا توقف؟

كان مدخل التياترو مضاء بعدد من الفوانيس، وفجـأة رأى عنيـز برنـاردو وهو يضع الرزمة جانباً ثم يفتح معطفه وعرف عنيز ما سيحصل، وكـان حدسـه صحيحاً، فقد نشر برناردو عن خصره ما يشبه قضيباً من خرق، وأخذ يلـوح بـه عند مدخل المسرح مقهقهاً. وفجأة عـرف عنيـز أنَّ الأمـر لم يعـد يحتمـل الـشك فهذا هو الشيطان، وهاهو يقف عند المعبد الـذي سـيلد الـشياطين الـذين حدثـه عنهم الحجي.

سمع من مرقبه ضـحكات، ورآه وهـو يحمـل رزمتـه ويمـضي وهـو يغـني كلمات لم يفهم منها شيئاً. لا لم تكن بالعربية. أهذه هي لغة الشيطان إذن.

فجأة وعلى غير توقع أحسَّ عنيز بمثانته تنتفض وأحسَّ السائل الساخن يندفق، يندفق بقوة، ولكن الغريب أنَّه لم يشعر بالخزي أو الخجل الذي اعتاد الإحساس به حين تفرج مثانته عن مكنوناتها وتنجس شرواله وتفسد يومه، وتحرمه من صلاته. لا لم يحسَّ بالخزي، بل اندفع وشرواله يخض بالبول ويرشه من حوله.

توقف برناردو عن غنائه فقد اشتمَّ رائحتها، وعرف أنها قد وصلت، ولكنه لم يكن يحمل بندقية ولا خنجراً. أعوذ بالله. إنها هي لقد نجا منها في مصر، ونجا منها في رحلات صيده هنا، ولكن هاهي تدركه الآن في أضعف لحظاته. التفت ليراها. ولكنه عند التفاتته بالضبط أحسَّ باللطمة. كانت لطمة قوية. يعرفها. إنها تحرش ما قبل الانقضاض والقتل. ولكن هنا؟ وفي السوق الطويل. هنا في فيا‌إريكتا؟ كانت الأفكار تندفع، وتندفع وهو يموج إثر الصدمة القوية – ضربة الكتف العنيفة ورشَّة البول المغرية، وسمع غناء نساء جماعي يغني عمي يا بياع الخس. الله الدايم. ورأى شبحها يبتعد وكان برناردو يسقط في حركة بطيئة. كان يرى نور آخر السوق، ترى أين آخر السوق الذي يشع منه الضوء البعيد، أهو باب الجابية، أم حارة النصارى. لم يستطع الجواب. فلقد سقط.

كان عنيز قد ابتعد بضع عشرة ذراعاً في استمرارية اندفاعته بعد لطمة الكتف العنيفة. توقف فرآه على الأرض ساقطاً، وتنفسَّ عميقاً يهدئ توتره. كان شرواله قد سرب كل ما فيه الآن في الخضخضة الطويلة أثناء الاندفاعة.

قال: لقد سقط الشيطان. أخيراً سقط. عليّ أن أعود فأقضي عليه وبذا أكون قد كفرت عن ذنبي.

عاد بهدوء يجر بابوجه ، ولكنه حين اقترب منه شمَّ الرائحة القوية. وتساءل: أهذه رائحة الخمرة إذن؟ .. لا... كانت بركة كبيرة من سوائل تتسرب حول برناردو... كانت هناك الرائحة الحامضة للخمرة. يعرفها، ولكن لم لا يتحرك. هل كانت لطمته بهذه القوة. انحنى إلى جانب البركة. تلمسها بإصبعه. كانت أسمك من الخمرة، فما هي إذن؟ غطس إصبعه في السائل وحمله إلى أنفه. أعوذ بالله. إنها رائحة الدم. تذوقها ليبصقها على عادته في اكتشاف الأشياء، ولكنها دم.

توقف شبه مذهول. هل قتلته؟ وقتل الشيطان بهذه السهولة؟ فلم خوّفنا الحجي منه وحذرنا من قوته القادمة لتحيل الشام شريف إلى ماخور آخر — ووكر آخر من أوكار الشيطان.

كان برناردو يئنُّ أنيناً خافتاً جداً، ولو لم يكن الليل والصمت وذعر عنيز الأخرس لما سمعه. ولوهلة أحسَّ بالتعاطف معه، فسأله ولا يعرف لم سأله هذا السؤال: من أنت؟ ولكنَّ الأنين الخافت استمرَّ، قلَّبه بهدوء، واكتشف مذعوراً أنَّ زجاجة الخمر التي كان يحملها في عبه قد انكسرت وانغرست في صدره. توقف تسرب البول المتقاطر، وأحسَّ بانتصاب لم يعرفه منذ عقود. وذهل. لماذا.. ما الذي يحصل. وكان الرعب. الرعب مما رأى ومما جرى لجسده النائم عاطلاً منذ سنين.

انتصب واقفاً، وأحسَّ بساقيه تريدان الهرب، فهرب. ركض وابتعد. وكانت فكرة غامضة تلحُّ عليه: لا يجب أن يعثروا عليك إلى جواره. إنه قتيل. ولن يصدقوا أنه الشيطان، وسيحملونك إلى سجن القلعة وسيشنقونك.. ابتعد يا عنيز. ابتعد.

خرج من السوق الطويل. انحرف إلى الدرويشية... وصل إلى السنجقدار. هرب إلى المرجة وهناك انحدر إلى حيث النهر فغسل يديه، غسلهما بقوة. ثم نظر من حوله، فلم ير أحداً. خلع شرواله وغطسه في النهر يسبّعه، فلعله يجف قبل الفجر ليستطيع أداء صلاة الفجر وراء الحجي. صحيح. الحجي. يجب أن يبلغه بما جرى.. وسيرى أي سعادة سيتشاركان. وأخيراً قضي على الشيطان، ولم يعد يهدد الشام شريف.

نشر شرواله على صفصافة قريبة، وتلطّى جانباً ينتظر الجفاف والفجر، ولكنه تذكر، فنظر إلى قضيبه. كان قد عاد إلى طفليته، وأحس برغبة جديدة في بول لا يندفق، بل يقطر قطراً.

- 45 -

كان صباحاً مبهجاً للحجي، فلقد وصله خبران سعيدان في وقت واحد وبعد صلاة الفجر، وقبل إقامة الدرس الصباحي للمصلين. أول الخبرين حمله الشيخ سليم بأنَّ الوالي قد استدعي إلى استانبول، وأنه قد مضى قبل انبلاج الفجر، فلم يرغب في رؤية لا المودعين ولا الشامتين.

أما الخبر الثاني فقد نقله إليه عنيز الجحش وهو يرتعد: الشيطان قتل. تنفس الحجي الصعداء، واسترخى يستمتع بالخبرين، ولكنه فجأة انتفض واقفاً ونظر إليه المصلُّون منتظرو الدرس الصباحي متسائلين، ولكنه اعتذر على عجل، ولمس عنيز بيده يطلب إليه اللحاق به.

وعلى الباب وبينما كان يلبس حذاءه قال لعنيز: الآن فقط أستطيع الأمل أنّ الشام شريف قد عادت الشام شريف.

مشيا مسرعين أقرب إلى الركض وقال عنيز لاهثاً ومتضايقاً من شرواله الذي ما يزال فيه بعض البلل: ولكنهم ربما حملوه.

- أريد رؤيته. سأمضي إلى الكركون لو لزم، يجب أن أراه.

أسرعا يخترقان الحارات، ولكنهما لاحظا مع نور الصباح المبكر مجموعة من الناس تقف ملتفة حول شيء ما، وكان بعضهم منحنياً فوقه. قال عنيز: لم يحملوه بعد. اقتربا، وما إن صارا على مسافة معقولة حتى لاحظ عنيز أحدهم يحمل القضيب القماشي ويلوح به. قال الحجي: ما هذا؟

قال عنيز: شارة الشيطان.

ابتعد المتجمعون وتركوا الحجي يتفحصه، يتفحص ماتبقي من زجاجة الخمر الرقيقة خارج صدره، يتفحص جيوبه، ولكنه لم يجد ورقاً يدل عليه أو على هويته. ولكنه كان ميتاً كحجر. قال الحجي لعنيز على طريق العودة.

- أرأيت إلى شارته التي كان الشاب يلوح بها؟

- رأيت. رأيت. قالها في تبرم.

وفجأة تذكر: أنت واثق أنك رأيته يخرج من بيت حسن آغا؟ وقال عنيز في انتصار: بالطبع. بالطبع.

ومشى الحجي بقوة أكبر منه وسرعة أكبر من وقاره.

فوجئ حسن آغا حتى كاد يغمى عليه بخبر العثور على برناردو مقتولاً في السوق الطويل، وأنّ الشيطان قد لقي حتفه أخيراً وقبل أن يفيق من صدمته عاجله الحجي: رأوه يخرج من بيت أمك. يجب أن نفتش البيت.

وكانت الصدمة التالية، فهو يعرف ما يوجد في البيت، يعرف عن رسمات النساء العاريات، وعن رسمات إبليس التي أفزعته، ويعرف عن جرار الخمر... وحاول التهرب: ليس معي المفتاح الآن. هل نؤجل الأمر لبعض الوقت حتى نعثر على المفتاح.

ونظر إليه الحجي بصرامة: آغا. أنت كنت تعرف بوجوده في بيتك؟ كنت تعرف بوجود الشيطان في بيتك. وسكتت؟

وتلعثم الآغا أمام هذه الهجمة، وكانت الحيرة المرعبة، هو يعرف أن برناردو ليس الشيطان، ولكنه لا يستطيع أيضاً التصريح عن هويته، وعن إخفائه في بيته. وهكذا أضيف إلى حيرات الآغا حيرة جديدة، فهل يخون ثقة صديقه ويقبل بتسميته بالشيطان، وبالتعامل مع جسده كشيطان، وهو من

حارب الملوك، وهزَّ أركان الكنيسة، وحاول خلق مجتمع عادل في إقطاعية في مصر... هل يمكن تسمية شخص كهذا بالشيطان؟ وسأل في ضعف: من قتله؟

وقال الحجي في فخر وهو يربت على كتف عنيز: أخونا عنيز الـ... ثم تذكر فقال الشحرور.

وسعد عنيز بتذكر الحجي لاسمه الحقيقي وابتعاده عن الاسم الذي ألصقوه به في فتوته، ولم يجده سيئاً جداً حين كان لديه ما يمكن تسميته بالجحش أما الآن فالشحررو كاف. ونظر إليه الآغا غير مصدق: أنت. أنت من قتله؟

وقال عنيز: رأيته خارجاً من بيتكم القديم، فطاردته حتى حارة النصارى، وأنّ الآغا في أعماقه مفكراً: المسكين كان يسعى وراء شراب، وربما بعض طعام فأنا من هجره وتركه دون طعام أو شراب.. وتنهد: أتراني المسؤول عن قتله.

كان عنيز يقول ويقول، ويصف كيف لطمه تلك اللطمة المروعة، فأسقطه على الأرض وقتله بأداة فساده بزجاجة خمره.

أصبح الآغا الآن وليس أمامه إلا خيار واحد، أن يختار الصف الذي سيقف إلى جانبه، إلى جانب القتيل دون أهل أو حزب أو جماعة، أو طائفة وهو على أية حال قد مات؟ أم مع الحجي وعنيز؟ وكانوا قد نقلوا إليه خبر استدعاء الوالي إلى استانبول، وعرف تماماً معنى استدعاء الوالي إلى استانبول بعد كثرة الشكاوى المرفوعة إلى الباب العالي تشتكي إدخال الوالي العلوم الوضعية إلى المدارس وإهماله العلوم الدينية، وتشتكي من إنشائه الخستاخانه مخالفاً إرادة الله في أنّ المرض ابتلاء لصبر المؤمن. تشتكي من بدعة التياترو والكوميضا والرجال يؤدون أداور النساء فيثيرون فيهم شهوات محرمة، ورغبات مرفوضة ويهدونهم إلى مفاسد ومفاسق كانوا في غنى عنها.

كان قد سمع عن أصدقائه الذين تخلّوا وتابوا، ولم يعودوا يجالسونه ليحدثهم عن العقد الاجتماعي، ومجتمع العدل، وعرف عن عودتهم إلى مشايخهم الذين هجروهم مع مقدم إبراهيم باشا وفرحتهم بالمجتمع الجديد. كان قد قاوم هجمات نفيسة خانم، وهجمات الحجة رضية عبر نفيسة خانم، وكانوا يرون فيه الشاة السوداء في قطيع من شياه بيض، وكان يتظاهر بالتراجع والرجوع مخفياً إيمانه بالمجتمع القادم في قلبه.

كان يعتقد أنه يسايرهم، فهو يصلي معهم ويرفع يديه أثناء دعوات الإمام الطويلة بنصرة السلطان، وهزيمة الكفار والفاسقين الداعين إلى المجتمع الجديد. كان يخفي معرفته بأنَّ يوماً جميلاً آتياً سينتصر فيه العقد الاجتماعي حيث يعرف كلٌ من الحاكم والمحكوم حقّه، فلا يعتدي أيٌّ منهما على حق الآخر، ولكن الأيام تتقدم والأصدقاء يقلون والمتسارُّون يحدثون عن يوم العدل يندرون، ولكنه في الآن نفسه كان يرى القناصل، رسل العقد الاجتماعي وهم يتحولون إلى وحوش ينهبون الناس ويغرقونهم عبر مواطنيهم أو حاملي الجنسية – الحماية بالديون والفوائد الثقيلة وطبعاً ليس بعد ذلك إلا انتزاع ممتلكاتهم. كان يرى هذا ويحار، فما الذي كان يدعو إليه إبراهيم باشا ورجال الثورة الفرنسية الذين انضموا إليه إذن؟ وكان يمكن لهذه الحيرة أن تطول لولا قدوم برناردو. فرأى أنَّ القناصل والمرابين واللصوص ومخربي الصناعات المحلية ليسوا رجال العقد الاجتماعي، بل هم من قتلوا العقد الاجتماعي وقتلوا الجمهورية في فرنسا، فعاد إليه التوازن والفرح والأمل، وكانت جلساتهما الطويلة وحواراتهما الطويلة ما أعاد إليه الكثير من الأمل، ولكن غرق قافلة حج النسوان واضطراره إلى دفن الكفن الأبيض يكفن قماشاً أبيض واضطراره إلى

توسيده التراب بيده وهو يعرف أنه يوسد قماشاً، ثم سماعه الملقن ينادي الكفن الأبيض قائلاً: إذا جاءك الملكان يسألانك....

هو يعرف أنَّ تلك اللحظة كانت المفصل الذي غيَّر مسيرة حياته كلها، فلقد أحس بعبث كل شيء. الحاكم الظالم والذي سيوسدونه التراب مثله مثل المحكوم المظلوم، السارق والمسروق، والغازي والمغزو. والكل إلى تراب.

كانت صدمة الكفن الخفيف استعادة لشبابه المبكر قبل اختلاطه بالفرنسيين الهاربين من الملك البوربوني، و قبل اختلاطه بالصيدناوي الذي علَّمه الفرنسية فقرأ بها ما أخرجه عن الصبَّان والأشموني، والسيوطي وابن هشام، فلم تعد شهادة العالمية تعني له شيئاً، فلقد صار الهمُّ هو هدم هذا المجتمع، وبناء مجتمع جديد يشبه ذلك المجتمع الذي هزَّ دولة استانبول، ودولة المماليك، وقدَّم الوعود التي صدَّقها.

ولكن....هاهو الآن وعليه أن يتنكر لكل أحلامه، أن يرفض وينكر كل ما آمن به كحلم، ويقبل ببرناردو شيطاناً، وإذا أدخلهم إلى بيته الآن ورأوا الصور. الصور. صور النساء العاريات ولن يستطيعوا فهم أنهن الحوريات، وصور... أعوذ بالله. صور إبليس ذي العضوين. كيف يفسر لهم هذا إلا أنها صور إبليس وإذن فقد كان بيته قلعة لإبليس.

وصرخ الحجي: المفتاح...

ولم يستطع إعطاءه المفتاح، بل ظل على إنكاره معرفة مكان المفتاح، وعندئذ صرخ الحجي بعنيز: ادع الشاويش زيدان، والشيخ سليم والأصدقاء جميعاً، وعرف الآغا أنَّه قد حصر وأوقع به.. فلم يجد إلا الجلوس وانتظار ما يفعلون.

اقترب الحجي منه، وربت على ظهره حين صارا وحيدين وسأله في لطف

أبوي: أكنت تعرف بوجوده في بيتكم القديم.

وأنّ الآغا نافياً: بالطبع لا. ثم انتبه إلى أنه يريد الإيقاع به. إنه يعرف. فكر. إنه يعرف وهو يشكُ بي ولاشكّ. ما الذي كانت تقوله نفيسة عني لهم... إنها الفضيحة يا آغا.... الوالي وقد استدعي إلى استانبول، وهاهي فرصة الحجي تحين لبسط يده على المدينة.

وبلطف قال الحجي: المفتاح يا آغا. المفتاح.

وعرف الآغا أنه لو أعطاه المفتاح فستكون نهايته. إذ لماذا رفض إعطاء المفتاح في البدء وكان في يده، وإذن فهو يعرف بما يوجد من كفريات في البيت. ثم سينتقل السؤال إلى الشيطان، ولماذا كان يخفيه في بيته. أهو من جند إبليس الذين يستعدون لهدم مملكة السلطان وإقامة مملكة الشيطان إذن...؟

كانت الحيرة قد أطبقت على الآغا الحائر أصلاً في اتخاذ الموقف الواجب اتخاذه، ولكنه بحنكة معقولة عرف أنَّ الحكمة الآن هي في إنكار ملكية المفتاح فهو في عدم امتلاكه المفتاح لا يعرف من تسلل إلى البيت، و لا ما يصنع وإذن فهو ضحية للشيطان مثلهم، وانتبه إلى أنه قد سمى برناردو بالشيطان، وصرخ – في أعماقه طبعاً – : لقد مات برناردو. ومات، ولن يفيد من فضيحتي ومطاردتي وربما قتلي بتهمة الشيطانية شيئاً، بل أنا من يخسر، وسأخسر الكثير.. والغريب أنَّ أروى لم تخطر على باله أبداً في تلك اللحظة، فكل ما كان يفكر فيه هو كيف ينجو بجلده في لحظة غياب الوالي المتنور.

- هه المفتاح.
- لا أعرف عنه شيئاً.
- وإذن. أتسمح لنا بكسر الباب؟

- تكسروه؟
- نعم. لابد من الدخول إلى البيت الذي سكن فيه الشيطان وربما كان في البيت زوجة أو أعوان له.

أحنى الآغا رأسه مستسلماً، ولم يعد باستطاعته المماطلة، سمع الضجة أمام الباب وعرف أن رجال الحجي قد وصلوا....فقال للحجي في انكسار: وصلوا....تفضل.

كسروا الباب. وكما توقع الآغا الذي انطوى على نفسه في ذعر. وجدوا صور إبليس ذي العضوين، فصرخ الحجي: أين الآغا ليرى ما ترك الشيطان؟ أين الآغا؟

* * *

توالى الطرق العنيف على الباب، فمضى متثاقلاً لفتحه، وما كاد حتى انقضت عليه أيادي من لم يكونوا يجرؤون على مصافحته من قبل. كانوا مجموعة من العتالين، والبائعين على البسطات، وجامعي القمامة على الحمير يبيعونها للفلاحين لتخميرها سماداً. كانت روائحهم نتنة وأيديهم خشنة، ولكن عيونهم كانت تنفث اللهب، وتساءل الآغا بسرعة البرق: من أين جاءهم هذا اللهب في العيون وهم من اعتادوا الإطراق. ولم يكن بيده وهو الرجل العجوز المقاومة، فمضى معهم إلى بيت أمه وفكّر وهم يشدُّونه فيما بينهم: *الملجأ الأخير لطريد القارتين.*

دخل إلى البيت وفي الباحة كانت الرسوم مكومة، رسمات الحوريات، ورسمات إبليس ذي العضوين، ورسمات الضبع، وكان عنيز يقف إلى جانبها في انتصار.

نفض الآغا ذراعيه من أيدي الغوغاء الذين كانوا يمسكون به حين رأى الحجي، وكأنه عرف أن الحجي سيكون حمايته من الغوغاء، وسأله الحجي في رقة كان الآغا يعرف أنها ليست رقة: ماذا نفعل بها؟

وقبل أن يجيب الآغا لاحظ رسمة جديدة معلقة في صدر الإيوان فتركهم ومضى باتجاهها. لحق به عنيز وكان يحمل سراجاً كبيراً ليرى رسمة لشخص يشبه برناردو بكرشه المندلقة ولحيته المهوشة، وهو يحمل القضيب من خرق يلوح به والأطفال يحصبونه بالحصى. كانت الرسمة معلقة بعيدة عن متناولهم، وفكر الآغا: ما معنى هذا، ما معنى هذا ولماذا كان معلقاً عالياً في الهواء، وقدماه لاتمسان الأرض؟ وحين صعد عنيز على كتفي واحد من باعة البليلة وأنزل الرسمة. تقدم منها الآغا ولمسها كانت الرسمة ماتزال طرية الألوان، وتنهد غير فاهم تسارع الأحداث: ما معنى هذا. ما معنى هذا؟

قال الحجي: ماذا نفعل بها؟

وقال عنيز: نحرقها. نحرقها. فنقضي على آثار الشيطان.

لم يستطع الآغا الاعتراض، وسرعان ما سكب الزيت على اللوحات وانتشرت النار في زيوت الرسوم وقماشها الجاف، وكان برناردو يرمق الآغا من بين ألسنة اللهب وهو يتثنى تحت ألسنة النيران، ورأى الآغا نظرة السخرية الواضحة في وجهه.

انطلق صوت الأذان عالياً، فأشار الحجي إلى الحضور: هيا. الصلاة. قال عنيز: والنار؟

نظر الحجي إلى الآغا، ثم إلى الرجال من حوله وأخيراً قال لعنيز: ابق إلى جانبها وتأكد من كمال احتراقها. ثم قبض على ذراع الآغا فيما يشبه المودة ومضى به إلى الجامع، وعلى الطريق كان السؤال يلح على الآغا: لماذا كان

الصبيان والغوغاء يحصبون من يشبه برناردو.؟ لماذا؟ وبهدوء رأى الصورة ثانية بعيداً عن الأرض.

انتظر عنيز حتى سمع صوت خطواتهم تبتعد، ثم مضى إلى الباب الخارجي فتأكد من إحكام إغلاقه، وعاد إلى البيت يحمل سراجه، ويفتش. كان واثقاً من أنَّ الشيطان لم يسلم كل أسلحته، وماتزال هناك رسوم وآثار له عليه أن يجدها ويكمل إحراقها.

فتش الغرف واحدة واحدة، ولكنه لم يجد إلا جراراً فارغة تشممها وعرف أنها جرار خمر، فبصق وهو يلعن الشيطان ومن أدخله البلد، كان ينتقل من غرفة إلى غرفة حتى وصل إلى بيت المونة، ولم يجد ما كان يبحث عنه ولم يستسلم، وكانت النار ما تزال تأكل القماش المنقوع بزيوت الأصبغة، والغريب أنَّ وجه إبليس ذي العضوين كان يتلوى فيما يشبه الضحك الساخر، ولكن عنيز المنتشي من سعادة أنه ينبش في بيت الآغا ويحرق أشياءه وآثار شيطانه كانت أكبر من انشغاله في البحث عن آثار آخرى للشيطان.

رأى الدرج الخشبي الصاعد إلى السطح، فقرر الصعود لعلَّ من غرفة علوية في الطابق الأعلى، حمل السراج الكبير وصعد حذراً، فقد كانت الحالة المتردية للخشب شديدة الوضوح، وصل إلى المشرقة، وفتش المشرقة والسطح ولكن ليس من غرف، والغرفة الوحيدة كانت كومة مهدمة لا يجرؤ عاقل على دخولها.

أراد النزول والعودة إلى باحة البيت حين لمح الدالية المستندة على الجدار الفاصل فاقترب منها، وحرَّك الأغصان في غير اهتمام حين لمح الخرق والنور المتسرب من البيت المجاور. توقف قليلاً، وتنحنح كمن يستأذن، ولكنه لم يسمع رداً أو احتجاجاً، جثا على ركبتيه، وأطلَّ برأسه من الخرق، ولكنه لم يلمح إلا عتمة وشبح غرفة. هتف: يا أهل البيت. يا جيران. ولم يسمع رداً.

كانت البيوت الخالية في المدينة كثيرة منذ الهيضة والفيضان اللذين أكلا الكثير من السكان، وكان حج النسوان قد أخلى المدينة من كثير من سكانها من أرامل المصري، فلم يتحرج كثيراً، فكر. ماذا لو كان الشيطان قد خبأ بعضاً من شروره هاهنا.

كانت مسألة الاعتداء على حرمة الجيران كبيرة، فلم يتجرأ على الدخول والتفتيش، وتراجع مكرهاً مشبعاً بالشكوك. قال: سأستأذن الحجي أولاً فإن أباح عبرت وفتشت، فالمسألة لا تحتمل التساهل.

كانت النار قدأجهزت على إبليس ذي العضوين، وأجهزت على النساء متخشبات الأسافل، وأجهزت على جهضاء الضبع الغارقة في سوائلها. ولم يتبق من كل هذا إلا قطع قماش متفحمة وروائح زيوت محترقة ونثيث دخان.

اتجه إلى الباب الخارجي وهو يتشمم ما حوله في لهفة. قال: يجب أن أرى الحجي، فهو من سيخبرني بالخطوة التالية.

- 46 -

حين تركت أروى الماخور، ومضت. كانت تحس بنوع من القذارة تغطيها. كانت تريد القيء، فهذه التجربة الملعونة التي سيقت إليها كانت أكبر من خيالها. أكبر من قدرتها على تصور قذارة الإنسان، وفي البدء لم تكن تعرف ما معنى كلمة الماخور، ولا مَهَمَّة النساء الموجودات فيه، بل ربما كانت تتصور أنه مكان للغناء ولبعض لهو يشبه السيران، ولكن أن تجد نفسها في غرفة واحدة مع القواد المزيَّن كالنساء، والمعطَّر كالنساء والمتغنِّج كالنساء.... ما الذي كان يطلبه تساءلت وهو يتحكك بها؟ وفجأة دهمها القيء، وكانت في الشارع، فقاءت. قاءت كل السوائل في معدتها، فلم تكن قد تناولت طعاماً طيلة يومها.

فكرت.... وماذا سأفعل في البيت الآن، الآغا منغمس في مراجعة نفسه والكتابة. ترى ماذا يكتب. لقد تغيَّر تماماً منذ أن وصل الخبر بحادث السيل وابتلاعه نسوان الحج و....الخادم؟ هه.لقد أصبحت تخدم نفسها والجاريتين اللتين تجرأتا حين لم تجدا من يمانع في نومهن في البيت، فهذا أسهل من النوم في بيت الأسياد الذين ماتوا وتركوهن بلا معيل، ولم تجد في نفسها الرغبة ولا القدرة على طردهن، ولماذا؟ هه... كان عالمها قد تجسد في الكوميضا وقوت القلوب، وأنس الجليس، وكان الشيخ أحمد يرفض كلما طلبت تشخيص علي نور الدين، أو الوزير أو هارون الرشيد. كان يقول: لدينا كثير من الرجال ولكن ليس لدينا إلا أنور واحد....

فكرت سأذهب إلى بيت عمتي، فهناك أستطيع الخلوة قليلاً. اشترت على الطريق بعض طعام، ومضت. كانت تجربة مروعة وفكرت — تجربة ربما جعلتها تعيد النظر في كل شيءٍ حتى في الكوميضا. لماذا تجرأ عليها زملاؤها أنفسهم، لماذا جاءوا بها أصلاً إلى الماخور، ولماذا عرضوها إلى هذه التجربة مع هذا القواد المخنث... وتساءلت: ما الذي كان يعرضه عليّ؟ ذكورته، أم أنوثته؟ ولكنه ليس أنثى.. والشعر والزينة، والأثداء.. ولكن.. وخجلت حتى من قولها لنفسها. كان ذكراً.

وصلت إلى بيت العمة الذي صارت مالكته وكانت قد أوصت به لأروى قبل وفاتها، وحارت أروى فيما تفعل به، ولكنها بعد عدة زيارات للبيت اكتشفت أنَّ البيت في حاجة إليها فالقطط تستطيع أن تبحث عن رزقها بنفسها، ولن تكلف نفسها مشقة العناية بها، أما نباتات الزينة فتحتاج إلى العناية، وصارت زياراتها للعناية بها، ولما لاحظت أن أحداً لم ينتبه لغيابها عن البيت نامت مرة في بيت عمتها ولما انضمَّت إلى كوميضا الشيخ أحمد على أنها أنور صار على أنور أن يلعب الجنسين، فكانت تدخل لبيت عمتها أنور، وتخرج منه في طريقها إلى بيت الآغا أروى، وتدخل أروى وتخرج أنور حتى ضللت الفضوليين وكان يمكن لهذا التضليل أن يستمر طويلاً لولا أن الشاويش الذي لم يعد له من عمل منذ أن أذاب السيل المقبرة ولم يبق عريساً ولا طفلاً، ولا شاهدة فأضاعت الضباع طريقها إلى المقبرة.

في ذلك اليوم الذي سمع فيه بأنَّ الوالي قد استدعي إلى استانبول أحسّ بالارتياح، فلابد أنّ الوالي الجديد سينظر في أمر الأموال التي يجب أن تدفع لهم، أو أن يستعيدهم إلى الخدمة في الجيش السلطاني. قصد الشاويش بيت الآغا ليخبره بأن الوالي قد استدعي إلى استانبول، ويرجوه وهو يظن أنّ دالة جديدة

صارت له عليه منذ تشاركهما في حكاية الضبع، يرجوه أن يتدخل لدى الوالي الجديد في عرض قضيته. فلعله يستعيده إلى الخدمة في الجيش السلطاني فيستعيد شيئاً من احترام أهل الضيعة له.

حين وصل قريباً من باب الآغا رأى امرأة في ملاءة تخرج من البيت. لم تكن ثيابها ثياب خادمة ولا جارية، وأصيب بالحيرة، فمن تكون هذه المرأة التي تخرج من بيت الآغا عصراً، والحاجة نفيسة قد توفيت في سيل حجة النسوان، هل للآغا زوجة أخرى. أو ربما كانت بنته.. إنه لم يسمع أنّ له بنات، وقرّر فجأة لا لسبب إلا العطالة يعيشها وسأم مسيطر عليه أن يلاحقها.

وحين وصلت إلى بيت العمة رآها الشاويش وهي تفتح الباب بمفتاحها الخاص. فزادت حيرته: ما معنى هذا، ومن هذه المرأة؟ وقرر أن يسأل الحجي، أو عنيز المقرب من الحجي.

جلس على حجر قريب وأخذ يتظاهر بتصليح نعله حين رأى الباب يفتح ويخرج منه شاب وسيم أمرد في ثياب أنيقة وشهق الشاويش: ما هذه الإرباكات. ومن المرأة التي جاءت من بيت الآغا، ولمَ لم تخرج.. أتراها كانت على موعد مع هذا الشاب؟ وهاهو يغادر. ولسبب لا يعرفه تذكر ذلك الشاب الذي رآه يدخل إلى حيث شيخ الكوميضا يطلب إليه العمل.وتساءل حائراً: ما الذي ذكّره به الآن، ثم..... نسي التساؤل وهو يتابعه، فهو لم يكن يريد إلا أن يتسلى، وكان يتمنى لو كان يستطيع استبقاء جزء منه، أو من يأمن له ليراقب البيت والمرأة التي ستخرج من البيت

لحق بالشاب وفوجئ به يتجه إلى السوق الطويل، فلاحقه وكان الوقت يقترب من العتمة حين رآه يتجه إلى تياترو الشيخ أحمد، تابعه ورآه يدخل

دون أن يشتري تذكرة، وكل ما فعل هو إلقاء التحية على الرجل إلى جانب الباب، والدخول.

جرَّب أن يفعل مثله، فألقى السلام وحاول الدخول، ولكن الرجل تعلق به وطالبه بشراء تذكرة، وخجل من الرجوع، فاشترى تذكرة ودخل.

وكان عليه أن ينتظر لما يزيد على الساعة قبل أن يتقاطر الرواد ويبدأ العرض. لم يكن يعرف ما يجب عليه أن يصنع، ولكنه وقد اشترى بطاقة بثمن يعادل طعام يومين كان عليه أن يحصل على ما يساوي ما دفع، فانتظر، وأخيراً...رآها.. أروى المرأة الجميلة على الخشبة وكانت أنس الجليس، رآها تتغنج وتتدلل، وتغري علي نور الدين اللعوب، وأحسَّ فجأة بالتوحد مع علي نور الدين. كانت المرة الأولى يرى فيها امرأة على هذه الخبرة والإغراء والتغنج، ورأى الناس من حوله، وقد انسحروا بما رأوا، فانسحر. ونسي الحجي وخديجة والآغا والشاب الذي طارده، وصار علي نور الدين، وصارت أنس الجليس طوع يده، فهاهي تتغنج بكل قراحة الجارية العباسية المدربة وهاهي تعِدُ ولا تفي وتغري ولا تنيل، وبهدوء أحسَّ برجولته تعود إليه. أعوذ بالله. كيف؟ وأنا الذي هجرت خديجة وهجرتني. كيف وأنا الذي لم أقرب حراماً طيلة الحروب، والنساء اللواتي حلّلتهن الحرب، فلم أنل بعد هذا كله إلا عجزاً عن الإنجاب ثم عجزاً عن النساء، و....أنس الجليس؟ إنها في المتناول. في المتناول. أعوذ بالله. أهي حقاً بالمتناول؟

انتهت الكوميضا وارتفع التصفيق ووجد نفسه يجاري الحاضرين فيصفق، ورأى الستارة ترتفع ورأى المشخصاتية مصطفين ينحنون محيين للجمهور، ولكن أين أنس الجليس؟ لا. لم تكن بينهم. أما من كان بين المنحنين، فكان الشاب الذي طارده منذ العصر.

أصيب الشاويش بالحيرة، فمن هو هذا الشاب؟ من هو هذا الشاب، وأين أنس الجليس؟ وسأل الرجل إلى جواره: ولكن أين أنس الجليس. وكاد الجار ينقلب على قفاه ضاحكاً وأشار إلى الشاب: هاهو أنس الجليس. ماذا... وشرح له الجار بكلمات مقتضبة أنَّ الأمر كله تشخيص في تشخيص، فليس هناك من علي نور الدين ولا خليفة، ولا أنس الجليس. وكل هؤلاء ليسوا إلا مشخصاتية.

كان الأمر رعباً حقيقياً للشاويش الذي خرج إلى الشارع وأخذ يفكر: أعوذ بالله. أنا أشتهي رجلاً؟ أشتهي رجلاً؟ أأكون شاذاً ولا أعرف... وكاد يلطم رأسه بالجدار في رعب. إذن فكل مصيبتي أني شاذ ولا أعرف.

كان المشاهدون قد انصرفوا، وأخذ العاملون في التياترو ينصرفون، ورأى الشاب الأنيق الذي طارده منذ العصر يخرج، فقرَّر الحديث إليه وسؤاله عن عمله بالضبط وكيف استطاع إقناعه بأنه أنس الجليس، ولكنَّ الشاب كان سريع الخطى، فلم يمكنه من اللحاق به إلا لو ركض، ولم يكن مستعداً للركض... ولكنه استمر في مطاردته عن بعد، ومن آخر الحارة رآه يدخل البيت الذي طارده منه.

جلس على الحجر نفسه، ولكن في العتمة هذه المرة. كان مصراً على معرفة من يسكن هذا البيت، ولم يخيب الانتظار صبره إذ لم يكد يدفئ مجلسه حتى انفتح الباب، وخرجت المرأة... أعوذ بالله. امرأة؟ تمعن فيها وهي تمر إلى جواره، ولا تراه إنها من خرجت من بيت الآغا... هاه. لقد فهم الأمر، إنهما متزوجان، أو أنَّهما على علاقة آثمة وإلا، فما هذا الدخول السري والخروج السري، ومن هو هذا الشاب الذي كان أنس الجليس قبل قليل؟

تابعها تمشي على عجل. لماذا كانا دائماً على عجل، وهل نصيبه أن يجري طيلة الوقت. تابعها حتى بيت الآغا، ورآها تفتح باب بيت الآغا، وتنسلُّ.

توقف حائراً، وكان دماغه يرفض فكرة الخطيئة واللقاءات الآثمة، ولكنَّ كل الإشارات تدل على هذا. توقف يفكر حين فتح باب البيت المجاور الذي رأى منه قبل أيام الرجل الذي سماه عنيز بالشيطان، فتوقف متوتراً: أهو ثانية. الشيطان ثانية؟ ولكنه فوجئ بعنيز الذي سأله بوقاحة لم تكن مألوفة منه: ماذا تفعل هنا...؟

كان الاتهام الوقح واضحاً. إنه يتهمه، - وكان يعرف أنَّ عنيز على حق - بالتلصص على النساء، وهل من تفسير آخر لوقوفه في الحارة العتمة ليلاً.

اضطرَّ الشاويش إلى البوح لعنيز بكل ما عرفه، وكانا يتجهان إلى بيت الحجي ليبلغه عنيز بشكوكه، واضطر الشاويش إلى اللحاق به حين أكمل عنيز طريقه إلى بيت الحجي. كان عنيز صامتاً في وقار بينما كان الشاويش يلاحقه وحسٌّ بالذنب يجلله، لقد أمسك به عنيز في لحظة خاطئة كان يتنحنح ويتنحنح يريد استعادة الحوار مع عنيز، فاستعادة الحوار تعيد للشاويش بعض الاحترام، وبعض الاستعادة لمركزه أمام عنيز الجحش، الحلاق، المطهر ولكنَّ وقار وصرامة عنيز وصمته وإحساسه الجديد بأهميته فرض على الشاويش الصمت واللحاق به مشتركاً في لعبة المراكز الجديدة، وفيما بعد سيتساءل: لمَ لم يتخل عن الأمر كله ويعود إلى بيته، وينسى كل هذا الهراء، ولكن الصمت والوقار الجديدين اللذين تلبَّسا عنيز فرضا عليه إحساساً بالضعة فهو قد قبض عليه يتلصص، وهذا مناف للشرف... وعاد للسؤال: لمَ لم يعلق عنيز على حكاية الأمرد الذي خرج من البيت في حي البرغل، ثم مضى إلى الكوميضا ليشخص أنس الجليس الفاتنة كما أخبروه. توقف وضرب الأرض بقدمه: لمَ لم يندهش، ويتساءل؟

وصلا إلى بيت الحجي، والذي كان على أهبة تغيير ثيابه استعداداً للنوم حين استقبل عنيز أما الشاويش فقد انتظر في الخارج، وفيما بعد سيعاوده السؤال: ما الذي أحاجه إلى هذا الموقف المهين. أتراه الفضول؟ وسيطرق محرجاً: نعم كان الفضول.

فتح الباب وسلَّم الحجي على الشاويش في جفاء. إذن فقد كان يعرف بوقوفه منتظراً أمام الباب ولم يدعه إلى الدخول. فكر الشاويش، ولحق بهما يركضان إلى حيث بيت الآغا الذي لم يكن في البيت كما أجابت الخادم.

ولما كان باب بيت أم الآغا مفتوحاً، فقد دخل ثلاثتهم وتناول عنيز السراج، ولاحظ الشاويش أنَّ عنيز يتصرف في قيادية لم يألفها منه وهو الحلاق المجامل، المتمسّح طيلة الوقت.

اتجه عنيز إلى الدرج المتهالك، وأشار إلى الحجي بالحذر وصعد يلحق به الحجي، ثم الشاويش الذي لم يدعه أحد إلى الصعود و الحذر، ولما رأى الحجي الخرق المختبئ خلف أغصان الدالية في الجدار استيقظ فيه روح المطارد التي كانت قد تملكت عنيز منذ حريق الرسوم كاملة، ولما لم يجب أحد على صياح عنيز المستأذن دخل عنيز عبر الخرق، ثم لحق به الآخران.

كانت غرفة أروى منارة، فاقتربوا من النافذة، وأطلوا ليروا صورة إبليس ذي العضوين معلقة على الجدران في أوضاع مختلفة والقناديل والشموع مضاءة تحتها، وكأنها التقدمات التي توضع في المزارات أمام أضرحة الصالحين، وصاح عنيز في انتصار: كنت أعرف. كنت أعرف.

وهجم على الباب، ففتحه غير متوقع وجود أحد في الغرفة لذلك حين صرخت أروى مفاجأة، ارتدّ إلى الوراء مفزوعاً، ولكنها حين أكملت صراخها

وعويلها هرب إلى الخرق ولحق به الآخران فلم يكن أحد منهم في حاجة إلى فضيحة القبض عليه يهاجم امرأة في غرفتها حتى لو كانت محاطة بالأباليس.

هرب الثلاثة من بيت الأم، ثم اختفى كل منهم في اتجاه يخاف أن ينظر إلى وجه الآخر فيرى فضيحته في وجهه ومايزال العويل ينطلق من غرفة أروى العلوية والذي ما لبث أن انضم إليه عويل الخدم في الأسفل وكان الثلاثة يمشون بهدوء متعجل، ولكنهم حين رأوا الأبواب تنفتح مستطلعة أطلقوا سيقانهم للريح.

لم ينم عنيز في غرفته المستأجرة تلك الليلة، ولم ينم الشاويش في غرفة الضيوف أيضاً، بل مضى لينام إلى جانب خديجة، كان يحس أنه في حاجة إلى الاحتماء بشيء حقيقي يخرجه من حالة التشوش التي عاشها في ليلته تلك، أنس الجليس خلاصة نساء الأحلام تنكشف عن صبي يلاحقه ثم يختفي، ثم تخرج من البيت نفسه المرأة التي كانت قد خرجت من بيت الآغا. وفجأة انتصب من رقدته لعلهما الشخص نفسه؟ أعوذ بالله. أي اضطراب...لا. لا يمكن. ولكن هذه الكفريات في الغرفة العلوية في بيت الآغا، ورسمة الشاب الجميل ذي العضوين يتجه إلى الطيران بعينيه وحركة جسده. ما معنى هذا... ما معنى هذا... أهو التمهيد لملكة إبليس كما كان الحجي يحذر. ولكن.. عنيز حدثه عن قتله الشيطان في السوق الطويل، حدثه عن الكفريات التي تركها وراءه في بيت أم الآغا... ما معنى هذا. ما معنى هذا.. رأسي يكاد ينفجر.

حاولت خديجة تهدئته عرضت عليه مغليَّ الزهور لتهدئته، ولكنه رفض. كان رأسه يضج بالشكوك والأسئلة. وأخيراً سمع أذان الفجر، فتحجج بالصلاة، ومضى يتوضأ، وخرج من البيت دون أن ينام في ليلته تلك.

وقف وراء الحجي في صلاة الفجر، ولاحظ عنيز يسجد أمامه في الصف الأول وراء الحجي تماماً، لم يسجد الشاويش بل تأمل الساجدين يبحث عن الآغا، ولكنَّ الآغا لم يكن بين المصلين. فتساءل إن كان قد عرف باقتحامهم بيته في الأمس، وشعر بعرق الخزي ينسلُّ من أبطيه وأصابعه.

لم يكن ثلاثي الاقتحام من لم ينم في ليلتهم تلك، فالآغا هرب من الحارة بعد غمزات برناردو وإبليس الساخرة من بين ألسنة اللهب ومضى يضرب في الحارات حتى وصل إلى التكية، فجلس بين أشجار الصفصاف يتأمل النهر المتسلل أمامه ويرى انعكاس النور الضعيف على مويجاته الناعمة. أراد استعادة التجربة منذ رسالة نعمان الصيدناوي، ولكن الخزي والخجل أعادا غمره. رأى رسمة برناردو المعلقة وهي تتلوى بين النيران وتغمزه ساخرة. أتراه غمزه فعلاً...

لم يحسَّ برغبة في المضي إلى البيت، ولماذا؟ لم يحسَّ برغبة في رؤية الحجي الذي كان من الواضح أنه يستغل فترة ما بين الواليين ليحقق مشروعه الذي لم يكن يخفيه والذي كانت نفيسة خانم تعلنه أمامه: الشام شريف والأرناؤوطي الملعون اخترق شرفها، ويجب أن تستعيد دروها كشام شريف. الخطوة الأولى على طريق السماء.. الحج المبارك.

وقبل انبلاج الفجر أحسَّ بمغص صغير في بطنه: كيف تخلى عن برناردو؟ كيف رضي بتسميته بالشيطان، كيف سمح بإحراق رسماته؟ ولكنه وجد نفسه يصرخ: وما الذي كنت أستطيع فعله... كانوا كثيرين. وكان من الواضح أنهم يأتمرون بأمر الحجي، وماذا لو ضربوني، أو أهانوني وأنا الرجل العجوز لا ولد لي ولا أخ يدافع عني.

ورأى نفسه ينكمش متصاغراً، متمنياً لو أنَّ النهر ابتلعه قبل أن يعيش ليرى هذا اليوم.

حاول القيام، ولكن البرد كان قد أثقله وجمَّد حركاته. ولكن كان من الواجب أن يقوم، فالمؤذن في التكية يعلن الفجر، ومن الأفضل أن يمضي إلى الجامع، فهناك سيحصل على بعض الدفء ويرتاح بعد الصلاة في انتظار العودة إلى البيت.

تحامل على نفسه واتجه إلى التكية: أنت تشيخ بسرعة يا حسن آغا. تشيخ ولم تنجز شيئاً، وتذكر شعار أبيه الدائم: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، ولكن... تنهد وهو يدخل إلى مسجد التكية، لا صدقة جارية، فلقد أنفقت كل مالك على الكتب التي لم تحبها نفيسة خانم يوماً، ولا ولد صالح فلقد سمحت بقتل ولديك في سبيل قضية ها أنت ترى الجميع يدير ظهره لها، بل هاهو الحجي يأمر بإحراق آثار طريد القارتين، ولا تحرك إصبعاً لمنع ذلك. ولا علم... وتوقف عند البحرة الكبيرة في باحة التكية حيث كان سكان التكية يتوضأون...لا...بل هناك العلم.. هناك كل تلك الكتب التي جئت بها وجاؤك بها من فرنسا ومن مصر.. أتظن أنك الوحيد ينتفع بها، لا، فالكتب...

استدار على عقبيه ولم يتوضأ. مضى إلى البيت، لقد أحرقوا رسمات برناردو، ولكنهم لن يحرقوا الكتب.

لم يفطر الثلاثي، بل مضوا إلى بيت الآغا. قال الحجي: لو لم أرها بعيني لشككت، ولكن....والتفت إلى عنيز بقسوة: إنها بنت الآغا هه؟ وأطرق عنيز برأسه في إيجاب دون أن ينطق. ولكن. لماذا.. كيف وصل الشيطان إليها وتمتم عنيز وهو يشدّ الحجي بعيداً عن الشاويش: سر. أريد الاعتراف به.

- سر؟
- نعم.
- تكلم.
- الأطفال العجبة!!

وتلفت الحجي من حوله في قلق يخاف أن يكون هناك من يسمع وتمتم: ما بهم؟

- منذ سنين استدعتني نفيسة خانم الله يرحمها.
- هه. قالها في توتر يستحثه على الإكمال.
- وكانت قد وَلَدَت وحيدة في البيت وقبل وصول الداية.
- هه...
- أرتني الوليد... وتمتم مضطرباً محنياً رقبته كمن يتوقع صفعة من الحجي... كان لها أصابع زائدة في كفيها وقدميها.
- ماذا؟

كان الشاويش الواقف على مبعدة حادّ السمع، فسمع الجمل الأخيرة حين تخلى عنيز عن حذره وإن لم يستطع تمييز الضمير إن كان لصبي أم لبنت.

وهزّ عنيز رأسه في ذلة: نعم.

وصرخ الحجي: وتركتها تعيش؟ رغم الفتوى؟

سمع الشاويش الصرخة كاملة، واستدارت عيناه رعباً، فلقد جاءه الجواب على تساؤلاته التي يعرفها والتي لا يعرفها، الأسئلة التي أرّقته منذ صار حارس المقبرة وبقايا الأطفال العجبة المشوهة.

لم يسمع جواب عنيز ولكنه خمّنه، وعرفه حين سمع الحجي يهمس بصوت مليء بالكراهية: يا أجير الشيطان. يا أجير الشيطان. عليك اللعنة.

استدار ليعود إلى بيته محبطاً ولكن عنيز لحق به، وأخذ يقبل يديه معتذراً: كانت تبكي كالمجنونة. قالت: فقدت ولديّ، فلا تجعلني أفقد الثالث، فلم أستطع إلا العطف.

وقال الحجي من بين شفتيه في غيظ: العطف، أم المال يا ملعون، يا أجير الشيطان.

كانت الصورة تتضح الآن كاملة أمام الشاويش، وكانت الإجابات تتجمع. إذن فهذا هو التفسير لموت وبتر وسمل أولئك الأولاد العجبة.

استدار ومضى يضرب في الحارة وارتياح كبير يملؤه. إذن فالحجي كان وراء كل أولئك الأطفال المساكين المبقورين والمسمولين، والمدفونين في مقبرة كفر سوسة.توقف يتساءل: عمّن يتحدثان الآن. عمّن يتحدثان.. عن ابن نفيسة خانم؟ عن ابن الآغا، ولكن ليس للآغا ابن بعد مقتل ولديه.

جرَّ الحجي عنيز من يده بقسوة، وعاد به إلى بيت أم الآغا، ولم يلتفت أيٌّ منهما إلى الشاويش الواقف أول الحارة يدعوه إلى مرافقتهما، فتوقف حائراً غير قادر على تقرير ما سيفعل.أخذ يتلفت من حوله استعداداً للمغادرة حين رآه يجرُّ رجليه عائداً إلى الحارة، فعرفه من قبعته الغريبة ومشيته المتهالكة. فجرى إليه يستقبله: آغا... آغا.. وتوقف الآغا الجائع، المتعب لم ينم، والمرهق بخزيه: نعم

وتأتأ: سيقتلون ابنك. سمعتهم الآن يتآمرون، الحجي وعنيز.

- ولكن ليس لي ابن.

وتأكد الشاويش الآن من شكِّه. ليس للآغا ابن. وإذن. وألح:

- سمعت عنيز الآن يتحدث عن ابن لك، ابن عجبة توسلت نفيسة خانم لإعفائه من الموت عند ولادته.. ويبدو أنها دفعت له مبلغاً كبيراً ليبتر زوائده ويخفيه عن الحجي.

اصفّر الآغا حتى كاد يقع، فاحتضنه الشاويش، ومضى يجره إلى بيته، يهدئه. فتح الآغا الباب وأمر الخادمة بفتح غرفة الضيوف – المكتبة ففتحتها، ودخلا يكاد الشاويش يحمله ليستريح في الغرفة التي لم يدخلها الشاويش من قبل. راقب الدهشة والذهول على وجه الشاويش. قال: لم يعد لي أحد لأثق به. هل أستطيع الثقة بك؟ وردَّ الشاويش في شهامة: ثقتك بذراعك. فكر الآغا في ضعف: ولكن، هل أنت أهل للثقة؟

لم يسمعا أثناء حديثهما صوت صعود الحجي وعنيز على الدرج الخشبي المتهالك في البيت المجاور، ولم يسمعا صوت عبورهما الخرق في الجدار، ولم يسمعا صرخة الدهشة من رسمات إبليس التي انتبها الآن إلى أنها كانت رسوماً لصبي جميل ذي عضوين، فأدار الحجي وجهه مستنكراً: الملعون. الملعون. اخسأ يا ملعون. وصرخ بعنيز: أطفئ الشموع. اطفئها إنها الغذاء الذي يتغذى عليه.

أطفأ عنيز الشموع والأسرجة والقناديل أسفل الرسمات تضيئها. وتابع الحجي: احملها بهدوء إلى بيت أمه تحت. احملها.

حمل عنيز بعض الرسمات بينما كان الحجي يقرأ المعوذتين وينفخ على عنيز وعلى الرسمات، وأخيراً عبر عنيز بها الخرق، ورماها من فوق الدرابزين إلى الباحة الملوثة ببقايا حريق الأمس، ثم عاد لجمع الباقي.

* * *

قال الآغا يعترف في ضعف: أنا خائف من الحجي. خائف من أذاه، خائف من جماعته، لم يعد فيّ قوة لمنعه، وليس لديَّ أبناء لصده، وليس في

المدينة وال لأشكو إليه. وكل ما جمعت في هذه الحياة هي هذه الكتب، وأخاف لو رآها أن يحرقها. هل تستطيع إنقاذها.

شعر الشاويش أنه وهو العاطل عن كل فعل منذ سنين، شعر أنه يستعيد دوراً في الحياة. يستعيد الحسَّ بالأهمية، وربما كان لتجاهل عنيز والحجي له، وربما كان لإصرارهما على احتقاره دور في هذا، فنظر إلى عيني الآغا في ود، وقال: اعتبرني ابنك.

انطلقت روائح الحريق، روائح الزيوت والقماش المحروق، وتساءل الآغا: فما الذي يحترق الآن؟

قال الشاويش في انكسار: رسمات إبليس.

وهتف الآغا في يأس:

- ولكنهم أحرقوها بالأمس.
- ليست هي، بل رسمات إبليس التي عثروا عليها في غرفة البنت فوق.
- البنت؟ شهق الآغا مرعوباً، ثم وقد تذكر: صحيح. أين أروى؟

كان قد استعاد بعض قوته فخرج من الغرفة ليجد النساء الثلاث يفطرن في سعادة، فصرخ: أين أروى؟ لكنهن لم يكترثن لهياجه، فقد تعودن على عدم الاهتمام لأمر الرجل العجوز، واعتدن على غياب أروى عن البيت، فتسيَّدن على البيت، وقالت الخادم في برود: خرجت منذ الصباح الباكر.

- إلى أين؟

استمرت الجاريتان في الأكل، ولم يحس الآغا بالإهانة من تجاهلهما له، فقد عوَّدهما واعتادتا ذلك. كان ما يهمه الآن أروى فقط، وردَّت الخادم وهي تمضغ: لا أعرف.

اندفع على الدرج تاركاً الشاويش في الغرفة – المكتبة، اتجه إلى غرفتها وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه، فجأة غزاه القلق العنيف وأحسَّ بمصيبة ما. هناك شيء مروع قد حدث. هذه البنت. هذه البنت لماذا هجرتني منذ علمت بوفاة أمها، أو... ولم يستطع قول لماذا هجرتها وتخليت عنها، وتركتها تضطرب في الحياة؟

دخل الغرفة وفاجأه الاضطراب في المكان، فلقد نبش كل شيء، وأخرجت اللحف والشراشف من اليوك ورميت، كانت البسط الجميلة التي تعجز نساء المدينة عن نسج مثلها قد نثرت في المكان وديست، ولوثت بالأصباغ، ولكن الرسمات لم تكن هناك، ولم يشعر بالقلق فهو لا يعرف بوجودها، وكانت الأصبغة والألوان ملقاة في كل مكان ملوثة الشراشف والبسط. كان يحس بقلبه يختنق، فلقد عرف أن مصيبة حدثت ولكن كيف، والبنات تحت لا يعرفن عنها شيئاً. وصرخ فجأة: أروى. أين أروى؟

خرج إلى المشرقة وكأنه يبحث عنها، وفجأة رأى الخرق المتهدم في الجدار الفاصل بين البيتين. وسأل نفسه: هذا الخرق، لماذا؟ هو لم يره من قبل، ولكنه تذكر، ولماذا يراه وهو لم يصعد إلى هذا المكان منذ سنين؟ كانت همومه وكتبه وانشغالاته قد صرفته عن التفكير في أروى والبيت.

جثا إلى جانب الخرق، ورأى أغصان الدالية على الجانب الآخر، أزاحها وهو يعرف أنها تطل على بيت أمه – *ملجأ طريد القارتين*!!! سمع أصوات رجال غاضبين، ولكن من أين يأتي هذا الصوت. من أين؟ من بيت أمه؟ عبر الخرق شبه زاحف. تحامل يتمسك بأغصان الدالية، واتجه إلى الدرابزين وأصوات الرجال الغاضبة تعلو.. نظر إلى الباحة ورأى الرسوم، الرسوم الكثيرة المكومة وعنيز يسكب الزيت عليها، أحدّ النظر، ورأى ما سمَّوه صورة إبليس

ذي العضوين وهي تلتمع بالزيت المسكوب عليها، ورأى الحجي يحمل واحدة منها وهو يبربر ويلعن، ثم يوقفها جانباً وكأنه يتأملها، ورأى الرسمة: أعوذ بالله. الوجه يشبه وجه أروى، يشبهه حتى التطابق...من رسمه من؟ وكانت الرسمة ممطوطة إلى الأعلى، وكأنها تستعد للطيران. كانت تمدُّ ذراعيها وكأنها ستطير، عند تلك اللحظة لا يعرف إن كان أراد أن يطير إليها، أو أنه فقد الوعي، أو أنها هي من طارت إليه لأنه فجأة كان يطير إليها، وعند طيرانه طارت أروى إلى فوق، وكأنها أرادت استقباله أو حمايته من الاصطدام بالأرض، هل التقيا على الطريق؟ لا يعرف، ولكنه قبل أن يصطدم بالأرض رآها تطير وتطير غير مكترثة بأيدي الحجي وعنيز والغوغاء في الباحة الذين كانوا يصرخون في ذعر وهم يرونها تطير وتطير متأبية على نارهم.

كتب صدرت للمؤلف

1 ـ ملكوت البسطاء ـ رواية ـ دمشق ط1 1975. ط2 1982. ط3 2010

2 ـ طائر الأيام العجيبة ـ رواية ـ دمشق ط1 1976.

3 ـ ليال عربية ـ رواية ـ بيروت 1980 ـ دمشق ـ دار التكوين 2009.

4 ـ المدينة الأخرى ـ رواية ـ دمشق. ط1 1985.

5 ـ التحولات:

أ ـ حسيبة ـ رواية ـ 1987 ـ 1996 ـ 2003 ـ 2009.

ب ـ فياض ـ رواية ـ 1990 ـ 2003 ـ ط3 2009.

جـ ـ هشام أو الدوران في المكان ـ رواية ـ ـ 1997 ـ 2003 – 2010

6 ـ الجد المحمول ـ قصص ـ 1992.

7 ـ التدريب على الرعب ـ مقالات ـ 2003.

8 ـ فخ الأسماء ـ رواية ـ بيروت 2003 ـ دمشق ـ دار التكوين 2009.

9 ـ لو لم يكن اسمها فاطمة ـ رواية ـ القاهرة 2005 ـ بيروت 2006 ـ دمشق ـ دار التكوين 2008.

10 ـ صبوات ياسين ـ رواية ـ بيروت 2007.

11 ـ رقصة البهلوان الأخيرة ـ رواية ـ دمشق 2008 ـ دار التكوين.

كان المصري قد مضى إلى مصر، وتخلى قبل رحيله عن الشاميين الذين جنّدهم من حمص وحماة ودمشق ونابلس وغزة، واستبقى من لم يعودوا يحبون دكان السمان، ونول الحرير، والسعي وراء الحمار لبيع ما أنضج البستان. استبقى أولئك الذين التذوا للمرة الأولى منذ أجيال بفتح المدن، واصطفاء التركيات الجميلات. والطرق على باب الموت والنجاة في اللحظة الأخيرة.

....

أغمضت عينيها لترى إن كان بإمكانها أن ترى البرق عبر جفونها المغلقة واندفق البرق، فامتلأ رأسها بالبياض. لا.. لم يكن البرق البارق فقط، فقد كانت عيناها مليئتين بالنور الأبيض الدائم. ارتعبت، ففتحت عينيها ورأته... نعم.. رأته ببساطة. كان يقف معلقاً في الهواء وقد نبت له جناحان نشرهما وإن لم يرفّ بهما. أنزلت كفها بسرعة تستتر، وسمعت قهقهته: أروى.. أروى. أمنّي تستترين؟ أروى.. أروى.. أنا صبي أحلامك حتى قبل أن يكون لك أحلام. أفتذكرين؟ وهزّت رأسها في إيجاب لم تسأله عن هويته، فقد كانت تعرفها، ولم تسأله عمّا جاء به إلى هنا فقد كانت تعرف الجواب قبل أن تسأل.
كان جناحاه مشدودين لا يرفان، وكان المطر ينزلق عنه كما ينزلق عن الزجاج..كانت تعرف أنه سيمضي ويختفي كما تفعل كل شخوص الأحلام. كانت تعرف ذلك بكامل وعيها، ولكنها كانت تأمل أن يكون مختلفاً بعض الشيء هذه المرة، وأخيراً فتحت عينيها على سعتهما ولدهشتها لم تطرف، ولم يدخل إليهما ماء المطر على غزارته. فتحت عينيها وواجهته: كم أنت جميل، قالت في سرها، ولكنه صرخ من موقعه بصوت عال: أعرف. أعرف كم أنا جميل، وأعذرك إن فتنت بي وإن كنت لا أشتهي ذلك.. قالت: ألا تنزل إليّ؟ قال: ولم أنزل إليك؟ قالت: لأراك عن قرب.. قال: ولكنك رأيتني وعرفتني، ورسمتني أنسيت؟.

....

رواية خيري الذهبي حدث متميز في الرواية العربية، رواية متميزة لتجنبها الكثير من مآزق الرواية العربية، وبسبب اقتحامها لميادين جديدة في التجربة الروائية.

الروائي غالب هلسا

تصميم الغلاف كريم آدم



ميريت